الن دلاس

الرئيس السابق للمخابرات المركزية الامريكية

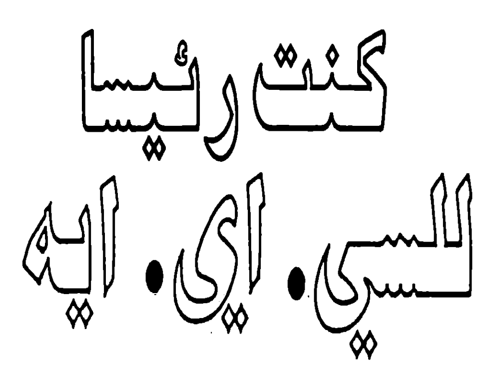
كنت رئيسا للسي. اي. ايه

ترجمة: د. علاء الأعصر





كنت رئيسا
للسي. اي. ايه



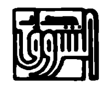
تأليف:

آلن دالاس

المدير السابق للمخابرات المركزية .C.I.A

ترجمة د. علاء الأعصر

مراجعة: محمد الظاهر ومنية سمارة



* آلن دالاس: كنت رئيساً للسي أي ايه
* المترجم د. علاء الأعصر
* مراجعة: محمد الظاهر ومنية سمارة
* الطبعة العربية الأولى ١٩٩٠

* الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع
ص. ب ٩٢٦٤٦٣ ت ٦٢٤٣٢١
تلكس ٢٣٥٥٧ يونيتور فاكسيميلي ٦٤٠٥٩١
عمان - الأردن

* التوزيع : المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش. م. م.
ص. ب. ١٣/٥٦٨٧ ت ٨٠٣٥٣٧
تلكس ٢٠٩٨٣ أسيب
بيروت - لبنان

مقدمة الناشر

ينتمي ألن دالاس ـ مؤلف هذا الكتاب ـ إلى عائلة امريكية عريقة في عالم السياسة، فالأب ـ دالاس ـ كان واحداً من رموز السياسة الأمريكية في آوائل هذا القرن، أما الابن الأكبر ـ جون فوستر ـ دالاس ـ فقد كان من أشهر وزراء الخارجية الأمريكيين الذين لعبوا دوراً بارزاً في السياسة الخارجية الأمريكية في الخمسينيات من هذا القرن.

وقد اختار ـ ألن ـ طريقاً آخر للتحكم في صنع السياسة الأمريكية، ألا وهو طريق العمل في جهاز المخابرات المركزية الأمريكية، فقد عمل خلف خطوط النازيين في الحرب العالمية الثانية، ثم أخذ يرتقي في سلم العمل المخابراتي إلى أن أصبح رئيساً للمخابرات المركزية الأمريكية، في فترة من أهم فترات عمل هذا الجهاز، وهي فترة الحرب الباردة بين العملاقين، حيث شهدت ساحة المخابرات الشرقية والغربية عمليات كر وفر، وعمليات اختراق عظيمة، كانت البديل للحرب الساخنة التي تخوضها الجيوش في ساحات الحرب.

وقد حاول ـ ألن دالاس ـ في هذا الكتاب أن يرصد هذه التطورات، وأن يقدم صورة شبه كاملة عن العمل في أجهزة المخابرات وعمليات التجنيد، والاتهامات الموجهة لوكالة المخابرات الأمريكية، وارتباطات أجهزة المخابرات العالمية في الشرق والغرب، ولكن يجب ألا يغيب عن بال القارىء العربي وهو يقرأ هذا الكتاب أن الكاتب هو رئيس جهاز المخابرات الأمريكية، ولذلك فإن المعلومات الواردة فيه لا تعبر عن وجهة النظر الأمريكية فحسب، بل تعبر عن وجهة نظر صانع السياسة الأمريكية في العالم، ولذلك لا بد أن يجد قارىء هذا الكتاب دفاعاً مستميتاً عن هذا الجهاز وعن

العمليات الخطيرة التي قام بها في العالم، ومحاولة لتجميل وجه هذا الجهاز، وتبريراً، لكل الأعمال القذرة التي قام بها ضد الشعوب، وذلك بإظهار أن كل هذه العمليات إنما جاءت للدفاع عن الذات في وجه جهاز المخابرات السوفياتية والأجهزة الشرقية المرتبطة بهذا الجهاز، كما أننا نجد تشويهاً كبيراً لعمليات الاختراق الكبيرة التي قام بها جهاز المخابرات السوفياتية، والتي اعترفت بها أجهزة الاعلام الغربية ذاتها، واعترفت بالكفاءة العالية لذلك الجهاز الذي استطاع أن يخترق قمة مؤسسة المخابرات في العالم الغربي.

نحن هنا لسنا في مجال الدفاع أو الموازنة بين الجهازين، ولكننا نريد أن نبين للقارىء العربي أننا إذ نترجم لهذا الكتاب فإننا لا نتبنى بالضرورة الآراء الواردة فيه، ولا نروج لفكر دون آخر، أو تجربة دون أخرى، وإنما نحاول أن نضع تجربة رئيس وكالة المخابرات الأمريكية السابق بين يدي القارىء العربي كي يطلع على الحرب الساخنة التي كانت تدور بين أجهزة المخابرات الغربية والشرقية، وأن يعرف كيف كانت هذه الأجهزة تتحكم في سياسة العالم الخارجية والداخلية.

الكتاب إذن وثيقة خطيرة يجب قراءتها، ولكن هذه القراءة يجب أن تكون قراءة تحليلية متعمقة تستطيع أن تضع اليد على كل المغالطات التي حاول المؤلف تمريرها من خلال هذا الكتاب.

ونحن كناشرين لهذا الكتاب نؤكد للقارىء العربي أن هذا الكتاب لا يعبر عن وجهة نظر الدار التي تتحفظ على الكثير من الآراء الواردة فيه، ولكنها تنشره كوثيقة هامة، يجب على القارىء العربي أن يطلع عليها كي يتعرف على هذا الجهاز الخطير، وكي يربط بين عمل هذا الجهاز وبين ما يدور الآن على أرض الواقع العالمي، الذي يشكل العالم العربي ركناً أساسياً فيه، وساحة من الساحات التي شهدت معارك ساخنة خفية خاضها هذا الجهاز على ساحتها.

صحيح أن هذا الكتاب لم يشر إلى العمليات المخابراتية الشرقية والغربية في ساحة العالم العربي، ولم يتطرق إلى الكثير منها، ولكن القارىء الواعي القادر على الربط والتحليل، يستطيع من خلال هذا الكتاب أن يضع أمور منطقته في إطارها السليم.

«بسم الله الرحمن الرحيم»

تقديم

لا شك أن المخابرات الأمريكية بجميع فروعها وشُعبها داخل وخارج الولايات المتحدة تلعب دوراً كبيراً في تشكيل وصياغة القرار الأمريكي، والإشراف على تنفيذه ومراقبة آدائه. والقرار الأمريكي لما يمثل من تجسيد لمصالح واهتمامات الولايات المتحدة في شتى أنحاء الأرض، يعبر ولا ريب عن الصورة الكاملة للسياسة الدولية في الشرق والغرب. فوكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) CIA تعتبر مؤسسة هائلة اجتمعت لها إمكانيات غير محدودة لمراقبة وتقدير الصراع الكوني بين القوتين العظميين من جهة، وبين الدول الموالية أو المتحالفة مع الولايات المتحدة من جهة أخرى، ودول الستار الحديدي التي اصطُلِحَ على تسميتها كذلك لتبعيتها لروسيا السوفييتية، ومن خلال هذا تتمثل صورة من صور الصراع الدائم التي تؤثر على مجريات الأمور في أرجاء الكرة الأرضية الأربعة.

وفي محاولة لسبر أغوار ذلك الصراع، وإلقاء الضوء على القوى التي تمسك بمقاليد الأمور وتدير دفة الصراع، قمنا بجمع تلك المادة الغنية الشيقة لنضعها بين يدي القارىء ليصبح لديه مفهوم واسع وشامل عما يدور في كواليس السياسة الدولية وحقيقة دور المخابرات الأمريكية في ذلك. وهذه المادة كتبها واحد من أبرز الرجال الذين عملوا في إرساء دعائم المخابرات الأمريكية لتصبح على الصورة الحالية، بعد أن كانت جهوداً متفرقة فردية على مدار السنين منذ أن تأسست حكومة فيدرالية للعالم الجديد، واصطلح على تسميتها بالولايات المتحدة الأمريكية. وهذه المادة تناولتها بعض الصحف والمجلات الأمريكية والدوريات العالمية بالنقد والتحليل وأحياناً بالتهليل لشجاعة مؤلفها الذي أخرج هذا الكتاب ليصبح أوفى مرجع في شؤون المخابرات والسياسة الدولية. يعـرض الكاتب، آلن دالاس، الذي تقلد العديد

من المناصب الرسمية، وكان مديراً لوكالة المخابرات الأمريكية، لازاحة الستار عن طبيعة عمل تلك المؤسسة، ويؤرخ للمخابرات منذ بدء التاريخ، وأول من قاموا بهذه المهنة، منذ العهد القديم، والذين جاء ذكرهم في الأناجيل والمزامير، وعهد الرومان والامبراطوريات البائدة.

ويتعرض الكتاب للكثير من الموضوعات والقضايا الهامة مثل الحرب الباردة بين العملاقين، ودور المخابرات في المجتمع المفتوح، والمخابرات والحريات، وأسلوب عمل المخابرات السوفييتية والتابعين لها.

كما يورد الكتاب الأسماء الحقيقية للرجال الذين ساهموا في هذه الأحداث، وطبيعة عمل رجل المخابرات في السلم والحرب، وأسرار الكثير من العمليات التي لم تنشر، أو لم يمط عنها اللثام بعد.

لذا ارتأينا تقديم هذا الكتاب للقارىء العربي، لافتقار المكتبة العربية لمثل هذه المراجع والكتب التي تهم القارىء المتخصص والعادي على حد سواء، وقدمناه كاملاً غير منقوص دون تدخل منا بالحذف أو الإضافة، احتراماً لوجهة نظر الكاتب ودعماً لحرية النشر والتعبير.

• والله الموفق

د/ محمد علاء الدين الأعصر

حرفة المخابرات

(١)

نبذة شخصية

بدأ اهتمامي بالشؤون الدولية في فترة مبكرة من حياتي، ترجع في حقيقة الأمر إلى أيام طفولتي الأولى، فقد تفتح وعيي على القصص التي كانت تُسرد عن رحلة جدي لأبي والتي استغرقت ١٣١ يوماً في مركب شراعي من «بوسطن» فـــي الولايات المتحدة إلى «مدراس» في الهند حيث ذهب للعمل كمبشر هناك، وقد كادت سفينته أن تتحطم كلياً وهو في الطريق إلى هناك.

قضيت معظم فترة شبابي في «واشنطن» مع جدي وجدتي لأمي... وكان جدي جون فوستر وزيراً للخارجية مع الرئيس الأمريكي «هاريسون» عام ١٨٩٢. وبعد أن أصبح جنرالاً خلال الحرب الأهلية تم ايفاده إلى المكسيك وروسيا وأسبانيا حيث كان مبعوثاً للولايات المتحدة في تلك البلدان. وقد قضت أمي معظم سني شبابها في عواصم هذه الدول، أما أبي فقد كان يدرس في الخارج. وقد نشأت في جو تسوده المناقشات الأسرية حول كل ما يدور في هذا العالم.

كل ذكرياتي الأولى كانت تدور حول حروب الأسبان وأبناء جنوب أفريقيا من أصل هولندي. ففي عام ١٩٠١م عندما كان عمري ثمانية أعوام كنت أستمع لجدي وزوج ابنته «روبرت لانسنج» الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية في عهد الرئيس «وودرو ويلسون» وهما يتناقشان بحدة عن أحقية قضايا البريطانيين والجنوب أفريقيين من أصل هولندي. وقد كتبت آرائي الشخصية ـ المليئة بالأخطاء الهجائية وقوة التعبير ـ التـي اكتشفها الساسة الأكبر مني سناً وقاموا بنشرها كمذكرة صغيرة وقد أصبحت هذه من أكثر المذكرات مبيعاً في منطقة واشنطن، أما أنا فقد كنت الخاسر الوحيد.

بعد تخرجي من الجامعة.. وقبل أشهر قليلة من اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ م، وضمن مناخ الجهل العام بالأحداث المأسوية التي كانت على وشك الحدوث شققت طريقي للعمل حول العالم ممتهناً التدريس في مدارس الهند ثم الصين، بعدها سافرت للتعمق داخل الشرق الأقصى. ثم عدت إلى الولايات المتحدة عام ١٩١٥م، وقبل اشتراكنا في الحرب بعام واحد أصبحت عضواً في السلك الدبلوماسي.

وخلال السنوات العشر التالية خدمت في عدد من المناصب المرموقة:

أولاً ـ في النمسا ـ المجر حيث شاهدت في عام ١٩١٦/١٩١٧ م بداية انهيار الملكية في هابسبورج... ثم في سويسرا خلال الحرب ـ وكنت أبلغ المخابرات بما يحدث خلف جبهة القتال في ألمانيا وفي النمسا ـ المجر وفي البلقان. في حقيقة الأمر كان عملي كضابط مخابرات يفوق عملي كدبلوماسي. وقد تم تكليفي بالذهاب إلى مؤتمر السلام الذي عقد في باريس عام ١٩١٩ م لحضور مفاوضات معاهدة فرساي حيث ساعدت في رسم حدود تشيكوسلوفاكيا الجديدة وشاركت في القضايا المتعلقة بالثورة الروسية والتسوية السلمية في وسط أوروبا.

وعندما انتهى المؤتمر كنت أحد الذين افتتحوا أول سفارة لنا في برلين بعد الحرب في عام ١٩٢٠ م. وبعد رحلة عمل في القسطنطينية عملت لمدة أربع سنوات رئيساً لقسم الشرق الأدنى في وزارة الخارجية. وبعد فترة من الوقت وفي عام ١٩٢٦ م، وعلى الرغم من أنني لم أكن قد أشبعت فضولي بعد من معرفة العالم إلا أنني وبعد أن استنزفت مواردي المالية تحولت إلى ممارسة المحاماة من خلال شركة للمحاماة في نيويورك كان أخي أحد كبار الشركاء فيها. وقد تخللت فترة ممارستي لمهنة المحاماة فترات عملت فيها لصالح الحكومة حيث عملت مستشاراً قانونياً لوفودنا في مؤتمرات عصبة الأمم حول موضوعات الحد من التسلح. وأثناء قيامي بهذا العمل التقيت بهتلر، وموسوليني، وليتفينوف وزعماء فرنسا وبريطانيا.

ولم يكن عملي بمهنة المحاماة هو السبب الوحيد في تقوية صلتي بأخي جون فوستر دالاس. فعلى الرغم من أنه يكبرني بخمسة أعوام إلا أننا قضينا معظم فترة شبابنا سوياً. ففي فصول الصيف في أوائل العقد الأول من القرن العشرين ـ عندما كانت تسمح ظروف العمل ـ كنت أنا وفوستر نقضي الصيف في المصيف الريفي للعائلة في هيندرسون هاربر على الساحل الجنوبي الغربي من بحيرة «أونتاريو». وكان جون ـ فوستر هو الذي بدأ بتشييد مصيفنا النائي في هيندرسون هاربر قبل انقضاء القرن الماضي لأنه كان يهوى صيد السمك وهي سمة ورثتها أنا وأخي عنه.

ثم سرعان ما لحق به أبي وأمي وابناؤهما الخمسة وكان أخي فوستر هو اكبرهم. وقد انضم روبرت لانسينج زوج ابنة فوستر وعمتي السيدة اليانور فوستر لانسينج لهذا الرعيل الأول. وكنا هنا في الأماكن الجميلة المحيطة بنا لا ننغمس في الصيد والابحار الشراعي ولعب التنس فحسب بل ندخل في مناقشات لا تنتهي حول القضايا والمشكلات الرئيسية في العالم والتي كانت بلادنا آنذاك على وشك مواجهتها. وقد كان لهذه المناقشات بطبيعة الحال ثقل معين ووزن يعتد به نظراً لاشتراك وزير سابق للخارجية وآخر على وشك أن يصبح وزيراً للخارجية فيها. وكنا نحن الأطفال في بداية الأمر المستمعين والمتعلمين، ولكن بمرور الوقت وتطور وعينا أصبحنا مشاركين أقوياء لنا ثقلنا في المناقشات الدولية. وكان فوستر دالاس في أغلب الأمر هو المتحدث باسم الشباب في هذه المناسبات.

كنا معاً في باريس عامي ١٩٠٨/١٩٠٩م. عندما كان فوستر ملتحقاً بالسوربون كنت أنا أعد لدخول المدرسة الألزاسية. وبين عامي ١٩١٤ / ١٩١٩ م اختلفت بنا الطرق حيث سافرت حول العالم ثم نقلت فيما بعد لتسلم وظيفتي الدبلوماسية في فيينا، لكن شملنا اجتمع مرة أخرى في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م. غير أن مهامنا هناك كانت مختلفة، فقد كان هو يعمل في الموضوعات الاقتصادية والمالية للسلام، أما أنا فتكفلت بالموضوعات السياسية. كانت هذه اللقاءات غالية جداً على قلبي، وقد استمرت طوال الأعوام اللاحقة. ثم عملنا فيما بعد سوياً عندما أصبح في عام ١٩٥٣م وزير خارجية للرئيس أيزنهاور وعندما رقيت من نائب ـ في الفترة التي عملت فيها مع الرئيس ترومان ـ إلى مدير المخابرات المركزية.

ومن منطلق الاهتمام العميق بالقضايا الرئيسية التي عاصرناها ـ وبعد مأساة حربين طاحنتين بين أكثر دول العالم تقدماً ـ استقرأ فوستر مبكراً المخاطر الجديدة التي تهدد السلام في فلسفة وسياسة المذهب الشيوعي. وأصبح مقتنعاً ومؤيداً لعمل وكالة المخابرات المركزية الجديدة وأراد أن يتحقق من صواب انطباعاته الشخصية وانطباعات مساعديه في وزارة الخارجية حيال المشاكل التي كانت تواجهه وتواجه الرئيس. وانطلاقاً من خبرته القانونية فإنه كان يتوق دائماً لرؤية كافة الجوانب لأي أمر مثير للجدل. لم يكن يحمل سياسة خارجية تحت قبعته بل كان يسعى إلى اختبار آرائه مقابل الحقائق الصعبة لاستنتاجات وتقديرات المخابرات التي كانت تنظم عناصر كل موقف متأزم. فقد كانت مهمة المخابرات هي تزويد الرئيس ووزارة الخارجية بهذا الأمر.

في بداية اشتغالنا بالمحاماة والحياة الدبلوماسية والعمل الدولي كنت أنا وفوستر متأثرين للغاية بمبادىء وودرو ويلسون. لقد كان يهزنا ذلك الهدف الأسمى

الذي انتهجه في مفاوضات باريس للسلام حيث كان هدفه الأول والرئيسي هو انشاء عصبة الأمم للمحافظة على السلام. وقد كان شعورنا بالاحباط مشتركاً إثر فشل مفاوضات فرساي، على الرغم من أن الرئيس ويلسون لم يدخر وسعاً من أجل بناء قاعدة حقيقية للسلام. وقد وقف أخي وزملاؤه في وفد السلام بقوة ضد فقرات التعويضات المبالغ فيها في بنود المعاهدة. في هذا الوقت بالذات كنت أعمل فيما بدا لي بأنه معادل تقريباً للقرارات الاقليمية غير المرضية والعوائق التي وضعها المنتصرون أمام معاهدة فرساي. وقد ساعد كل هذا على احياء روح المرارة والعداوة التي أتت بهتلر إلى السلطة وأدخلت أوروبا في الحرب عام ١٩٣٩ م.

وعندما هددتنا الحرب في عام ١٩٤١ م استدعى الرئيس «فرانكلين دي روزفلت» الكولونيل (ميجور جنرال فيما بعد) «وليام جي دونوفان» إلى واشنطن للقيام بمهام مخابرات شاملة. واعتقد أن «بيل دونوفان» الذي عمل منظماً ومديراً لمكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) خلال الحرب العالمية الثانية يعد بحق أبا المخابرات الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد طلب مني الانضمام إليه بعد واقعة «بيرل هاربور» حيث عملت معه في مكتب الخدمات الاستراتيجية الـ (OSS) حتى انتهت الحرب ضد ألمانيا واليابان.

وخلال هذه السنوات الأربع القاسية عملت بصورة رئيسية في سويسرا، وبعد الهدنة الألمانية في برلين، أصبحت أؤمن بأن القضايا التاريخية هي التي تكسب المرء حرفة... وقد كنت أعثر على هذه القضايا قضية إثر أخرى وسوف أستغلها فيما بعد لشرح عدد من النقاط المتنوعة في هذا الكتاب.

بعد توقيع اتفاقية الهدنة مع اليابان عدت إلى نيويورك وعدت إلى ممارسة المحاماة، لكن هذا لم يمنعني على أية حال من أن ألعب دوراً فعالاً في إعداد التشكيل والبناء الشرعي لوكالة المخابرات المركزية في عام ١٩٤٧ م.

وفي العام التالي طلب مني الرئيس «ترومان» أن أراس لجنة مكونة من ثلاثة أعضاء ـ العضوان الآخران هما «وليام. هـ. جاكسون» الذي كان يعمل في المخابرات الحربية أثناء الحرب و«ماثياس. اف. كوريا» الذي كان يعمل مساعداً خاصاً لوزير البحرية «جيمس فوريستال» ـ وقد طلب منا أن نقدم تقريراً عن فعالية وكالة المخابرات المركزية (CIA) التي نشأت بموجب قانون في عام ١٩٤٧ م والعلاقة بين أنشطة وكالة المخابرات المركزية (CIA) وأجهزة المخابرات الأخرى التابعة للحكومة.

وقد تم تقديم تقريرنا إلى الرئيس «ترومان» عند إعادة انتخابه، وعدت بعدها ثانية إلى ممارسة المحاماة، وكنت طوال الوقت اتوقع أن أظل أعمل في هذه المهنة.

لكن كتابة التقارير إلى الحكومة أحياناً تكون لها عواقب غير متوقعه. فقد يطلب منك أن تساهم بتوصياتك، وهذا هو ما حدث لي، فقد تضمن تقريرنا اقتراحاً بإجراء بعض التغييرات الجذرية في تنظيم الـ (CIA) وخاصة في عملية الاستنتاج والاستنباط الاستخباري. وقد دعاني الجنرال «وولتر بيدل سميث» ـ الذي أصبح مديراً للـ (CIA) عام ١٩٥٠م والذي عين «جاكسون» نائباً له ـ لكي يناقش معي التقرير. فذهبت إلى واشنطن معتزماً البقاء ستة أسابيع... غير أنني بقيت هناك مع الـ (CIA) طيلة أحد عشر عاماً، منها تسعة أعوام مديراً لها.

وعند عودتي إلى الحياة الخاصة في نوفمبر عام ١٩٦١ م، شعرت أن الوقت قد حان لكي يقوم انسان ما ـ حتى وإن كان من أكبر مؤيديها ـ برواية ما يمكن أن يقال عن المخابرات كعنصر حيوي في بناء حكومتنا في العصر الحديث. وكمواطن حر، ارجو أن يكون مفهوماً تماماً أن الآراء التي عبرت عنها في هذا الكتاب هي آرائي المحضة وأنها لم تخضع أو يتم الموافقة عليها من قبل وكالة المخابرات المركزية (CIA) أو اي سلطة حكومية أخرى. واعتقد أن المخابرات هي من أقل الدوائر فهماً لطبيعتها، بل من أكثر الدوائر إساءة لفهم طبيعة عملها، وذلك لسبب واحد عبر عنه الرئيس كنيدي عندما جاء في ٢٨ نوفمبر ١٩٦١ م لافتتاح مقر قيادة الـ (CIA) الجديد ولتوديعي كمدير للوكالة عندما قال: إن نجاحكم لا يسمع عنه أحد أما فشلكم فنقرع له الطبول. وهذا يعود لسبب واضح وهو أنه لا يمكن الكشف عن العمليات الناجحة أما العمليات الفاشلة فهي عادة ما تفصح عن نفسها. ثم أضاف الرئيس في كلمة تشجيعية لعدة آلاف من الرجال والنساء العاملين في الـ (CIA) «ولكنني متأكد من أنكم مدركون لأهمية العمل الذي تؤدونه وضرورته، وسيكشف التاريخ البعيد مدى أهمية المجهودات التي تقومون بها. لذا أود أن أعبر عن امتناني وتقديري إليكم الآن وإنني واثق أنكم في المستقبل سوف تواصلون العمل كي تستحقوا تقدير بلدنا كما استحققتموه في الماضي».

من غير المعقول أن نتوقع تفهماً صحيحاً وتأييداً لعمل المخابرات في هذا البلد إذ كان العليمون ببواطن الأمور أو المطلعون ـ وهي مجموعة قليلة من الأشخاص داخل الفروع التنفيذية والتشريعية ـ يعرفون كل شيء عن الـ (CIA). بينما يواصل الآخرون استقاء معلوماتهم من القصص الداخلية المزعومة التي يكتبها مؤلفون لم يسبق لهم دخولها.

وهناك بالطبع أسباب قوية لعدم نشر أسرار المخابرات لأنه من المعروف جيداً أن ما ينشر على العامة لا بد أن يقع في أيدي أعدائنا، ومهما كانت النظم والوسائل التقنية لما نطلق عليه حرفة الاستخبارات معروفة بصورة واسعة النطاق في هذه

المهنة، ومهما كانت جنسية هذه الخدمة إلا أن ما لا يجب كشفه ـ والذي لن يكشف عنه هو ما إذا ـ أين وكيف ومتى تم أو سيتم استخدام مهنة المخابرات في عمليات بعينها إلا إذا كان هذا الأمر قد تم كشفه بالفعل في مكان آخر، كما هو الحال في موضوع (U - 2) على سبيل المثال.

ووكالة المخابرات المركزية ليست عملية سرية، فكل ما يتعين على المرء أن يفعله هو أن يقرأ القانون ـ قانون الأمن القومي لعام ١٩٤٧ م ـ ليحصل على فكرة عامة عن سبب انشائها، ولها بالطبع جانب سري، ويسمح القانون لمجلس الأمن القومي ـ المعني الرئيسي في الأمر ـ بأن يوكل للـ (CIA) مهامٌ ووظائف خاصة في مجال الاستطلاع إضافة إلى المهام الأخرى المنصوص عليها في القانون. وهذه الوظائف لا يتم الكشف عنها... لكن الـ (CIA) ليست الوكالة الحكومية الوحيدة التي تعد فيها السرية مسألة هامة. فوزارتا الخارجية والدفاع تحيطان معظم مهامهما بالسرية التامة.

وكان أحد مبادئي الرئيسة في العمل بالمخابرات عندما كنت مديراً للمخابرات المركزية هو استخدام كل الوسائل البشرية لحماية سرية وأمن هذه الأنشطة. ولكن كان هذا يحدث فقط عند الضرورة وليس لاضفاء الغموض على معلومة أو أمر عادي معروف للأصدقاء والأعداء على حد سواء.

وبعد أن أصبحت مديراً للـ (CIA) بفترة قصيرة كان عندي صورة توضيحية جيدة لعدم جدوى أنواع معينة من الأسرار. فقد كان الدكتور «ميلتون أيزنهاور» شقيق الرئيس على موعد لمقابلتي. وقد تطوع الرئيس بتوصيله إلى مكتبي، فبدآ في البحث عن مكتبي، وكنت طلبته بدون إخطار مسبق للخدمة السرية، لكنهما لم يفلحا في العثور عليه، إلى أن تلقيت مكالمة تليفونية تطلب وصف الاتجاه الصحيح. وقد دفعني هذا إلى التحري عن سبب كل هذه السرية التي لا جدوى منها. في ذلك الوقت كانت بوابة الـ (CIA) تحمل شعاراً كتب عليه «مكتب الطباعة الحكومي». وعلى أية حال فإن سائقي أتوبيسات السياحة في واشنطن اعتادوا التوقف خارج بوابتنا الرئيسية حيث يقوم المرشد باخبار راكبي الأتوبيس بالمعلومات عن حقيقة ما يقع خلف هذا السور من الأسلاك الشائكة، إذ انه من أكثر الأماكن سرية في واشنطن، إنه قيادة منظمة التجسس الأمريكية ـ وكالات المخابرات المركزية. واكتشفت كذلك أن كل سائقي التاكسي في واشنطن يعرفون هذا المكان. وبمجرد أن وضعت الشعار الصحيح على البوابة اختفت علامات الدهشة والتعجب. فلم نعد أشراراً أو غامضين أمام زوار العاصمة... أصبحنا مجرد مكتب حكومي آخر. ان الافراط في التكتم قد يضر بالنفس تماماً مثل خطورة الافراط في الكلام، وقد أثبت لي ذلك حادثة وقعت في

خلال الحرب العالمية الثانية، فقد ثبت لي أن إفشاء الأمر أكثر فائدة في جمع المعلومات، فقد أرسلوني إلى سويسرا عند الجنرال «دونوفان» ومكتب الخدمات الاستراتيجية الـ (OSS) في نوفمبر عام ١٩٤٢م وقد كان منصبي في البعثة الأمريكية مساعداً للوزير، ونشرت احدى الجرائد السويسرية الهامة موضوعاً يقول بأنني وصلت إلى هناك كمبعوث سري وشخصي للرئيس فرانكلين دي روزفلت. وقد يعتقد المرء الذي تعوزه الكياسة أن هذا الاعلان الذي لم اسع اليه قد أعاق عملي، غير أن الحقيقة كانت العكس تماماً. فعلى الرغم من أنني نفيت القصة بتواضع ولكن بصدق إلا أن الجميع صدقوها، ونتيجة لهذا احتشدت جماعات من المخبرين والمرشدين على شبكتي بعضهم مهووسون - وهذا أمر حقيقي - إلا أنه كان بينهم أشخاص أمدونا بمعلومات هامة للغاية. فإذا لم أستطع أن أفصل القمح عن القشر بدرجة معقولة من الخطأ فإنني لن أكون صالحاً لعملي لأن القدرة على الحكم على الناس وتقييمهم هي واحدة من أهم الصفات التي يتميز بها ضابط المخابرات.

وإذا ما حاولنا أن نكشف غموض كل شيء يتعلق بالمخابرات فإننا سننصرف إلى تشتيت جهودنا للابقاء على أمن العمليات التي تكون السرية فيها ضرورية لكي تنجح. لذلك يجب دراسة كل موقف طبقاً للحقائق مع الأخذ في الاعتبار مبدأ حجب كل المعلومات عن أي عدو محتمل، هذه المعلومات التي قد تفيده في عمليات المخابرات السرية، أو الأشخاص الذين يعملون لها.

إن النصيحة التي بعث بها «جورج واشنطن» إلى الكولونيل «إلياس دايتون» في ٢٦ يوليو ١٧٧٧ لا تزال تطبق على عمليات المخابرات حتى اليوم «إن أهمية الحصول على معلومات طيبة شيء واضح ولا يحتاج لأي الحاح آخر، وكل ما بقي لي لكي أضيفه هو أن تحتفظ بالأمر كله سراً بقدر إمكانك لأنه بفضل السرية والتكتم يأتي النجاح في معظم الأعمال التي من هذا النوع. ولحاجتهم إليها فإنهم عادة ما ينهزمون على أية حال مع أحسن التخطيط واتوقع لك نتيجة أفضل».

وإجمالاً يتضح أن الأمريكيين يميلون للافراط في الحديث عن الأمور التي ينبغي أن تكون سرية وأعتقد أننا نفشي الكثير من أسرارنا وخاصة في مجال الاستخدامات العسكرية والسلاح وأننا غالباً ما نفشل في التفريق الجوهري بين أنواع العمليات التي ينبغي أن تكون سرية وبين تلك التي بطبيعتها لا تكون ولا يمكن أن تكون سرية. هناك أوقات تتجاوز فيها الصحافة عندنا الحماسة أثناء سعيها وراء الأنباء فيما يتعلق بالتحركات العسكرية والسياسية والدبلوماسية القادمة. لقد تعلمنا أهمية التكتم أثناء الحرب على الرغم أنه كانت هناك آنذاك حماقات خطيرة في ذلك الوقت، لكن من العدل

أن نعترف بأنه في الحرب الباردة كان عدونا يستغل كل فرصة تسنح له للاستفادة مما نخفي أو نذيعه على العامة من أسرار.

ولكي نتأكد - في ضوء حكومة مثل حكومتنا - وفي ضوء المصالح الشرعية للشعب وللصحافة، فإنه من المستحيل أن نبني حائطاً حول عمل المخابرات بأكمله. كما أنني لم أقترح أن نفعلَ هذا لأنه لا الكونجرس ولا الجهاز التنفيذي كانا ينويان فعل هذا عندما وافقا على قانون عام ١٩٤٧م. وعلاوة على هذا فإنه يجب الكشف عن قدر معين من المعلومات إذا كانت ثقة الشعب في عمل المخابرات ستقوى وإذا كانت مهنة ضابط المخابرات سيتم تقديرها بالصورة الحقيقية. وأهم من ذلك كله فمن الضروري أن يشترك كل المطلعين - الذين يعملون في المخابرات - والشعب في الاقتناع بأن عمليات المخابرات يمكنها الاسهام في حماية الأمة.

خلفية تاريخية

في القرن الخامس قبل الميلاد كتب «سان تزو» حكيم الصين يقول «إن المعرفة المسبقة للأحداث هي السبب في أن يقهر الأمير المتنور والجنرال الحكيم العدو أينما كان». وفي عام ١٩٥٥م كتبت المجموعة المكلفة بأعمال المخابرات في لجنة «هربرت هوفر» التبشيرية الثانية في تقريرها الاستشاري للحكومة تقول «إن المخابرات تعالج كافة الأشياء التي تجب معرفتها مسبقاً قبل اتخاذ أي تصرف» وهاتان الفقرتان ـ مع الفارق الزمني الكبير بينهما ـ تشتركان في التأكيد على الاستخدام العملي للمعلومات المعروفة مسبقاً وعلاقتها باتخاذ أي تصرف.

لا شك أن الرغبة في معرفة المعلومات مسبقاً هي جزء من تكوين غريزة البقاء، إذ يسأل الحاكم نفسه ماذا سيحدث بعدئذ؟ كيف ستزدهر أموري؟ ما هي الاجراءات التي يجب أن أتخذها؟ ما هي قوة أعدائي وماذا يخططون ضدي؟ ونلاحظ منذ بداية تدوين التاريخ أن مثل هذه الأسئلة لا تطرح فحسب عن الموقف والمستقبل الخاص بشخص واحد بمفرده دائماً وإنما تعمم على موقف ومستقبل الجماعات كالقبيلة والمملكة والأمة.

كانت المصادر الأولى للمعلومات ـ في عصر الايمان بالظواهر الطبيعية ـ هي الأنبياء والعرافون والكهنة والمتنبئون والمنجمون. ولأن الآلهة تعلم ماذا سيحدث مستقبلاً وماذا سيطرأ على مجرى الأحداث فقد كان من المنطق معرفة قصد الآلهة عن طريق الهام الأولياء وتأويلات الكهنة للطالع وللاحلام بشكل عام.

وعلم الأساطير وتاريخ الدين يحتويان على أمثلة لا تعد ولا تحصى عن إفشاء البوح الالهي حيال الانسان سواء بالتضرع أم بغير التضرع من قبل الناس أنفسهم.

لكن ليس هناك الكثير من هؤلاء الذين لهم شأن حيال الشؤون العملية للدولة مع ناتج المغامرات العسكرية وما شابه ذلك. إلا أن هناك بعضاً من هؤلاء، وأنا أنظر إليهم على أنهم الأمثلة الأولى لطرق جمع المعلومات.

كان «شاؤول» في ليلة معركته الأخيرة خائفاً وكان قلبه يخفق بشدة عندما رأى جوليات الفلسطيني. وعندما سأل «شاؤول» الرب لم يجبه الرب إلا من «اوريم» ومن خلال أنبياء أو رسل(ISAM 28). وكما نعلم فإن «شاؤول» بعد أن أصبح بلا مصادر للمعلومات وتحير مما يمكن أن يحدث مستقبلاً في المعركة القادمة استدعى روح صامويل من خلال الساحر أندور وعلم منه أنه سيخسر المعركة وأنه سيموت في هذه المعركة.

وفي فصل تال من انجيل صامويل نجد أن داوود استفسر مباشرة من الرب وطلب النصيحة الحربية وأخذ كل المعلومات التي يحتاجها «هل أطارد هؤلاء الجنود؟ هل سألحق بهم؟ فرد عليه الرب قائلاً طاردهم لأنك ستدركهم بكل تأكيد وسوف تحقق النصر عليهم».

وعملية مخابرات أخرى حدثت قبل ذلك وسجلها الانجيل وهي من نوع آخر في (Nam 13) وهنا يقترح الرب أن يسعى الإنسان نفسه إلى جمع المعلومات على الطبيعة.

فعندما كان سيدنا موسى في الصحراء مع بني اسرائيل أمره الرب أن يرسل حاكماً من كل قبيلة اسرائيلية ليستطلع ويستكشف أرض كنعان التي خصصها الرب لتكون وطناً لهم، وأعطاهم موسى التعليمات باستكشاف طبيعة الأرض والناس الذين يقطنونها، هل هم أقوياء أم ضعاف؟ قلة أم كثرة؟ فقضوا أربعين يوماً في مهمتهم وعندما عادوا قدموا تقريرهم عن الأرض لموسى وهارون: «إنها بلاد تنتج لبناً عسلاً وثمارها هي العنب والرمان والتين» غير أن عشرة من الاثني عشر الذين ذهبوا في هذه المهمة الاستطلاعية مع يوشع (Caleb Jashua) خالفوهم. وقالوا إن القوم الذين يقطنون هذه الأرض أقوى من بني إسرائيل وقالوا إنهم رجال لهم منزلة عظيمة ومدنهم لها أبواب حصينة ومنيعة. وتذمر بنو إسرائيل، وتمردوا على أوامر موسى وهارون. فجاء أمر الرب بأنه نظراً لضعف ايمان بني اسرائيل به فإنه سيعاقبهم بأن يهيموا على وجوههم في الصحراء أربعين عاماً. عاماً مقابل كل يوم قضاه الجواسيس في استطلاع الأرض وإبلاغ شعبهم بالحقائق الكاذبة.

في هذه المهمة الاستطلاعية على وجه الخصوص هناك أكثر من شيء تصطدم به العين عند القراءة الأولى لها. بداية نجد أنه إذا ما احتاج المرء لمعرفة محايدة

وغير متحيزة لطبيعة أرض بني اسرائيل وشعبها يجب الا يرسل المرء زعماء سياسيين في مهمة استطلاعية بل يرسل فنيين، وبالتأكيد لا يرسل اثني عشر شخصاً بل اثنين أو ثلاثة، وعلاوة على هذا فإن موسى وهارون لم تكن بهما حاجة لمعرفة معلومات عن أرض اسرائيل لأنهما يؤمنان بالرب. والغرض الحقيقي من هذه المهمة كان في حقيقة الأمر ليس معرفة طبيعية أرض اسرائيل وإنما لمعرفة طبيعة الناس ومدى قوتهم ومقارنتهم بزعماء القبائل الاسرائيلية المختلفة. وعندما لم ينجح سوى اثنين فقط في هذا الاختبار من قبل الرب فقد حلت اللعنة على الباقين وعلى الشعب بأن يتيهوا ويهيموا في الصحراء حتى يظهر جيل جديد أقوى منهم ليحل محلهم.

ويوضح لنا التاريخ أن بعض المعلومات حتى وإن كانت واضحة يمكن أن نتجاهلها تماماً، أو لا نفكر مطلقاً بها في بعض الأحيان، فـ «كاساندرا» ابنة «بريام التروي» ـ الذي كان محبوب الاله «أبوللو» ـ منحها أبوللو نعمة التنبؤ... لكنها وكما أخبرتنا الأسطورة بمجرد حصولها على هذه النعمة تبعت الشيطان ولم يكن باستطاعة أبوللو أن يستعيد هذهالنعمة منها. لكنه كان بإمكانه ـ وهذا هو الذي فعله ـ أن يضيف شيئاً جديداً إلى خصائص هذه النعمة بحيث لا تصدق نبوءاتها. ومن ثم فإن نبوءتها بأن اغتصاب «هيلين» سيؤدي إلى دمار «تروي» وتحذيرها الخاص بحصان طروادة الشهير ـ الذي يعد واحداً من أول عمليات الخداع الحربي التي سجلها التاريخ ـ لم يستمع أحد إليها.

وقد وقع الاغريق ـ الذين كانت لهم نظرة تشاؤمية في علاقة الانسان مع الاله ـ في المشاكل حتى عندما كانت الالهه تمدهم بالمعلومات لأنها كانت معلومات محاطة بالألغاز والأحاجي والمتناقضات التي كانت إما مبهمة أو غامضة.

والقصص التي تتلى في الأساطير اليونانية عن أعمال المخابرات تعكس مفهوماً رئيسياً وهو أن أساليب الآلهة والقدر ينبغي الا يعرفها الإنسان.

وقد أخبرنا «هيرودوتس» بذلك عندما استشار «ليسد مونيانز» كاهن مدينة «دلفي» اليونانية القديمة ليعلم نتيجة حملته الحربية ضد «أركادية» فأجابه الكاهن بأنهم سيرقصون بوقع أقدام مزعجة في «تيجيا» (جزء من أركادية). وقد فسر ليسد مونيانز هذا على أنهم يحتفلون بنصرهم بالرقص. فقاموا بغزو تيجيا لكنهم خسروا المعركة وتم أسرهم وأجبروا على العمل في الحقول وهم يرتدون نفس الأغلال التي احضروها معهم. وقد كانت هذه الأغلال التي ارتدوها حول أقدامهم تصدر جلبة أينما تحركوا للعمل وهي وقع الأقدام المزعجة التي أشار إليها الكاهن.

وبمرور الزمن طور كاهن «دلفي» عمله عبر عدة مراحل إذ تحول من الظاهرة

الخارقة للطب إلى المؤسسة. وكان واضحاً أن الناحية البشرية والدنيوية تسيطر عليها بصورة أكبر، ففي الأيام الأولى كانت تجلس عذراء فوق شق في الصخرة التي تتصاعد منها الأبخرة المسكرة وتستقبل في نشوة الاجابات من الاله أبوللو على الأسئلة التي تتلقاها، ويقوم كاهن بتفسير الكلمات السحرية والغريبة التي يقولها الوسيط. وقد كانت إمكانية حدوث خطأ وتحيز في العملية كبيرة للغاية. وفيما بعد تم استبدال العذراوات بنساء فوق سن الخمسين لأن زوار الكاهن كانوا يفسدون سلاسة العملية برغبتهم البشرية القوية حيال العذراوات. ولكن هذا لم يؤثر بالضرورة على الطبيعة الالهية التي تميز عمليات الوحي والالهام، بحيث أصبحت عملية الكهانة فيما بعد مؤسسة دنيوية بصورة أكبر ـ وكما نعرف اليوم فقد كان للكهنة شبكة من المخبرين في كافة أنحاء الأراضي اليونانية، وبهذا كانوا على دراية أكبر بطبيعة ما يحدث من أشياء على الأرض أكثر من الأناس العاديين الذين يحضرون لاستشارتهم. ولم تكن وسائل استقائهم للمعلومات وسائل الهية بأي حال من الأحوال، على الرغم من انهم كانوا يقدمونها على هذا الأساس. وفي مرحلة أخرى متأخرة حدث نوع معين من الفساد نتيجة معرفة الكهنة لأسرار زوارهم التي تصل إليهم. فقد أمكن للأمير أو الرجل الثري ـ إذا ما كان الكهنة في دلفي يحبونه أو ربما إذا قام برشوتهم ـ أن يحصل على معلومات عن منافسيه واعدائه. تلك المعلومات التي قد يكونوا أفضوا بها أثناء استشارتهم للكهنة. وفي أفضل فترات تألقهم كان الكهنة يقدمون مجموعات من الاستشارات العملية المثلى. لكن الشرق كان متقدماً على الغرب في مهنة الاستطلاع والمخابرات في عام ٤٠٠ قبل الميلاد. فقد أوضح «سان تزو» حكيم الصين وجهة نظر عملية بصورة أكثر رافضاً الكهنة والعرافين ـ الذين ربما قد قاموا بلعب دور هام في العصور الأولى في تاريخ الصين ـ فقد كتب يقول ان ما يسمى بالمعرفة المسبقة للأحداث لا يمكن استنباطه من الأرواح، أو الآلهه، أو بقياس التمثيل بالأحداث السابقة أو من العمليات الحسابية. بل يجب أن يتم الحصول عليها من الأشخاص الذين يعرفون موقع العدو. ففي فصل في كتابه «فن الحرب» اسمه «توظيف العملاء السريين» يوضح سان تزو القواعد الأساسية للتجسس كما كان يمارسها الصينيون في عام ٤٠٠ قبل الميلاد. وهي أقرب ما تكون إلى طرق ممارستها الآن. فهو يقول ان هناك خمسة أنواع من العملاء (أو الجواسيس): محلي وداخلي ومزدوج ومستهلك وباقٍ. والعميل المحلي والداخلي يشبهان ما سنطلق عليه فيما بعد العملاء في الوضع الصحيح. أما المزدوج فهو مصطلح لا يزال يستخدم حتى الآن وهو عميل من بلد العدو، تم أسره، وتحويله، ثم أعيد إلى المكان الذي جاء منه ليعمل جاسوساً لصالح الذين أسروه. أما العملاء أو الجواسيس المستهلكون فهم صينيون حاذقون سنشير إليهم فيما بعد عند التعرض لوسائل الخداع وفنونه. إنهم العملاء

الذين تتسرب إلى العدو عن طريقهم المعلومات المضللة، وهم مستهلكون في نظر «سان تزو» لأن العدو قد يقتلهم عندما يكتشف أن معلوماتهم كانت خاطئة ومضللة. أما العملاء الباقون في نظر سان تزو فهم بالمفهوم العصري اليوم الجواسيس المتغلغلون الذين يصلون إلى العدو ويحصلون على المعلومات ويتمكنون من العودة وهم أحياء.

ويرجع الفضل إلى سان تزو ليس فقط لأنه أول من كتب تحليلاً لوسائل التجسس، ولكن لأنه كتب توصيات تتعلق بخدمة المخابرات المنظمة، فقد أشار إلى أن رئيس المخابرات يجب أن يوظف الأنواع الخمسة للجواسيس بصورة فورية، وهو يسمي هذه العملية «الخصلة الالهية أو التنبؤية». وقياس التمثيل هو شبكة لصيد السمك تتكون من خيوط عديدة كلها مرتبطة بحبل واحد. وهذا يستنفذ على الاطلاق الاسهامات التي قدمها «سان تزو». وهو يعلق على مكافحة التجسس والحرب النفسية والخداع والأمن ومختلف الأكاذيب، وباختصار، فإنه يعلق، على مهنة المخابرات من كافة جوانبها. ولا يدعو للتعجب أن كتاب «سان تزو» كان أفضل الكتب لدى «ماو تسي تونج» وهو المرجع الأساسي لمخططي سياسة الصين الشيوعية. فقد كانوا خلال حملاتهم العسكرية وجمعهم للمعلومات يقومون بتنفيذ كل تعاليم «سان تزو». إن عملية التجسس من النوع الذي أوصى به «سان تزو» التي لا تعتمد على الأرواح الالهية وقد مورست بالفعل في الغرب فيما مضى ولكن ليس بنفس القدر من التعقيدات التي تم بها ممارستها في الشرق. ولم يكن في الغرب كذلك نفس الحاسة لمهنة أو مجموعة من السجلات بحيث يمكن لكل جيل أن يبني خبرته على خبرة جيل آخر. فمعظم الأمثلة التي سجلها التاريخ لا تذهب بعيداً عما نسميه الآن الاستطلاع. وكذلك كان الحال في المحاولة الثانية والتي أحرزت نجاحاً أكبر للاسرائيليين في استكشاف الوضع في الأرض الموعودة.

فقد أرسل «يوشع» (Joshua) رجلين إلى مدينة «أريحا» لكي يتجسسا، فأقاما في بيت «رحاب» العاهرة(Josh 2). وأعتقد أن هذه هي الحادثة الأولى من نوعها المسجلة لما نسميه الآن في المخابرات «المكان الآمن». فقد أخفت «رحاب» الجاسوسين وأخرجتهما بأمان من المدينة بالمعلومات التي عرفاها. وقام الاسرائيليون بعدئذٍ بغزو (اريحا) ودمروها عن آخرها وأفنوا شعبها فيما عدا «رحاب» وأسرتها الذين عاشوا في أمان. ومن هنا نشأ العرف الذي يقضي بمكافأة من يساهمون في عمليات المخابرات.

ويقول «هيرودوتس» إن الاغريق أرسلوا ثلاثة جواسيس إلى بلاد الفرس قبل الغزو الكبير في عام ٤٨٠ قبل الميلاد لمعرفة حجم القوات التي كان يجمعها

أحشورس الأول، ملك فارس، وقد تم أسر الجواسيس الثلاثة، وعندما حانت لحظة إعدامهم أمر أحشورس بوقف الاعدام، ولعل الأمر الذي أصاب مستشاريه بالدهشة هو أنه أحاط الجواسيس الثلاثة علماً بكل ما يجري في معسكره وأطلعهم على حجم قوات المشاة والفرسان وجعلهم يحفظون كل ما رأوه عن ظهر قلب، ثم أعادهم إلى بلادهم. كان الغرض من فكرة أحشورس هذه هي تخويف الاغريق لكي يستسلموا إليه دون قتال، فأرسل إليهم عن عمد المعلومات الصحيحة عن حجم الجيش الذي لا يعد ولا يحصى، ولأن الرعب كما نعلم لا يعرف طريقه إلى قلب الإغريق، فإن أحشورس لم ينجح في تمرير هذه الخدعة النفسية (السيكولوجية).

وفي اعتقادي أنه لو كان بإمكان «سان تزو» مقابلة هذا الحاكم، فإنه سينصحه بعكس ما فعل تماماً. إذ سينصح بأن يرشو أحشورس الجواسيس ويعيدهم إلى بلادهم ليقدموا تقريراً لزعمائهم يوحون فيه أن جيشه أقل وأضعف مما هو عليه في واقع الحال. وعندما يقوم الفرس فيما بعد بالغزو فلن «سان تزو» كان يتوقع أن يقدم إليه الجواسيس الثلاثة تقريراً لما يحدث في المعسكر الاغريقي. وقبل وقوع معركة ثيرموبيليا أرسل أحشورس بنفسه جاسوساً ممتطياً جواداً لكي يرى ماذا يفعل الاغريق الذين كانوا يحتلون الممر - وما هو مقدار قوتهم. وواضح أن هذه العملية لم تكن إلا مجرد مهمة استطلاعية قصيرة الأمد، لكن الكشاف الذي بعثه أحشورس اقترب تماماً من معرفة مايعدونه، لأنه عندما عاد استطاع أن يقدم التقرير الشهير بأن بعض الرجال الذين شاهدهم كانوا منهمكين في تمرينات الجمباز الرياضية، أما الآخرون فقد كانوا يمشطون شعورهم الطويلة. وكان هذا هو جزء من المعلومات الخام - كما نطلق عليها اليوم - والتي من الواضح أنها تحتاج إلى تفسير وتحليل.

وعلى هذا استدعى أحشورس مستشاراً كان على علم بأساليب الاغريق، فشرح له أن هؤلاء الرجال جاؤوا للدفاع عن الممر ولهذا فإنهم يستعدون الآن، إذ من عادتهم عندما يوشكون على التضحية بأرواحهم أن يزينوا شعورهم بكل عناية، وانك الآن على وشك مقاتلة أول مملكة في اليونان مسلحة بأشجع الرجال. لكن أحشورس لم يؤمن بمدى هذا التقدير وخسر أعداداً كبيرة من أفضل جنوده بالقائهم مباشرة ضد مجموعة صغيرة من الاغريق تحت قيادة ليونادیس.

كانت كل استخدامات التجسس في العالم الغربي فيما مضى تعتمد فيما يبدو على شخصية وقوة وطموح الملوك والغزاة، وعلى ميلهم الشخصي والخداع والحيل الحربية ورغبتهم في الاحتفاظ بالسلطة وحاجتهم لتأمين مملكاتهم. إن أثينا في أيام الديمقراطية، وروما في أيام الجمهورية، لم تكونا تملكان المناخ المناسب لظهور التجسس. فقد كانت الحكومة تتصرف على الملأ وترسم السياسة على الملأ وعادة ما

كان يتم التخطيط للحرب كذلك على الملأ، فيما عدا حجم ومكان قوات العدو في لحظات حرجة قبل الاشتباك في المعركة، وقد ظهر أن هناك احتياجاً ولو لقدر قليل لمعرفة بعض المعلومات الاستطلاعية التي يمكنها أن تؤثر على نتيجة البطولات العظيمة.

ولكن بالنسبة للغزاة العظام مثل الاسكندر وأباطرة هانيبال الذين أسسوا الامبراطوريات السريعة ـ التي كانت قصيرة العمر في أغلب الأحيان ـ فلم يكن الأمر كذلك، إذ كان يتوجب مراقبة الرعايا لمتابعة احتمال حدوث ثورة قلاقل «Whirlwind» وقد كانت هذه عبارة عن مغامرات عظيمة كان يمكن أن يتحقق لها النجاح لو توفرت له معرفة مسبقة لقوة وإمكانيات العدو إلى جانب معرفة الحالة النفسية والمعنوية لحكامه وجماهيره، فالدليل يوضح أن بناة الامبراطوريات مثل الاسكندر الأكبر وميثريديتس وملك بونتاس وهانيبال كلهم استخدموا واعتمدوا إلى حد كبير على استقاء المعلومات بصورة أكبر من أسلافهم ومعاصريهم. فقد كان معروفاً عن «هانيبال» أستاذ الاستراتيجية أنه يجمع المعلومات قبل أن يشن حملاته ولم تكن هذه المعلومات مقتصرة فقط على الموقف العسكري لأعدائه بل وعلى حالتهم الاقتصادية ومناقشات رجال السياسة العامة والروح المعنوية لأفراد الشعب.

وقد ذكر بلوتارك «كاتب السير اليوناني» مرة بعد أخرى أن هانيبال كان يمتلك جهازاً للمخابرات السرية يتكون من عدة جواسيس يدفع بهم إلى معسكر الأعداء.

وقد ظهر أن هانيبال كان ضعيفاً للغاية في الناحية اللغوية على عكس تفوقه في الناحية الاستراتيجية. فيقول بلوتارك انه بينما كان هانيبال في جنوبي إيطاليا أمر حراسه بأن يأخذوه إلى سهل «كاسينام» حيث كان مقر كاسينو الشهير في الحرب العالمية الثانية. غير أنهم أخطأوا فهمه لأن لكنته الايطالية حالت دون فهمهم للمعنى الصحيح ففهموا شيئاً آخر ونقلوه هو وجيشه بالقرب من مدينة «كاسيلنيام». وهكذا أصبح هانيبال شبه محاصر بسبب طبيعة الأرض التي وصل إليها، لكنه أخذ وقتاً طويلاً ليصلح الخطأ الذي أوقعه فيه رجاله. فقام بعد أن علم بالخطأ الذي أوقعه فيه حرسه والخطر المحدق الذي سببوه له بتوثيقهم وشنقهم. وهذه القصة تدرس في مدارس المخابرات الآن لتؤكد للضباط الصغار مدى أهمية الحاجة إلى الدقة. أما «ميثريدتيس» فقد حارب قوة روما وجمد الموقف في قارة آسيا وقد كان صغيراً إلى حد ما، بسبب أنه كان ضابط مخابرات له وزنه وثقله. وعلى عكس هانيبال فقد كان يتقن ٢٢ لغة ولهجة وكان يعرف القبائل المحلية وعاداتها أكثر بكثير مما كان يعرفه الرومان أنفسهم.

خلال العصور الوسطى وبسبب الوضع السياسي المتشعب وصعوبة وسائل النقل والمواصلات والامداد والتعبئة كان من المستخيل القيام بضربة استراتيجية مفاجئة في الحملات الحربية. فحشد الجيش الواحد كان يستغرق عدة أسابيع بل عدة شهور، وحتى إذا تم حشد الجيش فلا يمكنه أن يسير سوى بضعة أميال في كل يوم. أما الحملات البحرية فيمكنها الابتعاد قليلاً عن أعين المتطفلين.. ولكن حشد وتجميع عدد من السفن من الصعب اخفاؤه أو التستر عليه. وعلى سبيل المثال في عام ١٠٦٦ م كان لدى الملك «هارولد» ملك انجلترا كل المعلومات الضرورية قبل أن يهبط «وليام» الفاتح في «هاستنجز» بوقت طويل، بل إنه وصل إلى نورماندي بنفسه وشاهد الجيش النورماندي أثناء القتال. وعلم أن وليام كان يخطط لشن هجوم وقام بتقدير عدد أفراد الانزال المعتزم ومكانه بدقة فائقة، ومن منطلق حجم القوات التي رآها تمكن من التوصل إلى تقدير جيد لحجم قوات «وليام» بأكملها. ولا ترجع هزيمته إلى قصور في المعلومات الاستراتيجية، وإنما خسر الحرب لأن قواته كانت منهكة من القتال. فقد كان قد انتصر لتوه على الدانماركيين نصراً ساحقاً في موقعة «ستانفورد بريدج» كذلك فقد كان الجند متعبين من طول المشي. إن أكثر الأخطاء السياسية خطورة لأوروبا الغربية في العصور الوسطى، ذات العلاقة بالشرق ترجع بنسبة كبيرة إلى عجز وقصور في جمع المعلومات. فقد أضعف الحكام الأوروبيون الدولة البيزنطية بدلاً من تدعيمها بوصفها حاجزاً ضد أي غزو. لقد فشلوا في إدراك المخاطر والفرص التي سببها الزحف المغولي على الغرب، وأساؤوا تقدير التهديد التركي خلال الفترة التي كان العثمانيون يدعمون فيها قوتهم. وبتحيزهم هذا كان يمكن أن يقعوا في الأخطاء نفسها حتى ولو كانت لديهم الفرصة لاتخاذ القرارات السليمة، ولم يكونوا كذلك على دراية كافية بالامبراطورية البيزنطية وسلافيا الشرق. وكانوا يعلمون القليل عن العالم الاسلامي، وكانوا جاهلين تماماً بما يحدث في وسط وشرق آسيا. فقد حاول الامبراطور فردريك الثاني (١٢١٢ ـ ١٢٥٠) الابقاء على العلاقات والصلات مع حكام مسلميـن (وقد اتهم بالانشقاق عن العقيدة)، كما أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠) أرسل مبعوثين إلى المغول. إن كتاب ماركو بولو الشهير عن الصين يحتوي على مادة يمكن أن تفيد بدرجة كبيرة في مجال الاستخبارات العسكرية لكن أحداً لم ينظر إليه من هذا المنطلق.

وعبر العصور الوسطى بمجملها كان التجار الايطاليون يحصلون على معلومات هامة للغاية عن الشرق، ولسوء الحظ فإنهم نادراً ما كانوا يجدون الفرصة لتوصيلها للناس الذين يحددون معالم السياسة الأوروبية تجاه الشرق. فلم يرد البابوات على ترحيب واستعداد التجار للتبادل التجاري مع أعداء العقيدة وكان اتصال الملوك بهم

ضعيفاً للغاية. وقد ساهم الايطاليون في القرن الخامس عشر بدرجة كبيرة وهامة في جمع المعلومات بإنشائهم سفارات دائمة في الخارج.

فقد كان لمبعوثي فينيسيا مهارة خاصة في الحصول على المعلومات الاستراتيجية. وقد كانت معظم تقاريرهم على درجة عالية من الجودة ومليئة بالملاحظات الدقيقة والحكم الصائب، ولم تكن السفارات الدائمة تقوم فحسب بامداد بلادها بهذا النوع من الملاحظات، بل إنها كانت تنشيء قواعد شبكات التجسس النظامية. وبحلول القرن السادس عشر كانت معظم حكومات أوروبا قد حذت حذو ايطاليا. ولأن فن رسم الخرائط لم يكن معروفاً في العصور الأولى لذا فإن جمع المعلومات الجغرافية للمكان كان من أهم أركان عملية المخابرات. فالمعرفة بوجود نهر يجب الخوض فيه وعبوره قد تسمح للجيش بالهروب في حالة محاصرته، واكتشاف ممر جبلي قد يتيح الفرصة للانقضاض على موقع حصين لقوات العدو. وفي المعتاد يكون من السهل استمالة واقناع السكان المحليين بالافضاء بهذا النوع من المعلومات. وقد منح لويس التاسع مكافأة كبيرة لبدوي أراه كيف يعبر أحد فرعي النيل ومن ثم فقد عاونه هذا على شن هجوم مباغت على الجيش الاسلامي. وابن لويس تمكن من اقتحام موقع دفاعي حصين في بايرنييز بشرائه معلومات عن طريق مهجور عبر الجبال. وهناك مثال أكثر شهرة وهو الحادثة التي وقعت خلال حملة «كريسي» عندما حاصر جيش فرنسي كبير الملك ادوارد الثالث فأراه أحد رعاة الغنم طريقاً يسهل خوضه في نهر «سوم»، فلم يتمكن ادوارد من الهرب من الحصار فحسب بل وتمكن من الحفاظ على موقعه الدفاعي الخصين الذي مكنه من قهر الجيش الفرنسي عندما هاجمه في النهاية. ومع بزوغ مبدأ القومية، وبداية الصراع الديني في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدأ ظهور أول متخصصين حقيقيين في المخابرات على الساحة الغربية من بين الوزراء في مجالس الوزراء الذين خصصوا معظم مستقبلهم في جمع المعلومات السرية. وبسبب الانقسامات الداخلية المتكررة والمتلاحقة والنزاعات الأهلية في هذه المنطقة يمكننا أن نرى بداية التفريق بين المخابرات الخارجية والأمن الداخلي. فقد كان الوقت لا يزال مبكراً لوجود جهازين منفصلين كل له اختصاصاته ومسؤولياته المختلفة ـ وهذا الذي حدث فيما بعد ـ لكن في هذه الفترة كان الجاسوس الداخلي بنفس درجة أهمية الجاسوس الخارجي وكان كل منهما تحركه يد واحدة.

وقد كان السير «فرانسيس والسينجهام» أحد أبرع أساتذة هذا الفن الذي قضى معظم حياته وزيراً للخارجية ورئيساً للجواسيس في خدمة الملكة اليزابيث. إذ

يمكن أن نكتشف أن يد والسينجهام كانت وراء كل اجراء رئيسي تم إتخاذه خلال فترة حكم «اليزابيث». فهو يمهد الأرض ويجمع المعلومات اللازمة ويحيك المؤامرات ثم يفضحها ويكشفها. ومن الصعوبة بمكان اكتشاف التقنية التي كان يمارس بها عمليات التجسس. وبفضله تمت تغذية وتمويل مؤامرة بابينجتون الحمقاء لوضع ماري ملكة اسكوتلندا على عرش انجلترا إلى درجة منحت الملكة اليزابيث في النهاية الفرصة لتوقيع قرار اعدامها. وكان والسينجهام يقوم بإعداد قوائم بأوائل خريجي جامعتي أكسفورد وكامبريدج الموهوبين للدراسة في فرنسا والتغلغل داخل البلاط الفرنسي ومعرفة مخططاته ضد انجلترا، وكان كريستوفر مارلو أحد هؤلاء، وكانت حادثة وفاته السريع في مشاجرة في فندق في مدينة ديتفورد إحدى النتائج غير الحميدة لمؤامرات والسينجهام.

وقد كانت أقوى ضربة لـ «والسينجهام» بلا شك هي العملية الملتوية الماهرة التي جلبت لانجلترا المعلومات البحرية والتي تفوق بسببها الأسطول الانجليزي على الاسطول الأسباني الشهير أرمادا. فبدلاً من أن يضرب هدفه مباشرة ألا وهو قصر الملك الأسباني فيليب الثاني تجنب والسينجهام الخطط الاستطلاعية المباشرة والواضحة المقدرة منذ البداية، وعمل من خلال مناطق أخرى. كان يعرف أن هناك وسائل يسقطها في أيدي الأعداء تمكنه من التفوق على الأسبان، فأرسل شابين انجليزيين إلى ايطاليا كانت لهم علاقات وثيقة الصلة بالقصر التوسكاني الايطالي. ومن خلال عمليات والسينجهام نجد أن الاندماجات الدينية المزعومة تلعب دوراً رئيسياً، فالبروتستانت يتنكرون في زي الكاثوليك ويدعون مناصرة قضية أعداء انجلترا، وكان أحد هذين الشابين هو «أنطونيو ستاندين» قد نجح في مصادقة السفير التوسكاني الأيطالي في أسبانيا. وبهذا النجاح تمكن من توظيف عملائه في مقر بعثة ذلك السفير في أسبانيا. وهكذا تغلغل إلى الموانىء الاسبانية مُراقبون مهرة يعتد بهم وهم ليسوا إنجليزاً ولا يمكن بأي وسيلة أن يثيروا الشك في قيامهم بخدمة انجلترا. كما سمح السفير التوسكاني على سبيل المجاملة لأصدقاء «ستاندين» في أسبانيا باستخدام حقيبته الدبلوماسية لارسال خطابات شخصية لـ «ستاندين» في ايطاليا.

وفي عهد والسينجهام نشأت عملية قيام وزارة خارجية الملكة اليزابيث باعتراض المراسلات المحلية والخارجية وفتحها وقراءتها ثم اغلاقها واعادة ارسالها. ولأن هذه الرسائل قد تكون مكتوبة بالشيفرة أو الرموز فقد استعان والسينجهام بخبير اسمه توماس فيليبس الذي كان يجيد كتابة الرموز والشيفرة، وكذلك فك وحل هذه الرموز والشيفرات وقد ابتكر رموزاً آمنة لكي يستخدمها «والسينجهام» وفي الوقت

نفسه تمكن من فك كافة الرموز وحل كافة الشيفرات في الرسائل التي كان «والسينجهام» يعترضها. وكان فيليبس هو الذي قام بفك رموز وحل شيفرة الرسائل السرية غير المتقنة التي كانت ترسل من وإلى ماري ملكة اسكوتلندا إبان مؤامرة بابينجتون.

إن «والسينجهام» باختصار هو الذي أنشأ أول هيئة كاملة محترفة للمخابرات. وكان لا ينافسه في لقب أستاذ التجسس سوى ريتشيليو الذي كاد أن يقترب من مستواه ودون ذلك لم يكن هناك من يضارعه حتى بداية القرن التاسع عشر.

وقد بذل «جون ثورلو» رئيس مخابرات كرومويل جهداً كبيراً، ولكن من الناحية التاريخية لا أجد أنه كان يمتلك نفس روح الابتكار والعبقرية والجرأة التي كان «والسينجهام» يتميز بها. والسبب الرئيسي في نجاح «ثورلو» كان يكمن في كمية الأموال التي كانت موضوعة تحت تصرفه. ويقول «ضامويل بيبين» المؤرخ البريطاني الشهير أنه كان ينفق ٧٠ ألف جنيه استرليني في العام، وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه لكن الشواهد تؤكد أنه كان يدفع بسخاء للجواسيس لقاء ما يتلقاه من معلومات منهم وهكذا فإنه لم يكن يجد أي صعوبة في جمعهم، في حين أن «والسينجهام» كان يعمل في ظل ميزانية قليلة للغاية بسبب سياسة الملكة المقترة ويقال انه كان في بعض الأحيان يدفع للعملاء من جيبه الخاص وبالتالي كان يدفع كميات قليلة من المال.

وكان «ثورلو» مثل «والسينجهام» يحمل لقب وزير الخارجية لكنه في ذلك الوقت كان يطلق على مكتبه «إدارة المخابرات» وهو واحد من الاستخدامات الرسمية القديمة للتصميم الانجليزي للمكاتب الحكومية. وفي وقته كان هناك الكثير من المؤامرات التي كانت تدبر والمكائد التي كانت تحاك لاعادة الملك المخلوع «تشارلز ستيوارت» إلى العرش، ولهذا السبب قام «ثورلو» مثله في ذلك مثل «والسينجهام» بادارة شؤون الأمن الداخلية ونظام المخابرات الخارجي، غير أنه استخدم قناصل انجلترا ودبلوماسييها في الخارج وضم إلى تقاريرهم الأعمال التي ينفذها العملاء السريون. وقد اعتمد «ثورلو» بصورة أكبر من «والسينجهام» على المعلومات التي كانت ترد إليه من هيئة الرقابة على البريد وكان يحصل على عائداته بالتأكيد عن طريق ادارة مكتب فعال وكفي للبريد وذلك من وجهة نظر الاستخبارات المضادة.

وعلى الرغم من الطريقة الهادئة والرتيبة التي بدا أن «ثورلو» ينتهجها في إدارة أعماله في جمع المعلومات، فإنه كان يتورط بصورة متكررة في بعض المؤامرات الدامية. واحدى هذه المؤامرات التي أعد لها بتحريض من كرومويل كان هدفها

اغتيال الملك تشارلز واخويه دوق يورك ودوق جلوستر وذلك انتقاماً من المؤامرة التي دبرها مؤيدو الملك لاغتيال كرومويل والتي كشفها ثورلو. وكانت الخطة تهدف إلى اغراء الأخوة الثلاثة بالذهاب من فرنسا إلى انجلترا بناء على ادعاء كاذب بأن مجموعة كبيرة من الجنود ستنتظرهم حال هبوطهم هناك ثم تعلن عن إعادة تنصيبه. وقد بدا أن كل هذه الأشياء واضحة ويمكن أن تنطلي عليهم حتى آخر لحظة، وليس فيها أي نوع من المكر والبراعة مثل مؤامرة والسينجهام التي نجح بها في توريط ماري ملكة اسكوتلندا. وسواء كان تشارلز قد انطوت عليه الخدعة أم لا، فإننا لسنا بحاجة إلى التخمين، لأن سكرتير ثورلو وأحد أوثق المقربين إليه ويدعى مورلاند قام بفضح الخطة وأعلم بها الملك تشارلز. ويقول بيبيز في مذكراته الشهيرة انه بعد أن استعاد تشارلز العرش بخمسة أيام فقط تم منح السيد مورلاند لقب فارس وكشف الملك تشارلز السبب علانية وقال انه استحق ذلك مقابل قيام مورلاند بامداده بالمعلومات طوال الفترة التي كان يعمل فيها مع الوزير «ثورلو».

ومثال آخر مثير للاهتمام لنجاح المخابرات في القرن السابع عشر هو مثال السويد التي أخذت وضعها كدولة عظمى بدرجة كبيرة لأنها تمتلك أكثر أجهزة المخابرات دقة في أوروبا بأسرها. وقد اعترف وزير روسي معاصر بقوله ان السويد تعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا. فقد استثمروا بصورة كبيرة اتصالات البروتستانت خلال فترة الحروب الدينية، واستخدموا بصفة عامة أشخاصاً من جنسيات مختلفة مثل الفرنسي «هيوجيونت»، وقد استخدموا عملاءهم ومراسليهم بدرجة أفضل من «والسينجهام» ولهذا فإنهم يتفادون الشعور بالحرج والإدانة المباشرة في حالة القاء القبض على العملاء. وقد كانت كل من السويد وهولندا مثلاً واضحاً حتى هذه الأيام انه بإمكان الدولة الصغيرة أن تفعل ما تعجز عنه أجهزة المخابرات للدول الكبرى وعبقرية الذين يعملون فيها.

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ظهر فارق حاد بين العمل في الأمن الداخلي وجمع الاستخبارات والمعلومات الخارجية. ففي الدول الكبرى تم انشاء منظمات منفصلة يعمل فيها خبراء منفصلون كل تناط به مهمة مختلفة عن الآخر. وبالطبع فإن السبب في ذلك كان يكمن في نمو الانشقاقات الداخلية والتهديد بالثورات وحركات التمرد الداخلية التي تهدد استقرار السلطة في الأنظمة الاستعمارية والاستبدادية والفردية الكبرى في القرن التاسع عشر في أوروبا. ولهذا تم إنشاء جماعات وأجهزة البوليس السري لحماية الامبراطور أو الحاكم.

ففي فترة حكم نابوليون عمل كل من جوزيف فوشيه ـ سيّىء السمعة وهو نتاج للمؤامرات العنيفة للثورة الفرنسية ـ والكولونيل سافاري كوزيرين للعدل ورئيسين

لمنظمة البوليس السياسي السري ومكافحة التجسس، وكانت عملية جمع المعلومات الأجنبية والعسكرية في أيدي «ألستيان» و«كارل شولميتر» اللذين على الرغم من ارتباطهما بـ «سافاري» فقد قاما بمجموعة من العمليات الذاتية، كان غرضها معرفة المعلومات عن الجيوش النمساوية وتضليل النمساويين وعدم تعريفهم بقوة ونوايا الفرنسيين. وتدريجياً فقد تسبب تطور وتوسع الجيوش خلال القرن التاسع عشر في التأكيد على ضرورة أن تصل المعلومات الأجنبية بصورة أساسية إلى السلطة الحربية وأن تصبح المسؤولية عن جمع هذه المعلومات في يد الجيش نفسه. وفي الفترة التالية وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى وتحت رعاية قادة معظم جيوش أوروبا ظهر لكل دولة وكالة واحدة للمخابرات العسكرية أصبحت ذراع المعلومات الأجنبية الرئيسية للبلد.

وكان يرأس هذه الوكالة الضباط العسكريون بصورة أكثر من أن يرأسها مدنيون أو وزراء. أما مجال الاستخبارات والمعلومات السياسية فقد ترك بصورة واسعة للدبلوماسيين.

وكانت «بروسيا» حتى عام ١٨٧١ م هي الاستثناء الوحيد لهذا التطور، أولاً بسبب الصراع على السلطة، على الرغم من أن «وليام شتيبر» كان يرأس كلا من المخابرات العسكرية البروسية والبوليس السري البروسي بين يديه. ويرجع إليه الفضل في إجراء أول تدريب على شبكات التجسس، بحيث يتم اغراق المنطقة المطلوبة بأكبر عدد من الجواسيس وبحيث يصبح احتمال فشل اتمام عملية التجسس ضعيفاً جداً للحصول على المعلومات المفصلة من كل مصدر عن الموقف العسكري والسياسي للعدو.

وكانت هذه الشبكات كذلك نوعاً من الطابور الخامس ساعدت على اضعاف الروح المعنوية للجماهير بغرس الخوف من الغزاة القادمين، في قلوبهم. وفيما سبق كانت عملية التجسس يستخدم فيها بعض الأشخاص المنتقين بدقة شديدة، لكن «شتيبر» جند المزارعين وعمال المتاجر والسقاة والخادمات، واستخدم هذه الطرق في الاعداد للهجمات البروسية ضد كل من النمسا في عام ١٨٦٦ م وفرنسا في عام ١٨٧٠م. إن حجم وقوة جهاز الأمن الداخلي يتم تشكيله عادة نسبة لدرجة الشك والخوف الذي يصيب النظام الحاكم. وفي وجود الحاكم المستبد فإن جهاز البوليس السري يجب أن يكون ضخماً وأعداده كبيرة لكي يسمح بمراقبة كل فرد من أفراد المجتمع.

وأفضل مثال لهذه المنظمات هو روسيا في القرن التاسع عشر حينما كان

النظام السياسي المستبد مشتتاً بين الوقوف بخوف أمام الشعب أو القادة الأحرار أو الافكار والنفوذ الخطيرة للدول المجاورة.

ولكن هذا الحال فيما يختص بشؤون روسيا لم يكن من قبيل التجديد الذي حدث في القرن التاسع عشر. ففي التاريخ الروسي القديم كان التتار وشعوب السهول الأخرى يسعون باستمرار إلى تدعيم قوة مواقعهم العسكرية داخل حصونهم التي كانت تحيط بها الأسوار والتي تشرف على المدن الروسية. ونتيجة لهذا أصبح الروس يشككون في أي شخص يسعى إلى طلب دخول المدن التي تحيط بها الأسوار خوفاً من أن تكون مهمته الأساسية هي جمع المعلومات والاستخبارات. إن عادة وضع جسم معلق على ملابس الزائر الأجنبي بحيث يمكن التعرف عليه بسهولة ترجع إلى القرن السادس عشر حيث كان هناك سلسلة نسب للاشراف والجولات الارشادية في روسيا.

وفي القرن السابع عشر عندما بدأ الروس في ارسال مبعوثيهم إلى الخارج للدراسة في الجامعات الأجنبية كانوا عادة ما يرسلون بعض الأشخاص الموثوق بهم لمراقبة مجموعات الطلاب وكتابة التقارير عنهم. إذن فعادة أن يصاحب فرد من البوليس السري الوفود التي تحضر المؤتمرات الدولية - والتي نشاهدها اليوم - كانت تحدث منذ سالف الزمان.

فالبوليس السياسي النظامي الذي تديره الحكومة في روسيا يرجع تاريخه إلى عام ١٨٢٦ م عندما أسس القيصر نيقولاس الأول القسم الثالث التابع لمحكمة صاحب الجلالة الامبراطور، وفي عام ١٨٧٨ م تم الغاء القسم الثالث وأحيلت وظائفه إلى أوكرانا (قسم الأمن) في وزارة الداخلية.

وكان الغرض من «أوكرانا» القيصر هو حماية العائلة الامبراطورية ونظامها الحاكم. ومن هذا المنطلق سلطت على أفراد الشعب جيوشاً من الواشين والجواسيس، وقد ميزت نفسها ذات مرة بملاحقتها للكاتب الروسي الكبير «ليو تولستوي» في أنحاء روسيا - وكان تولستوي قد أصبح علماً من أعلام الأدب البارز في العالم لكنه في عين «أوكرانا» ليس سوى ملازم متقاعد ومشتبه فيه - وفي أواخر القرن التاسع عشر كان هناك ثوريون روس وطلبة متطرفون ولاجئون سياسيون خارج روسيا بحيث ان «أوكرانا» لا يمكنها أن تأمل في الحفاظ على أمن الامبراطورية الروسية بمجرد قمع الأصوات الثورية بالداخل. فأرسلت عملاءها لكي ينضموا إلى منظمات الطلاب الروس والثوريين في أوروبا، ويتغلغلوا داخلها للتحريض والافساد وسرقة الوثائق واكتشاف القنوات التي يتم من خلالها تهريب الأعمال الأدبية غير المشروعة إلى

روسيا. وقد بدا ذلك واضحاً حين كان لينين في «براغ» عام ١٩١٢ م حيث قام ـ دون أن يعرف ـ باستضافة أحد عملاء «أوكرانا» في شقته.

وعندما وصل البلاشفة إلى السلطة عام ١٩١٧ م قاموا بتسريح والكشف عن «أوكرانا» القديمة ووصفها بأنها كانت أداة القمع التي استخدمها القياصرة زاعمين أن دولة العمال الجديدة ليست بحاجة لمثل هذا الجهاز الفاسد لارساء قواعد الأمن والنظام. غير أنهم في الوقت نفسه أنشأوا جهازهم البوليسي الخاص «تشيكا» الذي سنتحدث عنه فيما بعد. وقد تفوقت الـ «تشيكا» من ناحية المدى والقوة والقسوة والازدواج (النفاق) على كل ما كان يمكن للقياصره أن يحلموا به.

لم يكن أحد أعظم أجهزة المخابرات في أوروبا في القرن التاسع عشر يدار من قبل حكومة ما، بل من قبل مؤسسة خاصة وهي مصرف «روتشيلد». وقد كان هناك من سبق هذه المؤسسة في هذا النشاط لعائلة مصرفية أخرى في زمن سابق ألا وهي عائلة «فاجرز» في «أوجسبرج» «Fuggers of Augsbourg» في القرن السادس عشر الذين أسسوا امبراطورية نقدية ضخمة حيث كانوا يقومون باقراض الملوك والدول الفقيرة كما فعلت عائلة «روتشيلد» فيما بعد. ولم يرتكب الـ «فاجرز» سوى عدة أخطاء بسيطة في مجال استغلال استثماراتهم، ويرجع هذا بصورة كبيرة كنتيجة للمعلومات والاستخبارات الخاصة الرائعة التي قاموا بجمعها. وعلى أية حال فإن الـ «روتشيلد» ما ان امتلكوا القليل من السلطة حتى قاموا باثراء عملائهم وأنفسهم بسبب قدراتهم الفائقة في مجال الاستخبارات وجمع المعلومات. ولكي يقوموا بتدعيم الموقف المالي والفوائد لصالح عملائهم في كافة الفروع في فرانكفورت ولندن وباريس وفيينا ونابولي كان بإمكان عملاء «روتشيلد» في الغالب الحصول على المعلومات الهامة قبل الحكومات.

في عام ١٨٠٥ م وبينما كانت أوروبا بأسرها تنتظر الأخبار عن معركة «واترلو» كان ناثان (روتشيلد) في لندن قد عرف بالفعل أن بريطانيا أحرزت النصر. ولكي يفوز بضربة مالية قاتلة قام باكساد السوق عن طريق بيع السندات الحكومية البريطانية ففعل الذين كانوا يراقبون تحركاته في السوق مثله، معتقدين أن انجلترا وحلفاءها قد خسروا معركة «واترلو». وفي الوقت الملائم قام بشراء السندات مرة أخرى بسعر أقل. وعندما تكشفت أنباء النصر بصورة نهائية كانت قيمة السندات الحكومية البريطانية قد ارتفعت بدرجة كبيرة. وبعد ذلك بستين عاماً قام «ليونيل روتشيلد» حفيد ناثان في ليلة تاريخية باستضافة «ديزرائيلي Disraile» على الغداء. وخلال المأدبة وصلت إلى «ليونيل» رسالة سرية تقول ان الحصة الرئيسية في شركة قناة السويس التي يمتلكها خديوي مصر معروضة للبيع، وقد راقت الفكرة لرئيس

الوزراء غير أنه كان مطلوباً ما يوازي ٤٤ مليون دولار لاتمام الصفقة. وقد كان البرلمان في عطلة وليس في استطاعته دعوته للانعقاد على الفور، لذا فقد اشترى «ليونيل» السندات لصالح الحكومة البريطانية ليساعد «ديزرائيلي» على تحقيق واحدة من أقوى الضربات التي حققها في مستقبله على الاطلاق. وقد ترددت الشائعات عن أن بعض الضربات التي حققها «روتشيلد» كان يحصل على معلومات عنها عن طريق الحمام الزاجل. ولم يكن لهذه الشائعات من الصواب ما يدعمها بقوة على الرغم من أن أحد أفراد عائلة «روتشيلد» كان قد حوصر في باريس عندما حاصرها الألمان خلال الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٨٧٠ م وقد استخدم البالونات وربما الحمام الزاجل كذلك ليتصل بالعالم الخارجي. وقد عرف العالم بأمر الهدنة التي أنهت هذه الحرب عن طريق هذه الوسيلة بصورة أسرع من قنوات الأخبار الأخرى التقليدية.

ودخلت القوى العظمى في أوروبا الحرب العالمية الأولى ولم يكن معها من المعلومات والاستخبارات ما يساوي ما تسلحت به قواتها المسلحة من عتاد لكي يتمشى مع تعقيد الصراع القادم. وقد صدق هذا القول على الجانبين ـ الحلفاء ودول أوروبا الوسطى ـ فقد كانت المخابرات الحربية الفرنسية مهتزة بصورة شديدة بسبب قضية «دريفوس Dreyfus» وكانت تمزقها المؤامرات والصراعات الداخلية. فقد قدرت حجم الجيش الألماني بنحو نصف الجيش الفعلي الذي دخل الحرب عام ١٩١٤ م. والمخابرات الألمانية، التي كانت قد وصلت إلى مستوى متفوق من الكفاءة في عهد «شتيبر» كانت علاوة على هذا نموذجاً للغطرسة والثقة بالنفس من قبل هيئة أركان حرب الجيش الألماني في عام ١٩١٤ م بحيث انها كانت تنظر إلى المخابرات الأخرى بطرف أنفها دون أن تفكر في أهميتها. وقد أحرز الروس ضربتهم الكبيرة في مجال المخابرات قبل فترة وجيزة من خيانة الكولونيل الفريد ريدل ضابط أركان الحرب في الجيش النمساوي الذي تم اعتقاله في عام ١٩١٣م وسوف أتحدث عنه بصورة أوضح في فصل قادم. وعن طريقه تمكنوا من الحصول على خطط الحرب النمساوية ـ المجرية التي ساعدتهم على هزيمة النمساويين في عدد من المعارك الأولى للحرب العالمية الأولى. وعلى الجانب الآخر قام النمساويون بالكشف عن بعض خططهم بعد عام ١٩١٣ م ووضع الروس ثقتهم العمياء في المعلومات التي أمدهم بها «ريدل» مما عرضهم لعدد من المتاعب المتكررة. وقد قاموا كذلك ـ وقد اعترتهم الدهشة ـ بإرسال التعليمات الحربية لقواتهم في ميدان القتال باللغة العادية دون استخدام الشيفرة واستمع الألمان لهذه الاتصالات بغبطة كبيرة وانتقوا من بينها ـ دون أن يتكلفوا شيئاً ـ معلومات هامة عن مواقع القوات الروسية.

وقد تمكن النمساويون إلى حد ما من اصلاح وضعهم الذي اختل من جراء

خيانة «ريدل» وذلك بفضل جهود عميلهم «التشيلر» .الذي كان وثيق الصلة بوزير الحرب الروسي «فلادمير أ. سوخوملينوف» وزوجته. وكان «سوخوملينوف» الذي كان محبوباً ومقرباً من العائلة الامبراطورية قد خرج في طريقة للقضاء على «راسبوتين» وكان مغروراً وسيّىء السمعه وخسيساً وعديم الأهلية ومن عادته أن يترك وثائقه الحربية الهامة مبعثرة في كافة أنحاء منزله. وكان للألمان كذلك عميل وثيق الصلة بهذين الزوجين هـو الكولونيل «ميودوف» وكان عشيقاً لزوجة «سوخوملينوف» وقد أعدمه الروس شنقاً في عام ١٩١٥ م بتهمة التجسس.

وعلى هذا يمكننا القول بأنه مهما كان قدر أعمال التجسس الفعالة التي تم انجازها خلال الحرب العالمية الأولى ـ باستثناء الميدان التكتيكي ـ فإنها لم تكن بالضرورة في منطقة العمليات البرية. فقد كانت متعلقة بصورة رئيسية بالحرب البحرية وكذلك بالمناطق البعيدة عن ميدان الصراع. فقد كانت براعة بريطانيا في فك رموز شيفرة البحرية الألمانية بمثابة ضربة استخبارية انقذت بريطانيا وجعلت أسطولها بحالة جيدة حتى في أحلك أيام الحرب.

أما لورانس العرب في الشرق الأوسط و«فاسماس» الألماني في بلاد فارس فقد قاما بمهمات حقيقية في ميادين التجسس والتخريب والتحريض على العصيان حيث أثرت بالفعل في مجرى الحرب في هذه المناطق. وقد كانت أعمال التجسس والتخريب في الولايات المتحدة من بين أهم الأعمال الناجحة للمخابرات الألمانية في الحرب العالمية الأولى ويرجع الفضل في ذلك إلى نقص في استعداداتنا وفي الاجراءات المضادة حيال هذه الأعمال. وبرغم كل هذا فقد تسببت الحرب العالمية الأولى في ظهور عدد من الابتكارات في مجال التجسس. إحدى هذه الوسائل هو استخدام الراديو في بث المراسلات والاتصالات في حالة الحرب التي فتحت مجالاً جديداً لامكانية جمع المعلومات عن الخطط والتكتيكات الواسعة، وفي بعض الأحيان عن الاستراتيجيات الهامة باعتراض اشارات الراديو وفك الرموز والشيفرة المبعوثة بها. وقد أعطى تحفظ وحياد بعض دول العالم ذات الموقع الاستراتيجي ـ مثل السويد والنرويج وهولندا وسويسرا ـ الفرصة لظهور خطط تجسس جديدة من خلال تجسس عملاء دولة عن طريق دولة أخرى على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها دول الحياد لمنع استخدام مثل هذه الطرق على أراضيها. وهذا التكنيك يمكن توظيفه كذلك في وقت السلم وخاصة في أوروبا. وأخيراً ولأول مرة تجلت الوجوه الهامة لدول الشرق الأقصى في مضمار التجسس الدولي في صورة المخابرات اليابانية التي أثبتت في الأعوام اللاحقة كفاءة عالية ووجوداً خطيراً في مجال الاستخبار العالمي.

شهدت الفترة بين الحربين العالميتين تكاثراً لأجهزة المخابرات وزيادة

التعقيدات في تركيبها الداخلي وقد أصبحت الأهداف فنية بصور متزايدة وأصبح العالم مكاناً أكثر تعقيداً، فقد أصبحت أجهزة المخابرات في الدول الديكتاتورية مثل المانيا وايطاليا واليابان أداة رئيسية للبحث والتخطيط للتوسع الأجنبي. وفي الوقت نفسه تعين على الدول الحرة مثل انجلترا أن تتحمل مسؤوليات جديدة متعددة في مجال المخابرات لمواجهة تهديدات هذه الدول الديكتاتورية. وقد قدمت الحرب الصامتة بين أجهزة المخابرات في كلا الجانبين خلال الحرب العالمية الثانية أمثلة عديدة وقضايا تاريخية سوف أشير إليها فيما بعد. ففي معسكر الحلفاء وفي مواجهة العدو المشترك كان هناك تعاون بين أجهزة المخابرات لم يحدث له مثيل من قبل وكانت لها نتائج طيبة، وفي أيام الحرب عندما كنت في مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) كان لي شرف العمل مع المخابرات البريطانية وقد كونت علاقات شخصية وعلاقات مخابرات لم تنقطع بعد انتهاء الحرب.

ففي سويسرا قمت باتصالات مع مجموعة من الضباط الفرنسيين الذين كانوا يقومون بالاتصال بـ «المكتب الثاني الفرنسي» والذين ساعدوا في بناء جهاز المخابرات الخاص بشارل دي جول وفرنسا الحرة. وقبل انتهاء الحرب كان التعاون قد نشأ مع فرع من الخدمة السرية الايطالية التابعة للملك فيكتور عمانويل عندما انضمت ايطاليا - غير الفاشية - إلى محور الحلفاء. كما كنت أعمل مع الجماعات السرية المناهضة للنازية في الـ «أبفر Abwer» الألماني وهو جهاز المخابرات الحربية الرئيسي في الجيش الألماني وقد تآمرت مجموعة داخل الـ «أبفر» ضد «هتلر».

وقد قام «هتلر» بتصفية الأدميرال «كاناريز» رئيس الـ «أبفر» عندما اكتشف السجلات - بعد فشل محاولة اغتيال هتلر عام ١٩٤٤ م - التي أثبتت تعاون «كاناريز» مع المتآمرين. واعتقد أن هذا التعاون الذي حدث في فترة الحرب ساهم في خلق نوع من وحدة الهدف بين أجهزة مخابرات دول العالم الحر. وقد ساهمت ألمانيا الغربية الحرة بعد الحرب بصورة كبيرة في مجال المخابرات.

وقد ساعدنا كل هذا على مواجهة الهجمات الشعواء التي تشنها أجهزة مخابرات دول الكتلة الشيوعية ضدنا اليوم.

نشأة جهاز الاستخبارات المركزية (الأمريكية)

طوال تاريخ الولايات المتحدة ولفترة امتدت إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كان هناك نشاط حكومي ورسمي محدود في مجال الاستخبارات وذلك فيما عدا فترات المعارك. وحين يعم السلام تقوم جميع المنظمات التي كانت تعمل في مجال الاستخبارات تحت وطأة ظروف المعارك بتخفيض في حجمها، كما أن ذخيرة المعلومات والمعرفة والدروس التي كانت نتائج لتجارب قاسية كانت تدفن تحت غبار النسيان.

وعند كل أزمة من أزماتنا وحتى وقوع هجوم بيرل هاربور كان على العاملين في مجال الاستخبارات أن يبدأوا مرة أخرى من نقطة الصفر. وعمل الاستخبارات وخاصة في السنوات الأولى لتاريخ الولايات المتحدة كان يدار على أسس غير رسمية إلى حد ما ومن خلال أكثر المنظمات حرية وانطلاقاً. وبالنسبة للمؤرخ ودارس الاستخبارات، فإن هناك ندرة في السجلات الرسمية المترابطة منطقياً. وكانت العمليات تتم عن طريق الجنرالات أو الدبلوماسيين في ذلك الوقت لتوفير السرية التامة والأكيدة التي كانت تفتقد أحياناً بعد الاتجاه إلى حفظ التقارير في ملفات أو نسخها وتوزيعها على مسؤولين عديدين والذين كانوا في الغالب غير مهتمين بشكل مباشر بعمل الاستخبارات، إلا أن ذلك جعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة للمؤرخ.

وفي مركز قيادة الجنرال واشنطن كان الكسندر هاميلتون واحداً من القليلين الذين أؤتمنوا على كشف وقراءة الرسائل التي كانت ترسل لهم بالحبر السري والشيفرات والتي لم يكن يعمل فيها أي نسخ. وقد احتفظ واشنطن، الذي كان يقدر بشدة الحاجة الملحة للسرية في هذا الأمر بعملياته بسرية تامة إلى حد أننا قد

لا نستطيع أبداً الحصول على تاريخ أحداث هذه العمليات، ومن باب التأكيد فإن اثنين من ضباط جهاز استخباراته وهما بودينون وتال مادج كتبا مذكراتهما إلا أنهما كانا حذرين وكتومين إلى حد بعيد. وحتى بعد مرور أربعين عاماً من انتهاء الحرب اطلع جون جاي جيمس فينيمور كوبر على الرواية الحقيقية للجاسوس الثوري التي استخدمها كوبر في روايته «الجاسوس» إلا أن جاي رفض أن يبوح بالاسم الحقيقي لهذا الجاسوس.

وكثير مما نعرفه نحن اليوم عن الاستخبارات في كل من الحروب الثورية والأهلية لم يكتشف إلا بعد عدة أجيال من انتهاء هذه الحروب. ونشاط الاستخبارات يكلف مالاً ونفقات كما أنه لا بد من الدفع للعملاء الذين يعملون في هذا المجال. ونظراً لأن هذه الأموال كانت تدفع من أموال الحكومة فإن أكثر الجنرالات الذين كانوا يقومون بهذا النشاط بشكل غير رسمي كانوا يضيفون مزيداً من المصروفات حتى ولو كانت خصوصية في كشف نفقات جمع المعلومات، وقد احتفظ واشنطن بالسجلات وكانت لديه شكوك كثيرة حول الأموال التي أنفقت على شراء المعلومات.

وقد كان واشنطن بشكل عام يقوم بتوفير هذه النفقات من موارده الخاصة ثم يضمها إلى كشف حسابات نفقاته الكاملة الذي يرسله إلى كونجرس الولايات المتحدة، وحيث انه قام بجدولة نفقاته فإننا نجد من خلال حساباته المالية أنه أنفق حوالى مبلغ ١٧,٠٠٠ دولار على عمليات جمع معلومات سرية خلال سنوات الحرب الثورية ويعتبر هذا المبلغ كبيراً في ذلك الوقت. وفي انجلترا احتفظ ولسينجهام قبل مائتي عام بسجلات مماثلة ومن خلالها جمعنا الكثير من التفاصيل عن أنشطته الاستخبارية، إلا أن كشوفات الحسابات الرسمية ليست هي المؤشر الوحيد على أن الجانب المالي من الاستخبارات يسهم في كتابة أو معرفة التاريخ.

وقد كان من صفات عمل الاستخبارات في ظرف ما، تأجيل اتمام عملية دفع المقابل لعميل الاستخبارات، أو ربما يوضع هذا العميل خلف خطوط العدو ولا يستطيع العودة إلى وطنه إلا بعد انتهاء الحرب، أو قد تنتقل الوحدة العسكرية التي تستخدمه بسرعة أو بشكل مفاجىء من مسرح الأحداث في حالة النصر أو التقهقر تاركة إياه دون ملجأ ودون أن يحصل على مكافأته، وبالتالي فإنه قد يحدث بعد مرور عدة سنوات، وفقط أحياناً عندما يمر هذا العميل أو ورثته بأوقات صعبة، بأن تقام دعوى ضد الحكومة لمطالبتها بجمع مكافأة له نظير خدماته السابقة. وعمل الاستخبارات السرية هو أمر قائم بذاته بحيث انه قد لا يكون هناك شهود عيان على قيد الحياة، وبالتأكيد أيضاً لا توجد سجلات لتأييد هذه الدعوى. وعلى أية حال فإن

مثل هذه الأمثلة ظهرت وكشف النقاب عن بعض العمليات الاستخبارية ذات الأهمية في تاريخنا وإلا كانت ستظل غير معروفة تماماً.

في ديسمبر ١٨٥٢ لجأ شخص يدعى دانيال برايان إلى قاضي الصلح في مقاطعة تيوجا في نيويورك وقدم شهادة خطية مقرونة بقسم يخص والده الكسندر برايان الذي توفي في عام ١٨٢٥، اقر فيه بأن الجنرال جيتس طلب من والده عام ١٧٧٧ قبل وقوع معركة ساراتوجا الانضمام إلى جيش برجوين كجاسوس وذلك لحاجته في هذا الوقت الحرج لمعرفة معلومات دقيقة عن سلاح مدفعية العدو وقوته وعدده وإذا أمكن معلومات عن التحركات المتوقعة للعدو. وقد انضم بريان إلى صفوف جيش برجوين حيث قام بشراء قطعة من القماش لتفصيل بنطال له وقام أثناء بحثه للعثور على ترزي بمعرفة قوة سلاح المدفعية وعدد الجيش قدار ما استطاع. وعلى الرغم من أن التحركات المستقبلية للجيش كانت سرية إلا أنه عرف أن الجيش اعتزم أن يقوم في اليوم التالي بالاستيلاء على مرتفعات «بيمس». وتكشف هذه الشهادة أو الاقرار كيف استطاع بريان أن يهرب من جيش برجوين ويصل إلى خطوط الجيش الأمريكي وأنه قد وصل في الوقت المناسب إلى الجنرال جيتس لينقل له المعلومات التي حصل عليها والتي أدت إلى تحـرك جيتس صباح اليوم التالي ليستولي على مرتفعات «بيمس» ويكون مستعداً لملاقاة جيش برجوين الذي هزم في المعركة واستسلم بعد عشرة أيام في ساراتوجا.

وطبقاً لما ورد في شهادة بريان فإنه لم يتلق أي مكافأة عن الدور الذي قام به وتوفي طفله المريض أثناء الليلة التي هزب فيها من الجيش كما توفيت زوجته. وكان جيتس قد وعد بإرسال طبيب لأسرة بريان إلا أنه لم يفعل. وبعد مرور ٧٥ عاماً قام ابنه بكتابة هذه القصة لأسباب غير واضحة حتى الآن حيث لم يعثر في أي سجلات على ملف لدعوى تعويض لهذه الملابسات.

وحتى وقوع حادثة أخرى أو حدوث مزيد من البحث لإظهار مزيد من المعلومات فإننا لن ندرك أو نعرف إلى أي مدى كانت استراتيجية جيتس الانتصارية والتي ساعدت بشكل كبير في تحويل تيارات الحرب ولعبت دوراً مفيداً في اقناع فرنسا بمساعدتنا، مبنية على المعلومات التي حصل عليها من بريان. ومثل هذا النوع من الاكتشافات المتفرقة يجعلنا نتساءل عن بقية الأبطال غير المعتني بهم في الأغاني والقصائد والذين خاطروا بحياتهم لجمع معلومات من أجل القضية الأمريكية. وكان «ناتان هيل» هو الجاسوس البطل الوحيد للثورة الذي يعـرفه كل أطفال المدارس، وقد كان من الممكن أن يذهب هيل نفسه طي النسيان رغم تضحيته لولا أن قامت «هانة

ادنر» بكتابة قصته عام ١٧٩٩ في كتابها «تاريخ انجلترا الحديثة». ولكن الغريب أنه بعد مرور ٢٢ عاماً على وفاته كان قد نسي تماماً، وقد قالت عنه «هانة أدنر» انه من النادر أن توجد شخصية كشخصيته، لكن بصرف النظر عن تأثر الأجيال التالية بولائه وثباته فإن الفضل يرجع إلى «هانة ادنر» في إحياء قصته.

وقد لفت موت هيل الذي كان مغموراً وهاوياً غير محترف وشديد الحب لوطنه وغير مجهز بما يساعده على القيام بعمليات التجسس المتسمة بالخطورة، نظر الجنرال واشنطن إلى الحاجة إلى محترفين بدرجة أكبر وعمليات استخبارية أكثر حذراً ودقة في إعدادها. وبعد موت هيل قرر واشنطن أن ينشىء دائرة رسمية سرية للاستخبارات واختار لرئاستها ميجور «بنجامين كال مادج» الذي كان زميلاً وصديقاً لناثان هيل في «يل»، الأمر الذي كان بمثابة دافع لواشنطن لتعزيز نجاح مشروعه الجديد.

وقد كان لواشنطن واحد من أقرب معاونيه في هذا المشروع ويدعى «روبرت تونسند» والذي قام بإدارة واحدة من أكثر مؤسسات التجسس نجاحاً وتعقيداً والتي وجدت في المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية المكونة للولايات المتحدة أثناء الثورة والتي لا نعرف مثيلاً لها. وقد كان الهدف الأساسي لها هو منطقة نيويورك التـي كانت بالطبع مركز القيادة البريطانية، ولم تكن عملية جمع المعلومات بالصعوبة أو التعقيد بالقدر الذي كانت عليه وسائل الاتصال (وأتذكر أن الجنرال دونوفان كان يؤكد لي دائماً على الأهمية الحيوية لوسائل الاتصال وأن جمع المعلومات لن يكون مجدياً إذا لم نستطع نقلها بسرعة وبدقة إلى الطرف الآخر).

ومنذ أن استولى البريطانيون على نيويورك أصبحت منطقة «هدسون» والميناء تحت سيطرتهم بشكل محكم وكان من المستحيل أو على الأقل من ضروب المخاطرة والمجازفة محاولة التسلل من خلال دفاعاتهم إلى واشنطن في ويست ـ تشر ولذلك كانت ترسل المعلومات التي يجمعها عملاء «تونسند» في نيويورك إلى واشنطن بطريق غير مباشر وهو الأسلوب الذي كان يعد في ذلك الوقت سريعاً وفعالاً وآمناً. فقد كانت هذه المعلومات تنقل من نيويورك إلى نورث شور في لونج إيلاند ومن هناك إلى لونج ايلاند سون بالقارب ثم إلى شاطىء كونكتكت حيث كان ينتظر كال مادج لتلقي المعلومات وإبلاغها لواشنطن.

وهناك قصة جاسوس آخر أيام الثورة مماثلة لقصة هيل وهي قصة الميجور جوني أندريه وبنيدكت أرنولد، وقد كانا بارعين في عمل الاستخبارات المضادة

كبراعتهما في جمع المعلومات العسكرية، وفي عام ١٧٧٨ أرسل واشنطن رسالة قصيرة بخطه إلى تونسند جاء فيها ضمن أشياء أخرى: اختلطوا قدر المستطاع بالضباط واللاجئين وارتادوا المقاهي وكل الأماكن العامة في «نيويورك»و«أدن». وكانت لدى واشنطن أهداف معينة من المعلومات التي أرادها عن الضباط واللاجئين، وكانت هذه المعلومات حول ما إذا كان هناك حصون تبنى على وجه السرعة على نهر هارلم بالقرب من مدينة هارلم أو أنه قد تم تحصين «هورنزهوك». وإذا كان هذا قد حدث فكم يبلغ عدد الجنود في كل مكان وكم يبلغ عدد المدافع في هذه الحصون وحجمها. وقد كان هذا نموذجاً للرسائل المختصرة والتي تتطلب القيام بجمع معلومات معينة وهي التي تحدد بالضبط المعلومات المطلوبة، كما أنها قد تزود العميل بالطريقة أو الوسيلة التي يحصل بها على المعلومات. وقد كان يقوم بجمع المعلومات من مركز القيادة البريطانية وفيلادلفيا عدد لا يحصى من المواطنين العاديين والتجار وبائعي الكتب وأصحاب الحانات وغيرهم الذين كان لهم اتصالات يومية مع الضباط البريطانيين الذين صادقوهم وتنصتوا على المناقشات التي كانت تدور بينهم وتنكروا في هيئة سياح لاكتساب ثقتهم.

ومن المواطنين الذين ظلوا بعيداً عن الأضواء والشهرة في ذلك الوقت ترزيٌ يدعى «هيركلز ماليجان» في نيويورك وكان يعمل في أحد المحلات البريطانية الكبرى. وقد ظن جيرانه أنه من الأمريكيين المؤيدين لانجلترا (في أيام الثورة الأمريكية) أو متعاطفاً مع انجلترا فعاملوه بازدراء وعكروا عليه صفو حياته. وبعد انتهاء الحرب توقف الجنرال واشنطن في أول يوم له في نيويورك عند منزل ماليجان وتناول معه طعام الافطار وسط دهشة جيرانه وذهولهم إلا أنهم بعد ذلك أدركوا الدور الذي قام به ماليجان في جمع معلوماتٍ حيوية من خلال الأحاديث التي كانت تدار في محله بين الضباط البريطانيين ونقلها إلى الجنرال واشنطن عن طريق شبكة الاتصالات التي كان يديرها «تونسند».

وقد كان عمل الجاسوسية في أيام الثورة محصوراً في إطار التجسس العسكري داخل المستعمرات، وكانت لعبة هواية التجسس السياسي الدولي تلعب في مقابل جوائز مالية كبيرة في الدوائر الدبلوماسية وخاصة فيفرنسا، حيث كان بنجامين فرانكلين يترأس بعثة أمريكية هدفها ضمان مساندة فرنسا لقضية المستعمرات. وقد كان من الأهمية القصوى لبريطانيا أن تعرف مدى نجاح مفاوضات فرانكلين ونوع المساعدة التي ستقدمها فرنساللمستعمرات. وعلى الرغم من ذلك فإننا لن نستطيع أن نعرف عدد الجواسيس الذين كانوا يحيطون بفرانكلين أو كم عدد جواسيس فرانكلين نفسه في انجلترا. فقد كان فرانكلين رجلاً حريصاً ويعيش في دولة أجنبية ولم ينشر الكثير عن هذه الفترة من حياته.

ادنر» بكتابة قصته عام ١٧٩٩ في كتابها «تاريخ انجلترا الحديثة». ولكن الغريب أنه بعد مرور ٢٢ عاماً على وفاته كان قد نسي تماماً، وقد قالت عنه «هانة أدنر» انه من النادر أن توجد شخصية كشخصيته، لكن بصرف النظر عن تأثر الأجيال التالية بولائه وثباته فإن الفضل يرجع إلى «هانة أدنر» في إحياء قصته.

وقد لفت موت هيل الذي كان مغموراً وهاوياً غير محترف وشديد الحب لوطنه وغير مجهز بما يساعده على القيام بعمليات التجسس المتسمة بالخطورة، نظر الجنرال واشنطن إلى الحاجة إلى محترفين بدرجة أكبر وعمليات استخبارية أكثر حذراً ودقة في إعدادها. وبعد موت هيل قرر واشنطن أن ينشىء دائرة رسمية سرية للاستخبارات واختار لرئاستها ميجور «بنجامين كال مادج» الذي كان زميلاً وصديقاً لناتان هيل في «يل»، الأمر الذي كان بمثابة دافع لواشنطن لتعزيز نجاح مشروعه الجديد.

وقد كان لواشنطن واحد من أقرب معاونيه في هذا المشروع ويدعى «روبرت تونسند» والذي قام بإدارة واحدة من أكثر مؤسسات التجسس نجاحاً وتعقيداً والتي وجدت في المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية المكونة للولايات المتحدة أثناء الثورة والتي لا نعرف مثيلاً لها. وقد كان الهدف الأساسي لها هو منطقة نيويورك التي كانت بالطبع مركز القيادة البريطانية، ولم تكن عملية جمع المعلومات بالصعوبة أو التعقيد بالقدر الذي كانت عليه وسائل الاتصال (وأتذكر أن الجنرال دونوفان كان يؤكد لي دائماً على الأهمية الحيوية لوسائل الاتصال وأن جمع المعلومات لن يكون مجدياً إذا لم نستطع نقلها بسرعة وبدقة إلى الطرف الآخر).

ومنذ أن استولى البريطانيون على نيويورك أصبحت منطقة «هدسون» والميناء تحت سيطرتهم بشكل محكم وكان من المستحيل أو على الأقل من ضروب المخاطرة والمجازفة محاولة التسلل من خلال دفاعاتهم إلى واشنطن في ويست - تشر ولذلك كانت ترسل المعلومات التي يجمعها عملاء «تونسند» في نيويورك إلى واشنطن بطريق غير مباشر وهو الأسلوب الذي كان يعد في ذلك الوقت سريعاً وفعالاً وآمناً. فقد كانت هذه المعلومات تنقل من نيويورك إلى نورث شور في لونج إيلاند ومن هناك إلى لونج ايلاند سون بالقارب ثم إلى شاطىء كونكتكت حيث كان ينتظر كال مادج لتلقي المعلومات وإبلاغها لواشنطن.

وهناك قصة جاسوس آخر أيام الثورة مماثلة لقصة هيل وهي قصة الميجور جوني أندريه وبنيدكت أرنولد، وقد كانا بارعين في عمل الاستخبارات المضادة

كبراعتهما في جمع المعلومات العسكرية، وفي عام ١٧٧٨ أرسل واشنطن رسالة قصيرة بخطه إلى تونسند جاء فيها ضمن أشياء أخرى: اختلطوا قدر المستطاع بالضباط واللاجئين وارتادوا المقاهي وكل الأماكن العامة في «نيويورك»و«أدن». وكانت لدى واشنطن أهداف معينة من المعلومات التي أرادها عن الضباط واللاجئين، وكانت هذه المعلومات حول ما إذا كان هناك حصون تبنى على وجه السرعة على نهر هارلم بالقرب من مدينة هارلم أو أنه قد تم تحصين «هورنزهوك». وإذا كان هذا قد حدث فكم يبلغ عدد الجنود في كل مكان وكم يبلغ عدد المدافع في هذه الحصون وحجمها. وقد كان هذا نموذجاً للرسائل المختصرة والتي تتطلب القيام بجمع معلومات معينة وهي التي تحدد بالضبط المعلومات المطلوبة، كما أنها قد تزود العميل بالطريقة أو الوسيلة التي يحصل بها على المعلومات. وقد كان يقوم بجمع المعلومات من مركز القيادة البريطانية وفيلادلفيا عدد لا يحصى من المواطنين العاديين والتجار وبائعي الكتب وأصحاب الحانات وغيرهم الذين كان لهم اتصالات يومية مع الضباط البريطانيين الذين صادقوهم وتنصتوا على المناقشات التي كانت تدور بينهم وتنكروا في هيئة سياح لاكتساب ثقتهم.

ومن المواطنين الذين ظلوا بعيداً عن الأضواء والشهرة في ذلك الوقت ترزيٌ يدعى «هيركلز ماليجان» في نيويورك وكان يعمل في أحد المحلات البريطانية الكبرى. وقد ظن جيرانه أنه من الأمريكيين المؤيدين لانجلترا (في أيام الثورة الأمريكية) أو متعاطفاً مع انجلترا فعاملوه بازدراء وعكروا عليه صفو حياته. وبعد انتهاء الحرب توقف الجنرال واشنطن في أول يوم له في نيويورك عند منزل ماليجان وتناول معه طعام الافطار وسط دهشة جيرانه وذهولهم إلا أنهم بعد ذلك أدركوا الدور الذي قام به ماليجان في جمع معلومات حيوية من خلال الأحاديث التي كانت تدار في محله بين الضباط البريطانيين ونقلها إلى الجنرال واشنطن عن طريق شبكة الاتصالات التي كان يديرها «تونسند».

وقد كان عمل الجاسوسية في أيام الثورة محصوراً في إطار التجسس العسكري داخل المستعمرات، وكانت لعبة هواية التجسس السياسي الدولي تلعب في مقابل جوائز مالية كبيرة في الدوائر الدبلوماسية وخاصة فيفرنسا، حيث كان بنجامين فرانكلين يترأس بعثة أمريكية هدفها ضمان مساندة فرنسا لقضية المستعمرات. وقد كان من الأهمية القصوى لبريطانيا أن تعرف مدى نجاح مفاوضات فرانكلين ونوع المساعدة التي ستقدمها فرنساللمستعمرات. وعلى الرغم من ذلك فإننا لن نستطيع أن نعرف عدد الجواسيس الذين كانوا يحيطون بفرانكلين أو كم عدد جواسيس فرانكلين نفسه في انجلترا. فقد كان فرانكلين رجلاً حريصاً ويعيش في دولة أجنبية ولم ينشر الكثير عن هذه الفترة من حياته.

وعلى أية حال فنحن نعرف معلومات ليست قليلة عن شخص نجح على نحو واضح في خداع فرانكلين وهو الدكتور «ادوارد بانكروفت» الذي ولد في المستعمرات في «ويست فيلد» في ولاية «ماستشوستس» الأمريكية ولكنه تلقى تعليمه في انجلترا وعمل كسكرتير للبعثة الأمريكية في باريس واستطاع أن يكسب ثقة فرانكلين واصبح مساعده المخلص كما أصبح ذا نفوذ بقليل من الجهد ونجح في التظاهر بدور الأمريكي الوفي والمخلص. وقد استطاع أن يعيش حياة يسر بالراتب القليل الذي كان يحصل عليه من الأمريكيين وذلك بسبب الأموال التي كان يغدقها عليه البريطانيون والتي كانت تبلغ ٥٠٠ جنيه نقداً وهو ما يعادل راتبه في السنة مضافاً إليه منحة الحكومة. ولاطلاعه على كافة مفاوضات فرانكلين السرية فقد كان بدون شك عميلاً ذا ثقل عند البريطانيين، وكان ينقل رسائل للسفارة البريطانية في باريس بوضع الرسائل في زجاجة مخبأة في جذع شجرة بحوض في حدائق «تيوايليرين» وعندما كان يحصل على معلومات لا تسمح أهميتها بوضعها في الزجاجة أو عندما كان يحتاج إلى تعليمات جديدة من البريطانيين كان يسافر إلى لندن بمباركة من فرانكلين بعد أن يقنعه بأنه يستطيع أن يحصل له على معلومات قيمة وهامة للأمريكيين في لندن.

وقد كان البريطانيون يدفعون له ما نعتبره اليوم مبالغ تافهة في مقابل إعطاء معلومات مضللة للطرف الخصم. كذلك فقد ألقوا القبض على بانكروفت ذات مرة بينما كان يحاول مغادرة انجلترا وذلك ليبينوا لفرانكلين مدى المخاطر التي يتعرض لها بانكروفت من أجل القضية الأمريكية ومدى ولائه لها. وقد استطاعت هذه الحيلة البريطانية التأثير على فرانكلين والتمكن منه لدرجة أنه عندما قدم له دليل خيانة بانكروفت رفض تصديقه أو الاقتناع به.

وفي عام ١٧٧٧ بعث فرانكلين برسالة إلى سيدة أمريكية تعيش في فرنسا وهي «جوليانا ريتش» والتي كانت قد حذرت فرانكلين من أنه محاط بالجواسيس، وذات مرة عندما قدمت بريطانيا احتجاجاً دبلوماسياً رسمياً للفرنسيين لمساندتهم للقضية الأمريكية قام البريطانيون ببناء هذا الاحتجاج على أساس تقرير سري لبانكروفت يضم حقائق وأرقام تلقاها من فرانكلين. والأكثر من ذلك أنهم استخدموا نفس أسلوب بانكروفت في الكتابة. وكان بانكروفت يخشى إلى درجة الموت أن يكتشف أمره لدرجة أنه طلب من البريطانيين إعطاءه جواز سفر حتى يستطيع الهروب في الوقت المناسب، وقد عبر فرانكلين عن رأيه الخاص في هذه الحادثة فقال «إن مثل هذه المعلومات الأكيدة يجب أن تكون قد صدرت عن مصدر قريب جداً منه».

ولكن حسب معلوماتنا فإن فرانكلين لم يتخذ أي إجراء حيال هذه الحادثة.

وقد كان للبريطانيين أيضاً أسبابهم التي تدعو إلى شكهم في بانكروفت، فلم يكن جورج الثالث يثق كثيراً في شخصيته أو في تقاريره منذ أن ضبطه ذات مرة يستثمر أمواله التي كسبها بطرق غير مشروعة في السندات المالية التي كانت ستزيد قيمتها بعد انتصار الأمريكيين. ولم يثبت قيام بانكروفت بدور مزدوج قبل عام ١٨٨٩ عندما نشرت بعض الأوراق من الأرشيف البريطاني تتعلق بفترة الثورة.

ومن بين هذه الأوراق رسالة بعث بها بانكروفت إلى لورد كارمرثن سكرتير الدولة للشؤون الخارجية عام ١٧٨٤ وحصر فيها أنشطته التي قام بها كعميل بريطاني، ويبدو أن الحكومة البريطانية تخلت عن دفع الأموال لبانكروفت فتقدم بطلب مذكراً بخدماته السابقة التي أداها لها.

وقد كان من الواضح أن عملاء فرانكلين في لندن قد عينوا في أماكن ووظائف مميزة حيث تمكن فرانكلين في مطلع عام ١٧٧٨ من معرفة مضمون تقرير سلمه الجنرال «كورنواليز» في لندن يتعلق بالوضع الأمريكي وذلك بعد مرور أقل من شهر على تسليم التقرير، وقد كان جوهر هذا التقرير هو أن فتح أمريكا يعد أمراً مستحيلاً. وإذا كان عملاء فرانكلين قد استطاعوا التغلغل إلى هذا الحد داخل الحكومة البريطانية فإنه من الممكن أنهم كانوا قد اكتشفوا المعلومات التي كان بانكروفت يزود بها البريطانيين.

وخلال الحرب الأهلية وبدرجة أكبر خلال الثورة فإن التراث العام واللغة الخاصة بطرفي النزاع وحقيقة أن الكثير من الناس الذين تجمعوا في جانب واحد بحكم الوضع الجغرافي كانوا يتعاطفون مع الأهداف السياسية للجانب الآخر، كل هذا جعل المهمة الرئيسية للتجسس إلى حد ما أكثر سهولة بينما أصبحت مهمة التصدي لعمليات التجسس أو عمليات التجسس المضادة أكثر صعوبة. ويبدو أن السجلات ستبين لنا أن قليلاً من عمليات التجسس ذات الكفاءة العالية يمكن مقارنتها من حيث الأهمية في اتمامها والتفوق الأسلوبي بمثيلاتها في وقت الثورة عند كلا الجانبين، فلم يحدث أن تحققت مكاسب أو خسائر في المعارك الكبرى أو تم تجنب هذه الخسائر إلا بسبب عمليات الاستخبارات المتفوقة. وقد كانت عمليات الاستخبارات محدودة عادة بقلة أو كثرة الأهداف المركزية والمؤقتة. وقد قال كاتب ذات مرة، لقد كان هناك أكثر من عملية تجسس واحدة في العام الواحد في كل مدينة من المدن الايطالية في القرون الوسطى زيادة على عمليات السنوات الأربع لحرب الانفصال.

وهناك أسباب متعددة لذلك، نعم لم يكن هناك منظمة للاستخبارات عند أي من الجانبين عند اندلاع الحرب ولا أي خبرة ممكنة في عمل الاستخبارات بين أفراد جيشنا في ذلك الوقت.

وقبل الثورة تعاون زعماء المستعمرات ونظموا حرباً محدودة ضد البريطانيين استمرت عدة أعوام، وفي وقت الحرب غير المحدودة كان لزعماء المستعمرات مجموعة من المصادر النشيطة تعمل لحسابهم في انجلترا. وقد كان واشنطن رئيساً موهوباً إلى حد بعيد في الاستخبارات وأشرف بنفسه على إدارة جهود الاستخبارات الداخلية للقوات الأمريكية إلى درجة الاشتراك بنفسه في عملياتها التي كانت تتميز بأهمية أكبر.

ولم يكن لواشنطن مثيل في براعته بين جميع الجنرالات سواء المؤيدين لحكومة الولايات المتحدة في الحرب الأهلية أو الولايات الاحدى عشرة التي انفصلت عن الولايات المتحدة، وفي النهاية فإن الحرب الأهلية لم تكن مفاجآت أو أسراراً.

فقد ظلت أعداد كبيرة من الجيوش معسكرة في مكان واحد لفترات طويلة من الوقت ولذلك عندما يبدأون التحرك من مكانهم تنقل أنباء تحركاتهم أولاً بأول وبصورة أوتوماتيكية، وقد استطاع واشنطن بعدد قليل من الجنود أن ينشر معلومات كاذبة عن قوته ثم يقوم بنقل قواته بسرعة إلى درجة أن البريطانيين كانوا يفشلون في العثور عليهم في المكان الذي كانوا يتواجدون فيه في اليوم الأسبق وخاصة عندما كان يحصل واشنطن على معلومات مسبقة عن تحركات البريطانيين من خلال شبكات اتصالاته.

وقد كانت مدينة واشنطن في بداية الحرب الأهلية مكشوفة لكل الثوار وكانت تنظيماتها في الجانب الشمالي معرضة للخطر لدرجة أن حجمها وتحركات قواتها كانت ظاهرة لأي من المهتمين بمراقبتها. وقد قيل ان اتحاد الولايات التي انفصلت عن الولايات المتحدة لم يكن لها أبداً وكالة أو منظمة للاستخبارات بمثل هذه الكفاءة لمساعدتهم، كتلك التي كانت في بداية معركة «بول رن».

وقد كانت من أوائل الأحداث التي وقعت في تلك الفترة والتي بدت ظاهرياً مؤشراً إلى الحاجة إلى وكالة استخبارات سرية هي المؤامرة التي دبرتها مجموعة من المتهورين في بلتيمور لاغتيال لنكولن بينما كان في طريقه ليتقلد منصبه كرئيس في فبراير عام ١٨٦١. وقد قام بعض مؤيدي لنكولن باستخدام آلان بنكرتون الذي قام بعمليات شهيرة كمخبر خاص للسكك الحديدية لحماية لنكولن.

وقد استطاع بنكرتون تأمين وصول لنكولن إلى واشنطن دون أن يتعرض لأي حادث بعد أن رتب مرور قطار الرئاسة عبر بلتيمور في موعد غير معلن في الليل في الوقت الذي تسلل فيه معاونوه من الشرطة السريين إلى صفوف المتآمرين في بلتيمور وراقبوا تحركاتهم عن كثب. وعلى الرغم من كفاءة بنكرتون في مجال الأمن ومكافحة

التجسس إلا أن كفاءته التي زكته في مجال جمع المعلومات ما كانت لتبرز لولا عميل ممتاز كان يدعى تيموثي ويبستر، فهو الذي قدم بعض المعلومات القيمة والتي حصل عليها بطريقته الخاصة دون مساعدة في فيرجينيا، ولكن لسوء الحظ ألقي القبض على ويبستر في بداية الحرب بسبب مناورة حمقاء قام بها بنكرتون ونفذ فيه حكم الاعدام. وبعد ذلك عمل بنكرتون مع الجنرال ماكيلان في الاستخبارات العسكرية داخل مركز قيادته وكانت فكرة بنكرتون عن عمل الاستخبارات العسكرية هو أن يحصي عدد قواته ثم يعيد عدهم مرة أخرى ليتأكد أن رقم العد الأول كان صحيحاً.

وحيث ان ماكيلان كان مشهوراً بأنه لا يخرج في معركة إلا على رأس جيش جرار فإن أسلوب بنكرتون في عد القوات لم يسهم في نتيجة أي معركة. وعلى الرغم من المميزات العالية التي كانت في صالح ماكيلان إلا أن «لي» هزمه في «انتيتام».

وعندما أبعده لنكولن من قيادته بعد هذه المعركة استقال بنكرتون تاركاً الولايات المتحدة بدون جهاز للاستخبارات، وفي الحقيقة ان لنكولن استخدم عميلاً بطريقته الخاصة أثناء مهمة للاستخبارات العسكرية في الوقت الذي لم تكن فيه معركة بول رن قد أصبحت معروفة حتى عام ١٨٧٦، ثم كشف النقاب عنها في صورة دعوى ضد الحكومة للحصول على تعويض عن النفقات والخسائر، وفي مارس ١٨٧٦ عقدت المحكمة العليا للولايات المتحدة جلسة استماع لدعوى مقدمة من دار القضاء الأمريكي من شخص يدعى «أنكو توتن» يطالب فيها الحكومة بدفع تعويض مقابل خدمات قام بها شخص يدعى «وليم ليود» بناء على عقد مع الرئيس لنكولن وقع في يوليو ١٨٦١ والذي كان عليه بمقتضاه أن يتوجه إلى الجنوب ويتحقق من عدد القوات المتمركزة في عدة أماكن مختلفة في الولايات التي أعلنت شن حركة عصيان مسلح، ويحصل على خريطة للحصون والتحصينات وإبلاغ الرئيس بالحقائق، وقد سلك «ليود» طريقه بين صفوف المتمردين وظل هناك طوال فترة الحرب بالكامل ليجمع المعلومات ويقوم بإرسالها من وقت لآخر إلى الرئيس، وبعد نهاية الحرب تلقى حق أتعابه عما قام به لكنه لم يتلق مبلغ الـ ٢٠٠ دولار الذي كان الرئيس قد وعده به كراتب شهري.

والحادثة في حد ذاتها شيقة على الرغم من الحقائق القليلة التي كشفتها، ويرجع ذلك إلى إلقائها الضوء على حكمة وبصيرة لنكولن في هذا الوقت والحذر والسرية التي باشر بها مهامه خلال سنوات أربع طوال من الحرب.

وأعلنت المحكمة العليا حكمها في هذه القضية مشيرة إلى أن كلاً من المستخدم والعميل يجب أن يكونا قد أدركا أنه كان يجب على كل منهما ألا ينطق

بحرف واحد عن هذا الموضوع احتراماً لعلاقة كل منهما للموضوع ذاته. كما كشفت هذه القضية أن عميل الاستخبارات لا يمكنه الحصول على تعويض من الحكومة بأمر من المحكمة نظير عمليات استخبارية قام بها. وبعد أن ابتعد بنكرتون عن مسرح الأحداث بذلت جهود لإنشاء منظمة للاستخبارات العسكرية بمعنى الكلمة وتعرف باسم وكالة المعلومات العسكرية.

وقد أسندت للميجور «جورج شبيرب» مسؤولية تولي هذا الجهاز على الرغم من انه لم يكن معروفاً في هذا المجال بصورة كافية، وكان الاتحاد يحصل على معلومات كافية عن طريق متطوعين غير دائمين كانوا يعملون دون تلقي توجيه جيد من أي شخص، وكان أحد هؤلاء هو «لافاييت بيكر» الذي تنكر في مهنة مصور فوتوغرافي حيث كان يقوم بزيارة معسكرات اتحاد الولايات المنفصلة عن الولايات المتحدة الأمريكية في فيرجينيا والتقاط صور للجنود المتمركزين داخلها، وفي نفس الوقت يجمع معلومات عسكرية قيمة، وبعد ذلك رقي إلى رتبة عميد وتولى إدارة البوليس السري القومي المشابه لجهاز المخابرات الآن. وفي الوقت الذي برع وتفوق فيه «بنكرتون» في مكافحة التجسس دون أن يكون عنده ما يزكيه كمشرف على عمليات التجسس تمكن بيكر من التفوق في مجال التجسس إلا أن فشله كرئيس لجهاز المخابرات افقدنا واحداً من أعظم رؤسائنا، وحتى يومنا هذا لم يعرف أحد أين كان رجال بيكر في ليلة ١٤ أبريل ١٨٦٥ عندما كان إبراهام لنكولن يجلس في مقصورة دون حراسة في مسرح فورد ويشاهد مسرحية، أو لماذا لم يقم بيكر بمراقبة مجموعة الذين اغتالوا لنكولن على البرغم من أن آراءهم المتعصبة كانت معروفة لكل سكان ريتشموند وظلت هذه المجموعة في موقعها طوال مدة الحرب وتعد واحدة من أهم شبكات الجواسيس التي عرفها الشمال.

وقد ذكر «جرانت» ذاته أن المعلومات التي أرسلها كانت من أهم المعلومات التي حصل عليها طوال الحرب من ريتشموند.

وخلال السنوات العشر التالية لعام ١٨٨٠ أنشيء في الولايات المتحدة أول منظمة للاستخبارات العسكرية والبحرية في أوقات السلام، وقد عرفت عندئذ داخل الجيش باسم إدارة المعلومات العسكرية وكانت تابعة لمكتب الجنرال المساعدللقائد، أما مكتب البحرية فكان تابعاً لوكالة الملاحة، وخلال السنوات العشر نفسها تم تعيين أول ملحق عسكري وبحري أمريكي في سفاراتنا وفي المفوضيات في الدول الأجنبية حيث كان عليهم العمل كمراقبين وضباط مخابرات.

وفي عام ١٩٠٣ مع تأسيس أول أركان عامة للجيش دمجت وحدة المعلومات العسكرية معها واعتبرت الإدارة الثانية ومن هنا جاءت تسمية (ج ـ ٢) الذي ظل

شعار الاستخبارات في الجيش الأمريكي، إلا أنها تضاءلت بسبب افتقارها إلى الاهتمام بها وبمسؤولياتها إلى درجة الزوال أو الاختفاء. ونتيجة للحرب العالمية الأولى وجدت أننا أصبحنا مرة أخرى بدون جهاز حقيقي أو ملموس للاستخبارات، إلا أن موقفنا في هذه المرة كان مختلفاً. فقد كنا نحارب في جبهة خارجية بعيدة عن حدودنا وكان لنا حلفاء ولم يكن لدينا متسع من الوقت لتطوير سلاح استخبارات ما زال في وضع الجنين. كما أننا لم نكن مضطرين إلى ذلك بعد أن أمكننا أن نعتمد وبشكل كبير على البريطانيين والفرنسيين في مجال الاستخبارات العسكرية وعلى وجه التحديد في ترتيبات القتال، ولكننا تعلمنا بسرعة بفضل مجموعة من الضباط الذين كان على رأسهم الكولونيل «رالف فان ديمان» الذي اعتبره الكثيرون القوة الدافعة لتأسيس الاستخبارات العسكرية الأمريكية، وقد عملت شخصياً معه أثناء الحرب العالمية الأولى عندما كنت في برن وأقر بمدى فعالية العمل الذي قام به هو وخلفاؤه الجنرال رينيس نولان والجنرال مارلبورو تشرشل، اللذان قاما بوضع أسس وكالة استخباراتنا العسكرية الحالية. وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب كان قد أكتمل إنشاء الهيكل الأساسي أو إطار الأقسام المختلفة للاستخبارات العسكرية والبحرية والتي ظلت باقية حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وضمت هذه الأقسام (ج ـــ ٢) قوات الاستخبارات المضادة والتي كانت تعرف حتى عام ١٩٤٢ بقوات بوليس الاستخبارات ومكتب الاستخبارات البحرية، وعلى قدر متساو من الأهمية من حيث خبرتنا الأولى أثناء الحرب العالمية الأولى في مجال الكتابة بالشيفرة والتي سأتحدث عنها بالتفصيل في فصل آخر.

وفي هذا المجال كانت هناك قوة مخفضة إلى أقل عدد ممكن تعمل أثناء سنوات السلام ونجحت في تطوير الوسائل الأكثر حيوية وأهمية للاستخبارات العسكرية جنباً إلى جنب مع وكالة لجمع المعلومات والعمليات السرية، وكما ذكرت سابقاً فإن أصل نشأة هذه الوكالة جاء بعد دعوة من الرئيس فرانكلين روزفلت لوليام دونوفان عام ١٩٤١ للحضور إلى واشنطن وحل هذه المشكلة. وقد كان الكولونيل دونوفان كفؤا لهذا العمل، فقد كان محامياً بارزاً ومحارباً قديماً في الحرب العالمية الأولى وفاز بوسام الشرف، وقسم حياته المزدحمة في فترات السلام بين المحاماة وخدمة الحكومة والسياسة، وعرف العالم من خلال رحلاته وتنقلاته الكثيرة واستطاع أن يفهم الناس. باختصار فقد كان له العديد من الصفات المطلوبة كضابط في الاستخبارات، وقد عجل الهجوم الياباني على بيرل هاربور بالإضافة إلى دخولنا الحرب من نمو جهاز الخدمات الاستراتيجية وعمليات استخباراته، وقد بدأ الجهاز كمنظمة للبحث والتحليل وكان يديرها مجموعة مختارة من أفضل المؤرخين والعلماء الذين كانوا موجودين في البلد.

وفي يونيه ١٩٤٢ أطلق عليه اسم جهاز تنسيق المعلومات وأصبح مكتب الخدمات الاستراتيجية، وطلب من دونوفان أن يقوم بتجميع وتحليل المعلومات الاستراتيجية وتخطيط وتنفيذ خدمات خاصة، وفي هذا الوقت كان مكتب الخدمات الاستراتيجية قد بدأ بالفعل وقطع شوطاً في مهمة الخدمات الخاصة وهو شعار للاستخبارات السرية والعمليات السرية من كافة الأنواع والخصائص وعلى وجه الخصوص مساندة الجماعات السرية المناهضة للنازية خلف خطوط العدو والاستعدادات السرية لغزو شمال أفريقيا.

وخلال عام ١٩٤٣ كانت عناصر مكتب الخدمات الاستراتيجية قد بدأت عملها في تأسيس قواعد لها تشمل معظم دول العالم فيما عدا أمريكا اللاتينية التي كان يتولاها مكتب المباحث الفيدرالي وأجزاء من مقاطعة الشرق الأقصى التي كان الجنرال مكارثر قد احتلها بالفعل، وكان هناك القسم الخاص برجال حرب العصابات والمقاومة الذين تم تدريبهم على طريقة إدارة العمليات الخاصة البريطانية والتي كانت ذائعة الصيت في تلك الأيام، وقد عملوا معاً في أوروبا وأرسلوا فرقاً لهم من الرجال والنساء إلى كل من فرنسا وإيطاليا ويوغسلافيا والصين والهند.

وقد كانت الفكرة الرئيسية وراء هذه العمليات هي مساعدة وتدريب وتموين حركات المقاومة التي كانت موجودة بالفعل أو إنشاء منظمات تضم الموالين لهم وتدريبهم ليكونوا قوة من رجال حرب العصابات وذلك في الأماكن التي لا توجد فيها عناصر مقاومة.

وقد نبهت هذه الحروب في أجزاء مختلفة من العالم زعماءنا إلى الحاجة لجهاز استخبارات يغطي العالم كله. ولم نكن مدركين لذلك تماماً عندما رأينا الخطوة الأولى من الخطة الرئيسية للشيوعية التي تهدف إلى تشتيت مجتمعات أوروبا وآسيا وعزل الولايات المتحدة للاستيلاء على باقي العالم. والذي بدأنا ندركه بعد ذلك هو حاجتنا لمعرفة قدر أكبر مما نعرفه عن خطط الكرملين السرية لتوسيع حدود الشيوعية.

وقد أشار الرئيس «ترومان» في خطاب له في ١٢ مارس ١٩٤٧ إلى أن سياستنا ستكون مساعدة الشعوب الحرة للحفاظ على حريتها ومكافحة الغزو الشيوعي الذي يعد خرقاً لميثاق الأمم المتحدة. وقد بدا واضحاً أن الأمم المتحدة لن تتمكن من لعب دور رجل البوليس بعد أن أصبحت مكتوفة الأيدي بعد استخدام السوفييت لحق الفيتو، وأن أمامنا فترة طويلة من الزمن مليئة بالأزمات، وتحت هذه الظروف اتخذت الحكومة الأمريكية عدة إجراءات أولها إعادة تنظيم وبناء دفاعنا القومي والذي تطلب توحيد القوات المسلحة تحت قيادة وزير الدفاع وإنشاء مجلس للأمن القومي وأن يكون هناك وكالة استخبارات مركزية دائمة.

وقد وافق الكونجرس الجمهوري بالاجماع وأنشئت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بقرار من مجلس الأمن القومي عام ١٩٤٧، وقد ضمت عدداً ممن كانوا على دراية بهذا المجال وبعض العاملين في مكتب الخدمات الاستراتيجية، وقد أدرك في نفس الوقت أن الإدارة الأمريكية ستكون معتمدة في عملها بشكل واسع على تقارير ومعلومات وكالة الاستخبارات المركزية التي تحصل عليها من المؤسسات الدبلوماسية في الخارج، بينما تعتمد القوات المسلحة على ملحقيها العسكريين ومؤسساتها العسكرية في الخارج لجمع معلومات عن كافة دول العالم. ولذلك فقد منحت وكالة الاستخبارات تفويضاً رسمياً لتطوير وتنمية سلاح جمع المعلومات ليكون متميزاً تماماً عن هذا القسم من المنظمة الذي أنشىء لتجميع وتقييم المعلومات التي ترد من أقسام أخرى بالحكومة. وإحدى مميزات أو سمات وكالة الاستخبارات الاستثنائية أو الفريدة هو أن جانب تقييمها وتنسيقها كان عليه أن يبحث المعلومات التي يقدمها سلاحها السري بنفس الطريقة التي تبحث بها المعلومات التي تحصل عليها إدارات أو هيئات أخرى حكومية، بالإضافة إلى تنسيق جميع الأنشطة السرية تحت إدارة واحدة. وألغت وكالة الاستخبارات المركزية التقليد القديم لإبقاء عمليات التجسس وعمليات التجسس المضادة في قسم مستقل والأنشطة المتعلقة بالحرب السياسية والنفسية في قسم آخر وأدمجت الاثنين معاً حتى توفر أفضل جو ممكن من السرية على أنشطتها.

متطلبات المخابرات في المجتمع المفتوح

تواجه الولايات المتحدة في الوقت الحالي تحديًا يتمثل في السياسة التي تنتهجها مجموعة من الدول المعادية لها.

ولا يعني هذا في حد ذاته أمراً جديداً بالنسبة للولايات المتحدة ولكن ما يهمها حقاً هو أنها ولأول مرة أصبحت تواجه عدواً عنده من القوة العسكرية ما يمكنه من شن هجوم مدمر على الولايات المتحدة، وهو الأمر الذي لا يستغرق سوى دقائق أو ساعات في عصر الصواريخ النووية وفي نفس الوقت دون إنذار مسبق.

ومن المؤكد أن الولايات المتحدة لديها قوة عسكرية مماثلة لقوة عدوها. ولكن الاختلاف ينشأ هنا من كون الولايات المتحدة مجتمعاً مفتوحاً لا يخفي شيئاً من أمر وسائل الدفاع والردع الخاصة به، على عكس أعدائه الذين يحيطون أمورهم بجدار سميك من وسائل الأمن والسرية، ولعبور هذه الفجوة والتوصل إلى ما يمدنا بإنذار مبكر فإنه يتعين علينا أن نزيد من اعتمادنا على عمليات المخابرات.

تقوم كل من وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكيتين بتجميع المعلومات من الخارج وتحويلها لخبراء المخابرات بهما لتحليلها وإعداد التقارير عنها. فهل يمكن لهاتين الوزارتين أن تقوما بالمهمة بأكملها؟

منذ خمسة عشر عاماً أجابت الهيئات التنفيذية والتشريعية في الحكومة عن هذا السؤال بـ «لا».

ويأتي هذا القرار نتيجة للشعور المتزايد بطبيعة الخطر الشيوعي وبإجراءات السرية والأمن التي تحيط باعدادهم للأسلحة بالإضافة إلى تغلغلهم المدمر في المجتمعات المفتوحة.

يحيط كل من الاتحاد السوفييتي والصين الكثير من مناطقهما بنطاق من السرية حتى لا تصل إليها عيون الغرباء. فهما لا تعلنان إلا بقدر محدود عن أية معلومات بشأن منشآتهما العسكرية، وعلى الرغم من ذلك فنحن (الولايات المتحدة) ودول المجتمع المفتوح الأخرى في حاجة إلى هذه المعلومات لحماية أنفسنا.

وفي الوقت نفسه ترفض الدول الشيوعية مبدأ «التفتيش» الذي اعتبرناه نحن لازماً لعملية نزع السلاح في المنطقة.

فهم يرون أن هذه السرية عنصر هام وأساسي في سياستهم ويدعون أنه من حقهم التسلح بسرية حتى يتمكنوا إذا رغبوا أن يشنوا هجومهم السري.

وقد رفض الشيوعيون من قبل الاقتراح الذي تقدم به الرئيس ايزنهاور في عام ١٩٥٥ والمعروف باسم «السماء المفتوحة» أو «الأفق المفتوح Open sky»، والذي كنا على استعداد في حالة قبولهم به أن نقبله بدورنا. وقد أدى هذا الرفض إلى إلقاء المهمة على عاتق المخابرات فأصبح عليهم أن ينفذوا خلال جدار السرية وأن يعملوا على توازن كفة المعرفة والاستعداد، ان حائط برلين لم يفصل سياسياً بين شقين مختلفين لدولة واحدة فقط ولم يحد من عدد الهاربين من ألمانيا الشرقية إلى الغربية، بل قاموا كذلك بسد آخر فجوة فيما يعرف بالستار الحديدي وهو الخط الحدودي بين الشقين والـذي كان يتكون من الأسلاك الشائكة والأنفاق الأرضية وأبراج المراقبة فضلاً عن دوريات الحراسة المتحركة.

وبالانتهاء من بناء حائط برلين كان السوفييت قد انتهوا بوسائلهم الخاصة وعلى مدى ١٦ عاماً من إسدال ستار من السرية على أوروبا الشرقية. وعلى الرغم من ذلك فهناك وسائل لاختراق هذا الحاجز الذي لا يمثل سوى العقبة الأولى من سلسلة العقبات. فخلف الحائط الأول تواجهنا مناطق منعزلة وممنوعة، وخلف هذا كله حاجز من السرية التي تكشف المؤسسات والأشخاص، وهذا كله يشترك في إخفاء كل شيء يعتقد السوفييت أنه يمكن أن يكشف عن نقاط ضعفهم أو قوتهم أمام أعين الغرب الفضولية.

وترى المخابرات الغربية أن الستائر الحديدية تقسم دول العالم إلى نوعين: مناطق مفتوحة وأخرى ممنوعة.

تنصب أهدافنا الرئيسية على اختراق ستائر المناطق الممنوعة لمعرفة قدراتها المتمثلة في منشآتها العسكرية والفنية والصناعية والنووية والتي تشكل العمود الفقري للقوة الشيوعية.

كذلك نهدف إلى التوصل إلى مخططات الساسة والقادة في الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية ومعرفة ما إذا كانت نواياهم تتجه نحو الحرب أو إلى السياسات السلمية.

ومن هنا وإزاء هذه الأهداف يعد عمل أقسام المخابرات بوزارتي الدفاع والخارجية على قيمته الكبيرة غير كاف. وهنا يبرز دور النشاط السري لوكالة المخابرات والتي تنفرد بأساليب خاصة تساعدها على اختراق حواجز السرية والأمن في الكتلة الشيوعية.

ويتعين على وكالة المخابرات في العصر الحالي أن يكون لها مراكز مراقبة ثابتة في كافة أنحاء العالم بغض النظر عما يشغل أذهان الدبلوماسيين والعسكريين، إذ ان المصالح الحيوية الأمريكية معرضة للهجوم عليها في أي وقت وفي أي مكان في العالم.

فمنذ سنوات ليست بالبعيدة لم يكن أحد قادراً على أو راغباً في التنبؤ بأنه في فترة الستينات ستصبح قواتنا المسلحة مرابطة في كوريا ومتوغلة في جنوب فيتنام وأن كوبا ستصبح دولة شيوعية معادية ووثيقة التحالف مع موسكو، أو أن الكونغو ستحتل جانباً كبير الأهمية في سياستنا الخارجية، ومع ذلك فنحن نراها اليوم حقائق ومن المؤكد أن السنوات القادمة ستحمل معها تطورات لا تقل عنها غرابة.

وعلى الرغم من انه من المستحيل اليوم أن يتنبأ أحد في أي منطقة من العالم سيظهر الخطر القادم، إلا أنه يتعين على المخابرات أن تحذر مسبقاً من مثل هذه الأخطار حتى تتخذ الحكومة احتياطاتها. فلم تعد عملية استقاء المعلومات قاصرة على عدد قليل من الدول بل اتسعت مساحة صراعاتنا لتشمل العالم بأسره، حتى انه في عصرنا الحالي عصر الذرة أصبح لمناطق مثل القطب الشمالي والجنوبي أهمية استراتيجية، فقد فقدت المسافات كثيراً من اهميتها في حين أن الوقت بالمفهوم الاستراتيجي أصبح يحسب بالساعات أو ربما بالدقائق.

فالمحيطات التي كانت في الحرب العالمية الثانية تشكل درعاً واقياً للدولة إذ كانت تتيح لها وقتاً كافياً للاستقرار ريثما يتمكن العدو من عبورها، نفس تلك المحيطات ما زالت على اتساعها غير كافية إذ انه يمكن للصاروخ الآن أن يعبرها في دقائق والطائرة الحربية في ساعات قليلة.

وتأتي الولايات المتحدة اليوم في الخط الأمامي للهجوم إذ انها تعد الهدف الرئيسي لأعدائنا، كما أن شن أي هجوم اليوم لم يعد يحتاج لفترة طويلة في عصر تقف فيه الصواريخ وقاذفات القنابل على أهبة الاستعداد.

ومن هنا يتضح أن وكالة المخابرات تقع عليها مسؤولية جديدة، فهي لا تستطيع أن تنتظر حتى تحصل على أدلة على احتمال قيام أي دولة بأعمال عدوانية ضدنا إذ ان هذا الانتظار يمكن أن يتيح للدولة المعادية .فرصة اتخاذ قـرار بالضرب.

ولذلك فمهمة المخابرات هي أن تخبر الحكومة مسبقاً عن أي هجوم محتمل الوقوع حتى تتخذ الحكومة الاحتياطات اللازمة قبل وقوعه.

ويصبح الموقف أكثر تعقيداً عندما يشن هجوم استفزازي ليس على الولايات المتحدة ولكن على دول أخرى فيما وراء البحار - مثل كوريا وفيتنام - يشكل خروجها من تحت هيمنة العالم المفتوح خطراً يهدد أمن الولايات المتحدة نفسها.

ومن ذلك نستخلص أن خير تأمين لنا ضد عنصر المفاجأة (الهجوم المفاجىء) يتمثل في أن وكالة المخابرات يجب أن تكون دائماً على أهبة الاستعداد وقادرة على القيام بعمل منسق وتقديم تقارير دقيقة وسريعة حول التطورات في أي منطقة في العالم.

إن وجود نظام مخابرات يقظ وقادر على إعطاء إنذار مسبق قبل وقوع أي هجوم يعد في حد ذاته أحد أكثر العوائق تأثيراً في سد شهية العدو للهجوم، ولذلك فإن وجود مثل هذا السلاح القادر على الانذار المبكر يجب الا يظل سراً بل ينبغي الإعلان عنه بشكل جيد مع الاحتفاظ بسرية وسائله وأساليبه، فلا ينبغي أن يصبح الحديث عن المخابرات مسألة محرمة بل على العكس يتعين علينا أن نعلن عن نجاحنا في قطع شوط طويل في سبيل تكوين أقوى جهاز مخابرات في العالم.

وبالإضافة إلى عملية تحصيل المعلومات فهناك مسألة أخرى وهي كيفية معالجتها وتحليلها. واعتقد أن هناك أسباباً قوية لوضع مسؤولية اعداد وتنسيق المعلومات بين يدي مدير وكالة مركزية متخصصة لا يقع على عاتقها اي مسؤوليات أخرى سياسية كانت أو عسكرية، فمن الطبيعي أن الساسة يقترنون بالحقل السياسي الذي تقع مسؤوليته عليهم كذلك يكون الحال بالنسبة للعاملين في حقل الخارجية أو الدفاع فكلهم يقترن بمجاله.

ومن هنا فإنه من المحتمل أن ينظر أي منهم بتحيز ضد تقارير المخابرات التي قد تحوي معلومات مناهضة لقرارات سياسية سائدة أو قد تطالب بتغيير تقييم يستند عليه عن قوة السوفييت مثلاً، في أي من المجالات العسكرية.

ففي حقل المخابرات يعد التحيز الوظيفي أكبر مصدر للخطر، كما أنه يؤدي إلى أخطاء أكثر من تلك التي يمكن أن يؤدي إليها أي خداع أو تآمر أجنبي.

ومع تسليمي بأننا جميعاً ومن بيننا مسؤولو وكالة المخابرات المركزية أنفسهم بشر ومن طابعنا التحيز، فإن إعطاء مهمة تنسيق وإعداد المعلومات لوكالة مخابرات مركزية لا صلة لها بالحقل السياسي أو العسكري يجنبنا إلى أقصى حد ممكن خطر تحوير الحقائق لتتفق مع وجهة نظر وظيفة معينة.

ففي عهد «بيرل هاربور» (وهو قائد ياباني) كان كبار المسؤولين هنا وفي الخارج على ثقة من أن اليابان إذا فكرت في الهجوم فستوجه ضربتها جنوباً حيث المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية.

فلم يكن احتمال أن توجه اليابان الضربة الأولى لأخطر أعدائها وهو الولايات المتحدة ليخطر على بال أحد، غير أن هجوم اليابان على جزر هاواي والفلبين وسوء استخدام معلومات وتنسيق جهاز المخابرات آنذاك أثرا بصورة كبيرة على القرار الذي اتخذته الحكومة الأمريكية مؤخراً بشأن كيفية تنظيم عمل المخابرات. فحتى لو لم تكن تحذيرات جهاز المخابرات قبل الهجوم واضحة بشكل كاف يتيح للمسؤولين توجيه نظرهم تجاه هاواي والفلبين بالتحديد، فكان يجب على الأقل ـ لو كانت هذه التحذيرات قد حللت بصورة وافية ـ أن تنبهنا إلى وجود خطر وشيك الوقوع في منطقة الباسيفيك.

وأقترح على أي شخص تساوره الشكوك تجاه أهمية دور جهاز المخابرات الموضوعي اقترح عليه دراسة الأخطاء التي وقع فيها قادة سابقون اما لأنهم اتبعوا مشورة خاطئة أو أنهم أساءوا تقدير أفعال أو ردود أفعال الدول الأخرى.

فمن أمثلة الفشل في سوء تقدير المعلومات المتاحة قيام القيصر ويلهلم الثاني بضرب فرنسا عام ١٩١٤، وانتهاكه لحياد بلجيكا اقتناعاً برأي قادته العسكريين بأن انتهاك الحياد ضروري للتفوق العسكري.

فقد اعتمد ويلهلم بصورة كبيرة في القيام بهذا الهجوم على القادة العسكريين بأن انجلترا لن تدخل الحرب، هذا بالرغم من التحذيرات التي تلقاها من الجانب السياسي. كذلك نجد أن الحكومة البريطانية على الرغم من تحذيرات تشرشل قبل أيام من قيام الحرب العالمية الثانية، قد فشلت في إدراك أبعاد الخطر النازي وخاصة في مجال الطيران.

أما هتلر فقد ارتكب أثناء الحرب العالمية الثانية سلسلة من الأعمال التي تدل على سوء التقدير. فقد أساء تقدير قوة بريطانيا وتصميمها، وكذلك لم يكترث بالعواقب التي يمكن أن تنتج عن فتحه لجبهة قتال ثانية ضد روسيا في يونيو ١٩٤١، كذلك في عام ١٩٤٢ لم يعر هتلر أية أهمية للمعلومات التي وصلت إليه بشأن عزم الجيوش

الأمريكية ـ البريطانية على التوجه إلى شمال افريقيا، بل لقد قيل لي انه علق يوماً على هذا الموضوع قائلاً ان الأمريكيين والبريطانيين لا يوجد عندهم سفن ليفعلوا ذلك.

وبالنسبة لليابان فعلى الرغم من نجاح الهجوم الذي شنته على بيرل هاربور إلا أن الأحداث اللاحقة أثبتت أن الحكومة اليابانية قد ارتكبت أكبر أخطائها عندما أساءت تقدير القوة العسكرية في الولايات المتحدة.

ومما يزيد من أعباء جهاز المخابرات في الوقت الحالي ظهور خطر جديد لم يكن معروفاً حتى قيام الثورة الشيوعية، وهو يتمثل في محاولة الشيوعيين تقويض أمن الدول المفتوحة، الأمر الذي لم ندركه إلا عقب الحرب العالمية الثانية. وبما أن هذا لا يتم إلا في الخفاء فينبغي على المخابرات إيجاد أساليب سرية لاكتشافه وبالتالي تحديد طرق مكافحته.

ففي الاتحاد السوفييتي نجد أننا نواجه عدواً قد ارتقى بفن الجاسوسية إلى مستوى لم يسبق له مثيل، في الوقت الذي يعمل فيه على تطوير أساليب نشاطات أخرى ملازمة للجاسوسية كالتخريب والخداع بحيث تحدان من أدوات الهجوم السياسي القوية.

ويواصل الاتحاد السوفييتي بنفس القوة تطوير هذا النوع من الأنشطة في ظل كافة الشعارات السياسية المتغيرة سواء كانت ما يسمى بإذابة الجليد أو سياسة التعايش أو الأزمات الحادة. وتلعب مخابراتنا دوراً كبيراً في الحد من خطورة مثل هذه الأنشطة العدوانية والتي تشكل خطراً مشتركاً لنا ولحلفائنا.

وليس من قبيل الصدفة أن يتم الكشف مؤخراً عن الكثير من حالات التجسس والتخريب السوفييتية في عدد من دول حلف شمال الأطلنطي، أو بالأحرى في العالم بأسره وأن يعرف ما يعرفه السوفييت بالفعل وهو أن دول العالم المفتوح لديها وكالات للاستخبارات المضادة على جانب كبير من التطور كان لها أثر متزايد على مدى السنوات الأخيرة في الكشف عن عمليات التجسس السوفييتية.

ومن الطبيعي أن نهتم بصورة مباشرة بترتيبات إجراءات الأمن الداخلي في بعض الدول التي قد يكون لنا معها أسرار مشتركة مثل دول حلف شمال الأطلنطي، وهي من الدول الحليفة لنا، فإن الضرر الذي يصيبنا من جراء ذلك لا يقل عما إذا كانت قد سرقت من ملفاتنا نحن، ومن هنا ينشأ أهمية التعاون الدولي في مجال عمل المخابرات بحيث يشترك معنا حلفاؤنا وعدد كبير من الدول الصديقة (حلفاء غير رسميين) في وجهة نظرنا تجاه الخطر الشيوعي حيث يساهم الكثير منهم بصورة فعلية في تعزيز قوة دول العالم المفتوح في كافة المجالات ومن بينها مجال المخابرات وذلك

لنكون على علم مسبق بأي هجوم قد يحدث. غير أن بعض حلفائنا ليست لديهم الامكانات الكافية لتنفيذ كل ما يرغبون في تنفيذه ولذلك فهم يتطلعون إلى الولايات المتحدة بوصفها رائدة في مجال المخابرات كما هو حالها في مجالات أخرى كثيرة.

ففي الوقت الذي تكشف فيه مخابراتنا عن المخططات الشيوعية المعادية لنا تنتظر هذه الدول منا أن نساعدها في الكشف عن الأخطاء التي تهدد أمنها وهو الأمر الذي يتفق مع مصالحنا. ومن أبرز المزايا التي تميز بها مؤخراً العمل في المخابرات تزايد التعاون بين وكالات المخابرات الأمريكية ونظيراتها في دول العالم المفتوح والتي تشترك معنا في مواجهة خطر واحد.

غير أنني أعتقد أن هناك سؤالاً هاماً بشأن عمل المخابرات يقلق عدداً كبيراً من الأشخاص، فهم يتساءلون هل من الضروري للولايات المتحدة الدولة صاحبة المثل والتقاليد أن تورط نفسها في مجال الجاسوسية وترسل U-2 لدول أخرى لفض رسائل سرية مدونة بالشيفرة دون علم أصحابها؟ وعلى الرغم من أن أشخاصاً كثيرين يرون ذلك ضرورياً في أوقات الحرب فهم أنفسهم لا يجدون له مبرراً في وقت السلم. هل نحن نقوم بالتجسس على الصديق والعدو معاً؟ وهل نفعل ذلك فقط لأن دولة أخرى أقل التزاماً بالأخلاقيات تقوم بالتجسس علينا؟ ولا أعتقد أن مثل هذه الأسئلة تعد تافهة أو معارضة كما أن إثارتها يعزز موقفنا. فأنا شخصياً لا أجد مبرراً للتجسس على أصدقائنا أو حلفائنا في وقت السلم.

فبالإضافة إلى الالتزامات الاخلاقية هناك وسائل أخرى أكثر أهمية بكثير لاستخدام إمكانات مخابراتنا المحدودة، كذلك هناك طرق أخرى نحصل بها على المعلومات التي نريدها من خلال القنوات الدبلوماسية العادية.

وبالطبع يجب علينا أن نضع في الحسبان حقيقة تاريخية وهي أن هناك دولاً كانت صديقة لنا أصبحت تعد من الأعداء مثل المانيا ـ كما حدث مؤخراً في مناسبتين ـ وايطاليا واليابان ولذلك فإنه من المفيد دائماً أن يكون لدينا «في البنك» مخزون من المعلومات الأساسية عن كافة الدول أغلبه ليس سرياً جداً.

وهنا أسترجع بعض الأيام الأولى أثناء الحرب العالمية الثانية حين وجه نداء عام للشعب مطالباً إياه بتقديم أي صور شخصية متوفرة لديه عن مناطق في العالم وخاصة جزر الباسيفك. لم يكن عندنا وقتئذ معلومات كافية عن شواطىء ونباتات وحيوانات وأماكن كان من المحتمل أن تتوجه قواتنا إليها وترابط بها.

أما جواب السؤال الخاص بحاجتنا للتجسس على الكتلة الشيوعية فهو أننا

لسنا في الحقيقة في «حالة سلم» معهم وذلك منذ أعلنت الشيوعية حربها على نظام حكومتنا وحياتنا. فنحن نواجه مجتمعاً مغلقاً يسوده التآمر ويحكمه رجال البوليس. ولذلك فنحن لن نستطيع أن نحتفظ بمكانتنا سلمياً إذا ما وثق عدونا بأن في إمكانه شن هجوم مفاجىء على دول العالم المفتوح دون أي سابق إنذار في الوقت والمكان اللذين يختارهما.

مهمة جمع المعلومات

تتم عملية جمع المعلومات بطرق عديدة ليست كلها سرية أو غامضة ويتضح هذا بصورة واضحة في عملية جمع الأخبار العلنية والتي تستقي أخبارها من الجرائد والكتب والمجلات الفنية والتقارير الرسمية عن أعمال الحكومة ومن أجهزة الراديو والتليفزيون، أو حتى من رواية أو مسرحية قد تحوي معلومات مفيدة عن حالة الدولة.

وفي الاتحاد السوفييتي يوجد مصدران هامان للأخبار العلنية وهما صحيفتا إزفيستيا وبرافدا والتي يمكن ترجمة معناهما إلى «الأخبار» و«الحقيقة». أما الصحيفة الأولى فهي حكومية والثانية حزبية. كذلك هناك صحف أخرى صغيرة في روسيا.

وقد أدلى شخص يوماً بتعليق ذكي على الصحيفتين قال فيه ان صحيفة إزفيستيا لا تحوي أية أخبار في حين أن البرافدا لا تحوي أية حقائق. وعلى الرغم من صحة هذا القول إلى حد ما فإنه لأمر شيق أن نعلم ما تنشره الصحافة السوفييتية وبالتالي ما تحجم عن نشره، بالإضافة إلى معرفة تفسيرات الحكومة لبعض التطورات التي قد تكون محرجة لها ومع ذلك تضطر إلى نشرها.

ولتوضيح ذلك فلنقارن على سبيل المثال النص الذي نشرته وسائل الاعلام السوفييتية للملاحظات المرتجلة التي أدلى بها خروشوف Khrwshchev ونقارن ذلك بالملاحظات التي قيلت بالفعل. ففي حفل الاستقبال الذي أقيم في السفارة البولندية بموسكو في ١٨ نوفمبر ١٩٥٦ جاء رد خروشوف الشهير للسفراء الغربيين «سوف نقضي عليكم». وعلى الرغم من سماع الكثيرين لهذا الرد إلا أن تقارير الصحافة السوفييتية لم تنقله بنصه.

ومن الواضح أن الصحافة الحكومية من حقها فرض نوع من الرقابة على أقوال رئيس الوزراء السوفييتي خروشوف، ويفترض أن يتم ذلك بموافقته. غير أن قول خروشوف ترتب عليه فيما بعد ردود فعل معينة ولذلك اضطر إلى إعطاء تفسير مطول لجملته تلك حاول فيه تهدئة المشاعر.

ومن الشيق بهذه المناسبة أن نعرف كيف ولماذا يتم تغيير أو تحوير رواية معينة، فذلك لا يقل متعة عن معرفة مضمون الرواية ذاتها الذي يتم تحويره.

فعادة ما تنشر الرواية بمضمون خاص بالصحف المحلية ثم تنشر بمضمون آخر لصحافة الدول الشيوعية الأخرى، وبمفاهيم مختلفة لصحافات الدول الأجنبية المتعددة، على أنه أحياناً ما تدل هذه «القصص الخيالية» التي ترويها النظم الشيوعية لشعوبها على وجود مخاوف جديدة أو نقاط ضعف فيها.

وتقع مهمة جمع هذه المعلومات إلى حد كبير على عاتق وزارة الخارجية الأمريكية تساعدها في ذلك بعض الوزارات الأخرى كل حسب احتياجاتها.

وتشارك وكالة المخابرات المركزية CIA في عمليات جمع المعلومات وتتبعها وترجمتها، غير أنها تهتم أساساً بناتج المعلومات التي تجمعها المصادر المختلفة. وبالطبع فإن مهمة جمع وتصنيف المعلومات مهمة جسيمة إلا أن العمل يتم توزيعه بشكل منظم بحيث يتساوى الجميع في حمل المسؤولية، ولعل من أهم أجزاء هذا العمل الجزء الخاص بمراقبة إذاعات الدول الأجنبية التي يهمنا جمع المعلومات عنها، ومن أهمها بالطبع إذاعات دول الستائر الحديدية مثل إذاعات موسكو وبكين اللتين تتناثر من إذاعاتهما ملايين الكلمات يومياً بعضها موجه للمستمعين المحليين والبعض الآخر لدول أجنبية. ويستلزم هذا العمل التدريب الجيد لاعداد كبيرة من الموظفين حتى يمكنهم اكتشاف حبة القمح الصالحة من بين جبال من القش. فعلى سبيل المثال في أواخر عام ١٩٦١ تم إعلامنا بعزم السوفييت على مواصلة اختباراتهم الذرية وذلك قبل ساعات قليلة من قيامهم بذلك.

فقد تمكنت احدى العاملات في قسم الاستماع في احدى المناطق النائية من التقاط خبر صحفي مبهم أرسله راديو موسكو لإحدى الصحف الاقليمية لنشره. بعد ذلك قامت الموظفة بتحليله بصورة صحيحة ثم أرسلته على الفور لواشنطن، نجحت هذه السيدة بيقظتها وفطنتها في استخراج معلومة على جانب كبير من الأهمية من شلالات المعلومات التي لا قيمة لها والتي تضطر إلى الاستماع إليها يومياً بحكم عملها.

أما في الدول المفتوحة حيث توجد صحافة حرة لا تتدخل الحكومة فيما تنشره سواء كانت أخباراً سياسية أو علمية، في مثل هذه الدول يصبح لعملية جمع

المعلومات العلنية قيمة خاصة كما أنها تساعد مخابراتنا بصورة مباشرة على اعداد تقديراتها. وبما أن الولايات المتحدة من هذا النوع من الدول فهي عرضة لجمع الأخبار عنها بهذه الوسيلة.

ولذلك فإن بعض أهم المعلومات التي يجمعها السوفييت عنا يستقونها من مجلاتنا وخاصة من الصحف والدوريات الفنية والعلمية ومن المنشورات التي تحوي الأحاديث التي تجري في الكونجرس وغيرها.

ويعتمد السوفييت في ذلك غالباً على موظفي بعثات الأقمار الصناعية الدبلوماسية في واشنطن. وفي الواقع لا توجد أي صعوبة في تجميع المعلومات في هذه الحالة ولذلك فإن السوفييت يوفرون وقتهم وجهدهم للعمليات الشاقة تاركين هذه المهمة لعملاء بولنديين أو تشيكيين خاصة وأنهم أقل إثارة للشكوك من العملاء الروس.

ويتم استقاء المعلومات كذلك بطريقة أخرى شائعة وإن لم تكن علنية بالمعنى الذي تحدثنا عنه من قبل وهي طريقة التبادلات الدبلوماسية. فمن المؤكد أن النجاح في مثل هذه المفاوضات الدبلوماسية يحتاج إلى قدر من السرية.

ويتم تحويل المعلومات بعد الحصول عليها بهذه الوسيلة إلى وكالة المخابرات لإعداد تقاريرها، مثل هذه النوعية من المعلومات قد تحتوي على حقائق أو إشارات ذات أهمية خاصة إذا ما اقترنت بمعلومات من مصادر أخرى.

فعلى سبيل المثال إذا تردد وزير خارجية دولة ما في قبول عرض للولايات المتحدة يوم الاثنين فإن ذلك يعني أنه سيرى السوفييت يوم الثلاثاء، ولذا فهو يأمل في الحصول منهم على عرض أفضل في وقت لاحق، ومن مصدر آخر قد تصلنا معلومات عن العرض السوفييتي، وبالطبع فإن الخبرين مقترنين أكثر أهمية من كل منهما بمفرده.

يبذل القائمون بجمع المعلومات العلنية جهوداً كبيرة وواسعة، فهم يحاولون عدم إغفال أي شخص متاح يمكن أن يكون ذا قيمة، ولكن في نفس الوقت قد تكون الحكومة في حاجة عاجلة لمعلومات هامة لا يأتي ذكرها في المواضيع التي يستقون منها معلوماتهم، أو قد تكون هذه المواضيع غير شاملة ينقصها الكثير من المعلومات الهامة، كما أنها قد تكون من مصادر غير موثوق بها، وبالطبع فإن هذا الوضع غالباً ما يكون في المجتمعات المتخلفة، فنحن على سبيل المثال لا يمكننا الاعتماد فيما نريد من معلومات على ما ينشره السوفييت سواء عن عمد أو غير قصد، فهم لا ينشرون سوى ما يريدون لنا أن نعرف فقط.

كذلك الحال عندما تنشر الحكومة معلومات رسمية، لا يمكن دائماً الوثوق بها. فهي قد تنشر إحصاءات تشير إلى النجاح الكبير الذي حققته الخطة الخمسية في الوقت الذي تثبت فيه مخابراتنا الاقتصادية استناداً إلى معلومات من مصادر داخلية أن الخطة قد فشلت في بعض المجالات وأن الاحصاءات التي أعلنتها الحكومة لا تعبّر بصدق عن حقيقة الأمر. كذلك قد يعمد الشيوعيون إلى تزييف اللقطات الفوتوغرافية (الصور).

وكما أنه من السهل جمع المعلومات العلنية فإنه من السهل أيضاً إشاعة الأكاذيب والخداع خلالها. ولذلك فإن جمع المعلومات بالوسائل السرية (أو التجسس) أمر أساسي لا غنى عنه في عمل المخابرات.

يعمل الجمع السري للمعلومات أساساً على التغلب على عقبات معينة للوصول إلى أهداف محددة. ونحن من جانبنا نختار الهدف والخصم يضع العقبات والعراقيل، وغالباً ما يكون الخصم مدركاً لأكثر الأهداف أهمية لنا فهو يحيطها بحواجز. خاصة لا يمكن تخطيها بسهولة. فعلى سبيل المثال عندما بدأ السوفييت في اختبار صواريخهم اختاروا قواعد إطلاق في مناطق خربة نائية جداً لا يمكن الوصول إليها.

وتزداد العقبات والحواجز كلما ازدادت قبضة الحكومة إحكاماً على شعبها. ومن هنا يتضح أن المخابرات الأمريكية عليها في العصر الحالي أن تبذل جهوداً خارقة لتصل إلى نوايا وقدرات دولة تحيط نفسها بسياج من السرية والتضليل والخداع، دولة تخفي منشآتها العسكرية الهامة على بعد آلاف الأميال من الطرق المأهولة الصالحة للاستعمال.

وتعتمد المعلومات السرية في جمعها على الأشخاص كـ «عملاء» و«مصادر» و «مبلغين». كما أنها تعتمد كذلك على الأجهزة، فهناك اليوم أجهزة يمكنها أن تقوم بما لا يقدر عليه أي إنسان وأن ترى أشياء لا يستطيع رؤيتها.

وبما أن الخصم سيحاول بالتأكيد القضاء على هذا الجهد إذا تبين مصدره لذا فنحن نتحدث عنه باسم الجمع السري للمعلومات والذي يطلق عليه الكلمة الشائعة بـ «الجاسوسية».

يكمن جوهر الجاسوسية في مبدأ الاقتراب، إذ يتعين على شخص معين أو جهاز ما أن يقترب بصورة وبثقة من شيء ما أو مكان ما أو شخص ما لمراقبة واكتشاف الحقائق المطلوبة دون إثارة اهتمام القائمين على حماية هذا الشيء أو المكان أو الشخص.

بعد ذلك يجب إرسال المعلومات لطالبيها بالسرعة القصوى إذ انها قد تفقد قيمتها بمرور الوقت، كذلك يجب إرسالها بوسيلة مضمونة حتى لا تفقد أو يلتقطها أحد أثناء الإرسال.

وبتعريف مبسط يمكننا القول ان الجاسوسية ما هي سوى استكشاف لشيء في الخفاء، ففي بعض الأحيان يكون كل هدفنا أن نلقي نظرة على هدف ما، يذهب العميل إلى هذا الهدف ويلقي عليه نظرة فاحصة يعود بعدها ليكتب تقريراً بما شاهد. وعادة ما يكون الهدف كبير الحجم ويمكن بسهولة الاحتفاظ بصورته في الذهن، مثل تشكيلات القوات أو حصن أو مطار جوي. وقد يتاح للعميل كذلك فرصة دخول منشأة مغلقة ورؤيتها من الداخل وربما سرقة بعض الوثائق والفرار بها.

على أية حال فإن مدة عمل العميل تكون محدودة إذ انــه من الصعب استمرار العميل في مهمته لمدة طويلة خاصة عندما يكون وجوده سرياً وغير قانوني.

غير أن هذا الأسلوب في التجسس لم يعد اليوم كافياً لا بسبب صعوبة اختراق الحواجز والعراقيل بل لأنه غالباً ما يكون الشخص المدرب لتخطي هذه الحواجز على درجة غير عالية من المعرفة الفنية (التقنية) التي تمكنه من كتابة تقارير ذات قيمة حول الأهداف المعقدة الموجودة هذه الأيام، فمثلاً إذا كنت لا تعرف أي شيء عن المفاعلات النووية فمن الصعب إذن أن تكتشف شيئاً عنها حتى ولو كنت واقفاً أمام واحد منها.

وحتى في حالة وجود الشخص الذي يكون على درجة عالية من المعرفة الفنية فإن مجرد اقترابه من الهدف لم يعد كافياً لتلبية متطلبات المخابرات اليوم، فهو يحتاج لإجراء فحص دقيق لمعرفة طريقة عمل المفاعل.

لهذا فإنه من غير الواقعي أن نعتقد أن السياح الأمريكيين أو الغربيين في الاتحاد السوفييتي يمكن أن تكون لهم فائدة كبيرة في مجال جمع المعلومات، إلا أن السوفييت يقومون من وقت لآخر من باب الدعاية بالقبض على بعض السياح كي يعطوا العالم كله انطباعاً بأن المخابرات الأمريكية تبذل جهوداً كبيرة لاستغلال السائح.

ثم تأتي مرحلة ذات قيمة أكبر وتحتاج لوقت أطول وهي مرحلة الاختراق أي العمل بطريقة ما للتمكن من النفاذ إلى داخل الهدف والبقاء هناك.

ومن طرق تنفيذ ذلك أن يدس العميل نفسه بطريق الحيلة في مكاتب أو دوائر الصفوة في دولة ما، من هنا يتمكن من الوصول إلى المعلومات المطلوبة عن طريق أشخاص يثقـون به غير مدركين لحقيقة دوره، وتعرف هذه العملية بالعامية باسم

«الزرع» وهي واحدة من أقدم وسائل التجسس، وتعد حالة ادوارد بانكروفت سكرتير بن فرانكلين والتي ذكرتها في فصل سابق أحد الأمثلة على «زرع عميل».

وتعتمد عملية الاختراق هذه على إظهار قناع خارجي من الولاء إذ ان ذلك لا يمكن اختباره وكشفه بسهولة خاصة عندما يكون للخصوم لغة وخلفية مشتركة، غير أنه اليوم عندما أصبحت الحدود التي تفصل بين الدول والايديولوجيات أكثر وضوحاً أصبح من الصعب التظاهر بالولاء لمدة طويلة وخاصة في وجود وسائل مراقبة دقيقة.

ورغم ذلك لا يزال من الممكن اتباع هذه الوسيلة، ومن أشهر عمليات التجسس السوفييتية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية تلك التي قامت بها احدى شبكات التجسس في الشرق الأقصى حيث قام ريتشارد سورج وهو ألماني الجنسية كان يعمل مراسلاً لصحيفة فرانكفورتر زيتانج في طوكيو بتركيز كل جهوده في زرع بعض أبناء بلده في السفارة الألمانية بطوكيو، كما أنه نجح في أن يحصل لنفسه على وظيفة في القسم الصحفي بالسفارة. لم يكن كل ذلك بمثابة ستار لعمله السري مع عملاء يابانيين فحسب بل مكنه منصبه كذلك من الاطلاع مباشرة على معلومات داخلية عن إدارة النازية للحرب بالإضافة إلى معلومات عن علاقاتهم مع اليابان.

ولتحقيق ذلك كان على سورج أن يلعب دور النازي المخلص والذي مثله بإتقان رغم حقده على النازية، فقد كان رئيس الجستابو بالسفارة والسفير وجميع ملحقي السفارة أصدقاء له.

ولو كان البوليس السري في برلين قد فحص ماضي سورج كما فعل عندما كشف اليابانيون أمره عام ١٩٤١ لاكتشفوا أنه كان عميلاً شيوعياً وأحد مثيري الشغب خلال فترة العشرينات في ألمانيا كما أنه قضى بضع سنوات في موسكو.

وبعد ذلك بفترة قصيرة انتقل نشاط الجاسوسية السوفييتية إلى الغرب. فعقب انتهاء الحرب قبض على عدد منهم مثل برونو بونتكورفو وكلاوس فوتش، وفي عدد من هذه الحالات كانت ملفات المخابرات الغربية تحوي معلومات عن وجود نشاطات شيوعية سابقة لتلك الشخصيات التي كانت تشغل مناصب قيادية في الغرب. ورغم ذلك لم يكتشف أمرهم إلا في وقت متأخر، ويرجع ذلك إلى كثرة تنقل الأشخاص مثل فوتش وبونتكورفو وهم علماء للطبيعة من دولة إلى أخرى من دول الحلفاء، فكانا يقضيان عاماً في بريطانيا وآخر في كندا وآخر في الولايات المتحدة. كذلك كان للعمل تحت ضغوط كبيرة في المعامل العلمية لدول الحلفاء أثره إذ ان الدولة كانت أحياناً تقبل تعيين موظف يحمل أوراق اعتماده وموفد من قبل دولة أخرى من الحلفاء دون التدقيق في حالته اعتماداً على أن الدولة السابقة قد فحصت أمره بدقة.

وحتى في بعض الأحيان عندما كان يتم فحص سجلات هؤلاء الموظفين واستعراض ما بها من معلومات ـ خاصة إذا كان للموظف أصل نازي ـ لم تكن هذه المعلومات تؤثر بصورة كبيرة في وقت كانت فيه روسيا حليفتنا وهتلر هو عدونا، وكذلك لأن الحرب في ذلك الوقت كانت تتطلب الخدمات الفنية للعلماء الموهوبين بجميع جنسياتهم.

غير أن الدرس الذي وعتـه من هذه الأخطار والتقصير الذي وقعوا فيه خلال سنوات الحرب يجب ألا ينسى بسهولة فلا يوجد مجال الآن لظهور أشخاص آخرين أمثال فونش وبونتكورفو.

فاليوم يخضع الأشخاص الذين يسعون للعمل في مراكز حساسة في الحكومة الأمريكية أو في المنشآت الفنية إلى فحوص وتحقيقات شاملة ودقيقة جداً. وتبعاً لذلك فإن أي عميل يتم زرعه في العصر الحالي يجب أن يعتمد على شيء أقوى من قدراته التمثيلية.

فأجهزة الفحص المتطورة التي يستخدمها الأمن حالياً يمكنها ان تؤدي إلى فشل مهمته إذا اكتشفت أنه كان في يوم من الأيام يعمل أي شيء غير الذي ذكر عن نفسه، فالطريقة الوحيدة اليوم لزرع عميل في دوائر معادية لمدة طويلة هي وضع تكوين شامل له.

ويلزم لذلك سنوات طويلة لتدريب العميل وإخفاء ماضيه ودفنه تحت طبقات من التاريخ الشخصي المزور ودعمها قدر الامكان.

فمثلاً إذا كنت قد ولدت في فنلندا ولكن يفترض أنك ولدت في ميونيخ بألمانيا، فيلزمك إذن وثائق تثبت ذلك ويجب عليك أن تتصرف كشخص ولد وعاش هناك. كذلك يجب عمل الترتيبات اللازمة في ميونيخ لتأكيد ذلك في حالة حدوث أي تحقيق حول هذا الشأن، وربما يكون لاختيار ميونيخ أو أي دولة أخرى ذات ظروف متشابهة دلالة معينة، إذ ان بعض سجلات ميونيخ قد فقدت بعد أن قصفت المدينة بالقنابل.

ويعرف هذا الشخص الذي يتم وضع تاريخ كامل له باسمه غير القانوني أو غير الشرعي «Illegal» وسأذكر لكم المزيد عن ذلك فيما بعد.

وبالطبع فإن وكالة المخابرات لن تكلف نفسها كل هذا العناء إلا إذا كانت تنوي تثبيت جذور عميل لها لفترة طويلة من الزمن.

تلجأ المخابرات إلى تجنيد أحد الأشخاص القريبين من الهدف، عندما تفشل في زرع أحد عملائها وخاصة إذا كان الهدف على درجة عالية من الحساسية. فقد

يكون هذا الشخص ممن يعملون داخل الهدف ولا يلزم أن يكون عمله في المجال الذي نريد معلومات عنه بالضبط. وقد يكون شخصاً ما زال مبتدئاً في مهنة ما ستؤدي به في النهاية إلى العمل داخل الهدف نفسه، غير أن أهم شيء هو أن يكون هذا الشخص مؤهلاً لهذا العمل بحيث يكون كما نقول «في مكانه المناسب»، إلى هذا النوع كان ينتمي واحد من أفضل عملائي أثناء الحرب العالمية الثانية وسيأتي ذكره فيما بعد، فعندما بدأت أول اتصال لي مع هذا الشخص كان يعمل بالفعل في وزارة الخارجية الألمانية في منصب يتيح له الاتصال بكافة المكاتب الدبلوماسية الألمانية في مختلف أنحاء العالم. كان يعمل في المكان المناسب تماماً. ولم يكن هناك أي دبلوماسي في الخارج بلغ منصبه ليضع يده على هذا الكم الهائل من المعلومات كمثل هذا الشخص الذي أتاح له منصبه الاطلاع على كافة الملفات الهامة في وزارة الخارجية.

فحتى لو كنا قضينا سنوات طوال في تخطيط دقيق وتدريب شاق لأحد عملائنا ليتظاهر بالولاء للنازية ما تمكنا بدون قدر كبير من الحظ من إدخاله إلى هذا الهدف وتعيينه في هذا المنصب بالذات.

وتتميز هذه الطريقة رغم الأخطاء الجسيمة التي تصاحبها بأنها تتيح لجهاز المخابرات فرصة حصر كل جهده في المنشأة التي يرغب في اختراقها وفي فحصها جيداً وتحليل أكثر مواطنها أهمية وأكثرها ضعفاً، ثم يأتي بعد ذلك دور البحث عن شخص من داخل الهدف يكون لديه الاستعداد للتعاون مع المخابرات. فالمخابرات في هذه الحالة لا تبدأ بالشخص أو العميل كما في حالة «الزرع» ثم تأمل في إيجاد وسيلة لزرعه داخل الهدف.

وقد تمت في السنوات الأخيرة معظم حالات التجسس السوفييتية الشهيرة في الدول الغربية وفقاً لهذه الطريقة حيث كان يتم تجنيد شخص يعمل بالفعل داخل الهدف.

ففي أثناء الحرب العالمية الثانية لم يكن دافيد جرينجلاس في مدينة لوس انجيليس الأمريكية سوى صائغ للوثائق وغيرها ومع ذلك فقد أتاحت له وظيفته الاطلاع على تفاصيل اسرار التكوين الداخلي للقنبلة الذرية. وجوديث كوبلون وهي موظفة عينت بعد الحرب بفترة قصيرة في أحد أقسام وزارة العدل حيث كان يتم تسجيل العلماء الأجانب في الولايات المتحدة حيث أتاح لها عملها أن ترى وتنسخ باستمرار للسوفييت تقارير الـ FBI، التي تحتوي على تحقيقات عن الجاسوسية في الولايات المتحدة.

كذلك كان حال كل من هاري هوجتن وجوت فاسال وهما موظفان صغيران عينا في أواخر الخمسينات في إدارة البحرية البريطانية للقيام بأعمال إدارية ولكن تمكنا على الرغم من ذلك في الحصول على وثائق فنية على درجة بالغة من الحساسية، والفريد فرنزل وهو من ألمانيا الغربية تمكن من الاطلاع على بعض وثائق حلف شمال الأطلنطي كان قد تم توزيعها على لجنة الدفاع التابعة للبرلمان في ألمانيا الغربية تلك اللجنة التي كان يعمل بها في منتصف الخمسينات.

وأخيراً ارفين سكاربك الذي لم يكن سوى موظف إداري في سفارتنا في وارسو في عامي ٦٠، ٦١ حتى تعرفت عليه فتاة بولندية وجندته لحساب المخابرات البولندية التي كانت تعمل تحت الاشراف السوفيتي.

وقد تمكن سكاربك من الحصول على بعض التقارير السرية التي كان السفير الأمريكي يرسلها إلى وزارة الخارجية حول الموقف السياسي في أوروبا الشرقية. كل هؤلاء الأشخاص كانوا يعملون في وظائف جعلتهم مثار اهتمام الشيوعيين وبالتالي لجأوا إلى تجنيدهم. كما أن بعضاً منهم قد ترقى فيما بعد إلى وظائف زادت من قيمتهم لدى السوفييت، وفي بعض الأحيان يكون للسوفييت يد خفية في إرشاد العملاء تجاه هذه الوظائف.

فمثلاً في حالة هوستون وفاسال، كان قد تم تجنيدهما بالفعل أثناء تواجدهما في السفارة البريطانية في الاتحاد السوفييتي، وعندما عادا إلى بريطانيا وعملا في إدارة البحرية البريطانية أتاح ذلك لهما الحصول على وثائق هامة.

كذلك كان الحال بالنسبة لسكاربك، فلو لم تؤد جهود الاستخبارات المضادة في الكشف عنه أثناء توليه لمنصبه في وارسو لكان قد استمر لسنوات طوال ينقل الأخبار الهامة للسوفييت، إذ انه كان يتم تعيينه في الوظائف الدبلوماسية الأمريكية الواحدة تلو الأخرى، وكان الاتحادالسوفييتي قد شن حملة دعائية كبيرة عن اكتشاف عميل «من الداخل» يعمل لحساب المخابرات الغربية والذي كان ـ باعترافهم ـ بحكم منصبه يطلع على معلومات ذات قيمة كبيرة، وهذا العميل هو الكولونيل أولج بنكوفسكي الذي حوكم وأعدم بهذه التهمة، وقد استمرت محاكمة بنكوفسكي ومعه شخص آخر انجليزي هو جريفيل وين، اسبوعاً واحداً فقط في أوائل مايو ١٩٦٣، وليس واضحاً تماماً حتى الآن لماذا اختار السوفييت هذه الحالة بالذات لإجراء محاكمة صورية لها رغم أنه كان في مقدورهم إبقاء الأمر كله طي الكتمان.

وكان من الواضح من خلال الأدلة التي سمح السوفييت بإعلانها في المحاكمة أن عدداً من وكالات المخابرات في الدول الغربية قد نجح منذ سنوات قليلة في تجنيد

الكولونيل السوفييتي الذي كان يشغل منصباً هاماً في الوحدات الفنية والعسكرية في الجيش الاحمر. وكان الكولونيل محل ثقة السوفييت إلى حد كبير فكان يسمح له بالسفر لحضور مؤتمرات دولية كثيرة في أوروبا الغربية حيث كان يتم الاتصال به هناك. ويزعم السوفييت أن الكولونيل قد تعرض لإغراءات مادية كالخمر والنساء في ملاهي الغناء المتوافرة في الغرب، ويعد هذا تبريراً طبيعياً من جانب السوفييت يلجأون إليه لإخفاء حقيقة دوافع ونشاطات الكولونيل التي لا يريدون الاعتراف بها.

غير انهم اغفلوا أن الكولونيل لم يكن شاباً مغامراً يخضع لإغراءات مادية بل كان ضابطاً ذا رتبة كبيرة وخبرة طويلة.

ومن المؤكد أن هذه القضية تحتوي على أشياء كثيرة خفية لم تظهرها المحاكمة والدعاية المصاحبة لها.

وقد أصاب السوفييت هزة عنيفة من جراء فقدان ضابط كبير مثل بنكوفسكي لإيمانه بالنظام الذي يعمل تبعاً له. غير أنه أياً كانت الدوافع فإن هذه الحالة تعد نموذجاً لأسلوب التجسس المتبع حالياً.

فقد كانت ظروف بنكوفسكي تتيح له أن يصبح عميلاً جيداً فلم يكن لأي عميل يتم زرعه في نفس المكان أن يؤدي المهمة بنفس الدرجة، كان كل دورنا أن نكتشفه ونتصل به ونحاول إقناعه بأن في إمكانه أن يسهم بخدمات ذات قيمة لقضية يؤمن بها.

ومن الواضح أن وسائل جمع المعلومات العلنية والسرية ليست كافية تماماً في العصر الحالي لسد كافة احتياجتنا، لذلك فهناك وسائل أخرى بعضها يعتمد أساساً على الاستفادة من التقدم الكبير في مجال العلوم والتكنولوجيا بالإضافة إلى الاعتماد على المعلومات التي ينقلها عدد كبير من «المتطوعين» الأمر الذي سأحدثكم عنه فيما بعد.

وفي بعض الأحيان تحتاج المخابرات لشخص ذي مواصفات معينة، مثلاً أن يكون يتكلم اللغة السواحلية والعربية، حاصلاً على درجة علمية في الهندسة الكيميائية، غير متزوج، تجاوز الخامسة والثلاثين ولا يزيد طوله على ٥,٨ قدم، في هذه الحالة تضغط على زر في جهاز معين كتلك الأجهزة المستخدمة عادة في مكاتب شؤون الأفراد وفي أقل من ٤٠ ثانية يأتي رد الجهاز ما إذا كان هذا الشخص موجوداً أم لا.

وفي حالة وجوده يقدم الجهاز سجلاً كاملاً لكافة تفاصيل حياته، وتستخدم

المخابرات أجهزة أخرى مشابهة لتصنيف وتجميع المعلومات. وهذا يعني أن عمل المخابرات اليوم يتطلب بالإضافة إلى المحللين والمقيّمين أشخاصاً آخرين مدربين على «تجميع المعلومات» وكذلك متخصصون في تشغيل أجهزة الكومبيوتر وغيرها من أجهزة «التفكير» المعقدة.

وفي الواقع أن هذه الأجهزة لا تحسن من طبيعة الخبر، فذلك سيظل دائماً يعتمد على المصدر الموثوق به ومهارة المحلل، غير أن الأجهزة تعمل بسرعة ودقة على انتقاء معلومات قديمة من مخزون المعلومات الهائل تكون ضرورية لتقييم معلومات أخرى حديثة.

فقد كان هذا العمل الذي تنجزه الآلة في دقائق يستغرق من المحلل أسابيع من البحث والدراسة في الملفات القديمة. غير أن هذا ما هو إلا إجراء عادي بالمقارنة بما يمكن للتكنولوجيا أن تفعله اليوم في مجال تجميع المعلومات نفسه.

وأنا هنا لا أتحدث عن أجهزة الكومبيوتر أو غيرها من الأجهزة المستخدمة في مجال الأعمال بل عن نوع خاص من الأجهزة تم تطويره لمراقبة وتسجيل الأحداث، فهو إلى حد ما يحل محل اليد والعين البشرية كما أنه يستخدم في تلك المناطق التي تعجز القدرات البشرية عن الوصول إليها.

وقد كان لزيادة عدد الأهداف ذات الطبيعة الفنية في وقتنا المعاصر أثره في الحث على اختراع أجهزة مضادة لمراقبتها. فعلى سبيل المثال إذا كان أحد الأهداف يصدر صوتاً ما فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو اختراع جهاز سمعي على جانب كبير من الحساسية لمراقبته.

أما إذا كان الهدف يصدر موجات اصطدامية في الأرض فهنا ينبغي استخدام جهاز خاص باكتشاف وتسجيل الهزات. كذلك كان لحاجتنا إلى مراقبة وقياس آثار تجاربنا في مجال الأسلحة والصواريخ النووية أثره في التعجيل بتطوير أجهزة معينة يمكن بإضفاء بعض التعديلات عليها استخدامها أيضاً في مراقبة تجارب دول أخرى.

ولعل من أهم الأجهزة الفنية في مجال المخابرات جهاز الرادار وجهاز التصوير الدقيق الذي يبين مسافة الشيء.

ومن بين الأجهزة المستخدمة كذلك جهاز لتجميع وتحليل عينات من الهواء لاكتشاف ما إذا كان هناك نشاط إشعاعي في الجو أم لا، ولا تحتاج هذه العملية إلى اختراق الحدود الاقليمية للخصم لتجميع عينات الهواء إذ ان ذرات الاشعاع تنتقل عبر الحدود بفعل الرياح.

ففي عام ١٩٤٨ وضعت الحكومة خطة لمراقبة الجو بصورة مستمرة بالطائرات لاكتشاف أي أثر يدل على إجراء تجارب بالأسلحة النووية، وقد تم بتلك الوسيلة في سبتمبر ١٩٤٩ اكتشاف أول دليل على قيام السوفييت بإجراء تفجير ذري في المنطقة الآسيوية وذلك ادهش العالم والعلماء الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعتقدون بناء على الأدلة المتاحة أن السوفييت لن يتمكنوا من صناعة القنبلة قبل سنوات، وأدى تطور أجهزتنا بعد ذلك إلى الكشف أيضاً عن قوة ونوع المادة أو السلاح المفجر.

وكما هو متوقع أدت هذه التطورات في الأجهزة ومعرفة الخصم أن اختباراته مراقبة إلى قيامه باتخاذ إجراءات مضادة ذات طبيعة فنية عالية.

فمن الممكن الآن «تغليف» الانفجارات الذرية سواء تحت الأرض أو في الهواء الطلق حتى لا يتم بسهولة كشف خصائصها مثل حجمها ونوعها، وبذلك تكون الجولة التالية بالطبع في ملعب الجانب الآخر الذي يريد جمع المعلومات والذي أصبح يتعين على فريقه الفني العمل من أجل إيجاد وسائل للتغلب على الإجراءات المضادة.

وقد شغلت هذه المشكلات المفاوضات المستمرة التي بدأت في السنوات الأخيرة مع السوفييت حول نزع السلاح وفرض الحظر على التجارب النووية، فقد تم خلال هذه المفاوضات الكشف عن الحجم المذهل للأبحاث المعقدة التي نجريها نحن والاتحاد السوفييتي من أجل التغلب على مشكلتي تغليف الانفجارات النووية وكيفية التوصل إلى نوع وقوة المادة التي فجرت حتى مع وجود التغليف.

ولذا تحاول التكنولوجيا الحديثة مراقبة الاختبارات العلمية والعسكرية للدول الأخرى بالتركيز على «الآثار الجانبية» لهذه التجارب.

أما في مجال أبحاث الفضاء فهي تتيح نوعاً آخر من المراقبة، فسفن الفضاء ترسل أثناء طيرانها معلومات عن أدائها وعن أحوال الفضاء الخارجي وما به من أجسام سماوية وذلك عن طريق إرسال إشارات الكترونية أو بواسطة مقياس البعد، وبالطبع ترسل هذه الاشارات إلى القواعد والمحطات التابعة للدولة التي أطلقت السفينة الفضائية.

وفي حالة إرسال هذه المعلومات بأسلوب الرسائل اللاسلكية العادية تستطيع أي دولة باستخدام الجهاز المناسب التقاط هذه الرسائل.

وبالطبع فإن كافة الدول المتنافسة في مجال الفضاء ستلجأ إلى التقاط هذه الرسائل لمحاولة معرفة حقيقة التجربة التي يقوم بها الخصم ومدى نجاحها. وتعد العقبة الوحيدة بالنسبة لهذا الأسلوب هي تفسير الاشارات بصورة صحيحة، وبعد

ففي عام ١٩٤٨ وضعت الحكومة خطة لمراقبة الجو بصورة مستمرة بالطائرات لاكتشاف أي أثر يدل على إجراء تجارب بالأسلحة النووية، وقد تم بتلك الوسيلة في سبتمبر ١٩٤٩ اكتشاف أول دليل على قيام السوفييت بإجراء تفجير ذري في المنطقة الآسيوية وذلك ادهش العالم والعلماء الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعتقدون بناء على الأدلة المتاحة أن السوفييت لن يتمكنوا من صناعة القنبلة قبل سنوات، وأدى تطور أجهزتنا بعد ذلك إلى الكشف أيضاً عن قوة ونوع المادة أو السلاح المفجر.

وكما هو متوقع أدت هذه التطورات في الأجهزة ومعرفة الخصم أن اختباراته مراقبة إلى قيامه باتخاذ إجراءات مضادة ذات طبيعة فنية عالية.

فمن الممكن الآن «تغليف» الانفجارات الذرية سواء تحت الأرض أو في الهواء الطلق حتى لا يتم بسهولة كشف خصائصها مثل حجمها ونوعها، وبذلك تكون الجولة التالية بالطبع في ملعب الجانب الآخر الذي يريد جمع المعلومات والذي أصبح يتعين على فريقه الفني العمل من أجل إيجاد وسائل للتغلب على الإجراءات المضادة.

وقد شغلت هذه المشكلات المفاوضات المستمرة التي بدأت في السنوات الأخيرة مع السوفييت حول نزع السلاح وفرض الحظر على التجارب النووية، فقد تم خلال هذه المفاوضات الكشف عن الحجم المذهل للأبحاث المعقدة التي نجريها نحن والاتحاد السوفييتي من أجل التغلب على مشكلتي تغليف الانفجارات النووية وكيفية التوصل إلى نوع وقوة المادة التي فجرت حتى مع وجود التغليف.

ولذا تحاول التكنولوجيا الحديثة مراقبة الاختبارات العلمية والعسكرية للدول الأخرى بالتركيز على «الآثار الجانبية» لهذه التجارب.

أما في مجال أبحاث الفضاء فهي تتيح نوعاً آخر من المراقبة، فسفن الفضاء ترسل أثناء طيرانها معلومات عن أدائها وعن أحوال الفضاء الخارجي وما به من أجسام سماوية وذلك عن طريق إرسال إشارات الكترونية أو بواسطة مقياس البعد، وبالطبع ترسل هذه الاشارات إلى القواعد والمحطات التابعة للدولة التي أطلقت السفينة الفضائية.

وفي حالة إرسال هذه المعلومات بأسلوب الرسائل اللاسلكية العادية تستطيع أي دولة باستخدام الجهاز المناسب التقاط هذه الرسائل.

وبالطبع فإن كافة الدول المتنافسة في مجال الفضاء ستلجأ إلى التقاط هذه الرسائل لمحاولة معرفة حقيقة التجربة التي يقوم بها الخصم ومدى نجاحها. وتعد العقبة الوحيدة بالنسبة لهذا الأسلوب هي تفسير الاشارات بصورة صحيحة، وبعد

كل ذلك هناك أهداف عسكرية وفنية هامة وكثيرة ثابتة لا يصدر عنها أي شيء يكشف عن موقعها أو طبيعة نشاطها حتى يمكن اكتشافه أو مراقبته، ومن أمثلة ذلك المصانع ومناطق بناء السفن والترسانات وقواعد الصواريخ الجاري بناؤها، كلها أشياء لا يصدر عنها أي دليل يمكن التقاطه من على بعد، ولكي يكتشف أحد وجود مثل هذه المنشآت يجب أن يقترب منها أو يطير فوقها مباشرة ولكن من على بعد كبير وتصويرها بكاميرات بعيدة المدى.

وبالطبع كان هذا هو الهدف الرئيسي للـ U-2 والذي يمكنه جمع المعلومات بسرعة ودقة تفوق أي عميل على الأرض، فهو لا يمكن مقارنته في هذا المجال سوى بحالة واحدة وهي الحصول على الوثائق الفنية من المكاتب والمعامل السوفييتية رأساً.

ويعد الـ U-2 مرحلة علامة اكتشاف جديدة وهامة في مجال تجميع المعلومات بصورة علمية.

فقد تحدث عنه توماس س. جيتس الذي كان يعمل وزيراً للدفاع في الولايات المتحدة وقت إطلاق U-2 في ١ مايو ١٩٦٠، تحدث عنه أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ في ٢٦ يونية عام ١٩٦٠ قائلاً انه من خلال رحلات الطيران التي قام بها تمكنـا من الحصول على معلومات عن مطارات جوية وطائرات وصواريخ واختبارات وتدريبات صاروخية وعن مخازن الأسلحة الخاصة وانتاج الغواصات ومصنع الأسلحة الذرية... وكافة أنواع المعلومات الحيوية. وقد أخذنا في الاعتبار هذه المعلومات عند وضع برامجنا العسكرية.

وبعد ذلك بفترة قصيرة كان للطلعات الاستكشافية التي قام بها U-2 من على بعد كبير الفضل في إمدادنا بالدليل القاطع على قيام السوفييت في أواخر أكتوبر ١٩٦٢ ببناء قواعد للصواريخ متوسطة المدى في كوبا، فإذا لم نكن قد اكتشفنا أن ذلك العمل ما زال جارياً في بناء القواعد وقبل إعطائها أي مظهر زائف للتمويه لكان من الممكن أن تظل هذه القواعد سراً يشكل خطراً على أمننا وأمن الدول المحيطة بنا.

وهذه الحالة تعد مثلاً على اقتران الوسائل التقليدية لجمع المعلومات والوسائل العلمية واشتراكهما معاً في الحصول على معلومات قيمة. فقد أرسل لنا عدد من عملائنا ومن اللاجئين في كوبا بمعلومات تفيد بأن هناك بناء يشبه قواعد للصواريخ يتم تشييده في مكان معين في كوبا وقاموا بتحديد هذا المكان لنا، وقد دفعتنا هذه المعلومات إلى الحصول على الدليل بواسطة طلعات الاستكشاف الجوية.

وليس أدل على قيمة استخدام الأساليب العلمية في مجال المخابرات مما قاله

ونستون تشرشل في وصفه للحرب العالمية الثانية، فهو يصف كيف استخدمت بريطانيا الرادار في المعركة التي وقعت هناك في سبتمبر ١٩٤٠ وكيف تمكنت من تغيير وتزييف اشارات تحديد الاتجاهات التي كانت برلين ترسلها لإرشاد الطائرات الألمانية المهاجمة.

ويصف تشرشل الحرب بقوله انها كانت حرباً سحرية، ويختتم قوله بأنه: «لو لم يثبت البريطانيون أنهم أكثر تفوقاً في المجال العلمي من الألمان ولو لم تثبت أجهزتهم ومصادرهم العلمية جدارتها لكان مصيرنا الهزيمة والدمار».

نحن الآن في سباق نتنافس فيه مع المنطق العلمي للكتلة الشيوعية عموماً والاتحاد السوفييتي بشكل خاص ولذلك ينبغي أن نبذل كل الجهد لنظل في موقعنا القيادي في هذا المجال.

المراقبة السمعية

ومن الوسائل الفنية الأخرى التي تخدم مجال التجسس أجهزة الميكروفون والارسال التي يتم إخفاؤها داخل الهدف لتنقل المعلومات الحية إلى موقع إصغاء قريب، وتحتاج هذه العملية التي تعرف في مجال المخابرات باسم المراقبة السمعية إلى وجود جهاز الكتروني صغير الحجم وعلى درجة عالية من الحساسية، بالإضافة إلى إيجاد طرق ذكية لإخفائه، وأخيراً عميل يخترق الهدف ليخفي الجهاز فيه.

ففي يونيو ١٩٦٠ توجه هنري كابوت لودج السفير الأمريكي في موسكو إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك ليضع أمامهم رمز (أو علم) الولايات المتحدة الذي كان معلقاً في مكتبه في موسكو. والذي تمكن السوفييت من إخفاء جهاز دقيق جداً داخله ينقل لهم كل ما يقال داخل مكتب السفير.

وفي الواقع ان إدخال مثل هذا الجهاز لا يعد نصراً كبيراً للسوفييت إذ ان أي سفارة أجنبية في موسكو كانت تستفيد من خدمات عمال محليين مثل الكهربائي وعامل التليفون والسباك وغيرهم. فلم تكن هناك صعوبة ما في إقناع هؤلاء للتعامل مع المخابرات أو في إرسال عميل من المخابرات على أنه أحد هؤلاء الفنيين.

ففي روسيا وغيرها من المدن الكبرى في الدول الشيوعية يتم إخفاء ميكروفونات في غرف معينة في الفنادق وتخصيص هذه الغرف بشكل دائم لبعض الزائرين الأجانب، هذه الميكروفونات يتم وضعها في الغرف بصورة دائمة لتكون الغرف جاهزة فور وصول الزائر.

كذلك تمتلك الحكومة هناك كافة الفنادق، كما أن لها عملاء دائمين من البوليس من بين موظفي الفنادق للتأكد من أن الزائر المناسب قد نزل في الغرفة المناسبة.

عندما توجه اديناور مستشار المانيا الغربية إلى موسكو في زيارته الشهيرة في سبتمبر ١٩٥٥ لبحث استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين توجه في قطار الماني، وعندما وصل إلى موسكو علم السوفييت لخيبة أملهم بأن المستشار الألماني سيقضي فترة إقامته في موسكو في القطار (إذ لم تكن هناك سفارة لألمانيا لينزل بها) ولا يعتزم قبول «الضيافة» السوفييتية والنزول في جناح بأحد الفنادق المخصصة لكبار الزوار في موسكو.

ويقال ان الفنيين الألمان قد قاموا بتجهيز القطار بأجهزة حديثة مضادة للمراقبة السمعية وذلك قبل تحركه من المانيا. ويجب على وكالة المخابرات في أيّ عمل لها خارج حدود بلدها أن تضع في اعتبارها الآثار والمواقف الحرجة التي يمكن أن تنجم عن اكتشاف أي منشأة حكومية قد دُخلت بوسيلة غير قانونية وعبثت بمحتوياتها، وكما هو الحال في كافة عمليات التجسس فإن العقبة تكمن في إيجاد الشخص الذي يمكن أن يقوم بالمهمة والذي لديه دافع سواء كان هذا الدافع الذي يدفعه لتنفيذها وطنياً أو مادياً.

في احدى الحالات تمكن السوفييت من وضع ميكروفونات في أواني الزهور التي كانت تزين مكاتب احدى السفارات الغربية في دولة محايدة.

فقد تمكنوا عن طريق دفع مبلغ ضئيل من المال لحارس المبنى والذي كان يعاني ضعفاً خاصاً تجاه المشروبات الكحولية من دخول السفارة، ولم يعلم الحارس السبب الذي كان يدفعهم إلى استعارة الأواني من وقت لآخر أو الذي كانوا يفعلونه بها. وعلى الأغلب تكون هناك إجراءات مضادة لمواجهة مثل هذه الأجهزة الفنية والتي يمكن بواسطتها اكتشاف الأجهزة وإبطال مفعولها، بل والأكثر من ذلك يمكن أستخدامها ضد الذين وضعوها أنفسهم. وغالباً ما يكون من الأفضل في حالة اكتشاف جهاز من هذا النوع أن يترك في مكانه حتى يغذي الجانب الآخر بمعلومات مزيفة ومضللة.

ويتزايد خوف السوفييت وحلفائهم من عمليات المراقبة السمعية التي تستهدف مكاتبهم الدبلوماسية في الخارج ولذلك فهم غالباً ما يرفضون دخول العمال المحليين إلى مكاتبهم لتركيب أجهزة تليفونات أو حتى أسلاك كهربائية عادية.

وبدلاً من ذلك يقوم الشيوعيون بإرسال عمالهم الفنيين على انهم دبلوماسيون في مهمة قصيرة وفي خلال تلك الفترة يقوم الفنيون بالقيام بالأعمال المطلوبة.

في احدى الحالات، استبد بهم الشك أن احدى سفاراتهم في الخارج قد أحيطت من الداخل بأسلاك لتسهيل عملية التنصت فسارعوا بإرسال فريق من العمال الأجراء إلى الدولة التي تقع فيها السفارة وكانوا جميعاً يحملون جوازات سفر دبلوماسية على أنهم دبلوماسيون. وكم كان مشهداً طريفاً عندما رأت السلطات المحلية لتلك الدولة الدبلوماسيين المزعومين على مدى الأسابيع التالية وهم يلبسون الأوفرول ويحملون المعاول وينهمكون في حفر المكان المحيط بالسفارة بحثاً عن أي أسلاك مدفونة، غير أنهم في النهاية لم يجدوا شيئاً.

نظام الشيفرة

في عام ١٩٢٩ أوقف وزير الخارجية الأمريكي عمل الجهة الوحيدة في ذلك الوقت التي كانت تقوم بحل رموز الشيفرات قائلاً في حديث له انه ليس من الصواب أن نقرأ خطابات بعضنا البعض.

ولكنه اكتشف بعد ذلك بسنوات عندما كان يعمل وزيراً للدفاع في فترة حكم روزفلت، اكتشف الأهمية البالغة لعمل المخابرات والذي يشمل ما نسميه اليوم بـ «مخابرات الاتصالات».

فعندما يتعلق الأمر بمصير دولة وحياة جنودها تصبح قراءة رسائل الغير أمراً ضرورياً إذا ما وقعت في أيدينا.

وبالطبع أنا لا أقصد هنا الرسائل العادية على الرغم من الخدمات القيمة التي تقدمها الرقابة على الرسائل للمخابرات. ولا تستخدم بالرقابة على الرسائل الأساليب الفنية إلا فيما يتعلق بالرسائل المكتوبة بطريقة سرية.

أما في العصر الحالي فإن جهاز مخابرات الاتصال يتبع أساليب فنية متطورة كما أنه يضم نخبة من أفضل العقول الرياضية التي تتبارى فيما بينها في منافسة مستمرة بين القدرات الذهنية، وتبذل كل حكومة جهوداً شاقة لاختراع أنظمة اتصالات لا يمكن اختراقها لحماية هذه الأنظمة والأفراد القائمين بادارتها، وفي نفس الوقت تعمل كل ما في وسعها لتطلع على أنظمة الاتصالات في الحكومات التي يهمها معرفة سياستها وأنشطتها.

والسبب في قيام الجانبين بذلك واضح ومعروف، فإن محتويات الرسائل الحكومية الرسمية سواء كانت عسكرية أو سياسية حول المواضيع ذات الحساسية الخاصة تعد أفضل معلومات تأمل أي حكومة في جمعها عن حكومة أخرى وخاصة في أوقات الحروب والأزمات.

هناك فارق كبير بين المصطلحات التي يستخدمها كل من الهواة والمحترفين في هذا المجال.

فعند كتابة الشيفرة نستعيض بجزء من كلمة أو رمز أو عدة رموز عن كلمة كاملة أو مجموعة كلمات أو ربما عن فكرة بأكملها.

فمثلاً «XLMDP» أو «79648» أي منهما قد يستخدم بدلاً من كلمة «حرب» وذلك على حسب نوع الشيفرة وما إذا كانت حرفية أو رقمية. فعندما أرسلت الحكومة اليابانية شيفرتها الشهيرة «الرياح الشرقية» إلى دبلوماسييها في الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٤١ كانت تخبرهم من خلال هذه الشيفرة الكلامية البسيطة أن هجوماً سيقع في منطقة الباسفيك.

في نظام الشيفرة يتم وضع رمز ـ سواء أكان حرفاً أم رقماً ـ مقابل كل حرف من حروف الكلام، فمثلاً حرف «ب» يمكن أن نرمز له بالرقم «2» أو بالحرف «b». ويتبع هذا الأسلوب في نظام الشيفرة البسيطة حيث يظل نفس الحرف يرمز إليه بنفس الرمز دون تغيير.

أما في ظل نظام الشيفرة المعقدة والذي يستخدم حالياً فإن نفس الرمز قد يستخدم للدلالة على حرف مختلف كل مرة. وقد تمكنت وحدات القوات المسلحة الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى وأحياناً خلال الثانية من استخدام نوع من الشيفرة الطبيعية أو «الجاهزة» في الاتصال فيما بينهـا. كانت هذه الشيفرة هي لغة النافاجو، وهي لغة أمريكية هندية لا توجد لها صيغة مكتوبة ولم يعكف على دراستها أبداً أحـد من الدارسين الأجانب. وبذلك تمكن الجنود من تبادل الاتصالات التليفونية بين أطراف جبهة القتال دون أي خوف. وبالطبع لم يكن أحد من الألمان أو اليابانيين يعرف لغة النافاجو.

ينقسم علم الشيفرة إلى قسمَين، أولاً وضع الشيفرة وحق القسم الخاص باختراع وحماية شيفرة ما للاستخدام الحكومي وثانياً تفسير الشيفرة وهو القسم الذي يعمل على حل رموز الشيفرة وتحويلها إلى حروف عادية.

تستخدم مجالات الدبلوماسية والقوات المسلحة والمخابرات في كل دولة شيفرات سرية في الاتصالات المنتظمة والعاجلة التي تتم عبر مسافات بعيدة. ويتم

الارسال اما عبر الكابلات التجارية أو الراديو أو وفق دوائر خاصة تقيمها الحكومة. ويستطيع أي شخص أن يستمع إلى الرسائل التي ترسل بطريق الراديو، كذلك تستطيع الحكومات وخاصة في وقت الأزمات من الحصول على صور من الرسائل المكتوبة بالشيفرة التي يرسلها الدبلوماسيون الأجانب المقيمون فيها إلى دولهم عبر الكابلات التجارية. فالمشكلة ليست في الحصول على الرسالة ولكن في فك الشيفرة وتفسيرها.

بعض الشيفرات يمكن حلها بإجراء بعض التحليلات الرياضية للطريقة المستخدمة في ارسالها. نوع آخر يمكن حله ببساطة بواسطة اقتناء الكتب التي تحتوي على تفسير لبعض الشيفرات أو تلك التي تتضمن معلومات عن أجهزة الشيفرات التي استخدمها الخصم أو ربما بمزيج من كل هذه الوسائل.

في بداية عملنا في الحقل الدبلوماسي وحتى قيام الحرب العالمية الأولى لم نكن نعطي نظام الشيفرة الاهتمام الكافي مما كان ينتج عنه أحياناً نتائج سيئة، وما زلت أتذكر قصة قيلت لي على سبيل التحذير عندما كنت ما زلت ضابطاً صغيراً.

في عام ١٩١٣ عينت الولايات المتحدة سياسياً قديراً في منصب وزير في بوخارست، وفي ذلك الوقت، كانت أساسيات نظام الشيفرة الذي نتبعه مكتوبة في كتاب خاص سأطلق عليه هنا اسم «الشيفرة القرنفلية» رغم أن هذا لم يكن اللون الذي اخترناه لاسيما في ذلك الوقت وقد قضيت أنا شخصياً آلاف الساعات في قراءة هذا الكتاب وعلى الرغم من أنني لم أره منذ أربعين عاماً غير أنني ما زلت أذكر أنه كانت هناك ست أو سبع كلمات نرمز بها لكلمة «فترة» Period إحداها كانت «PIVIR» والأخرى «VIUAD» ولا أذكر الكلمات الباقية.

فقد كانت نظريتنا في ذلك الوقت ساذجة إذ كنا نعتقد أننا إذا رمزنا للكلمة الواحدة بست أو سبع كلمات فإن العدو سيحتار في تحديد بدايات ونهايات الجمل. على أية حال عندما سافر وزيرنا إلى رومانيا حاملاً معه كتاب «الشيفرة القرنفلية» في ظرف ضخم ومختوم، كان من المفترض أن يضعه فور وصوله في الخزانة إلا أنه أهمل في ذلك ووضعه تحت فراشه وبقي هناك لعدة شهور.

وفي يوم من الأيام اختفى الكتاب وكان النسخة الوحيدة عند الوزير، ومن المعتقد أنه وجد طريقه إلى «بتروجراد». ووجد الوزير الجديد نفسه في مأزق خطير إلا أنه كسياسي وجد حلاً يدل على البراعة.

كانت تلك الرسائل التي ترسل بالشيفرة في تلك الأيام لا تحمل معلومات كبيرة الأهمية، كان أغلبها يدور حول قضية زيادة عدد المهاجرين من رومانيا وبساربيا إلى

الولايات المتحدة، لذلك فعندما اجتمع لدى الوزير عدد من هذه الرسائل استقل القطار المتجه إلى فيينا وتوجه مسرعاً إلى سفيرنا هناك.

وفي سياق الحديث يشير الوزير إلى أنه قد تلقى عدة رسائل مكتوبة بالشيفرة في اللحظة التي كان يستعد فيها للسفر، لذا لم يكن عنده الوقت الكافي لحلها فأحضرها معه وهنا طلب من السفير اعارته نسخته من كتاب الشيفرة القرنفلية.

وبالفعل استعان الوزير بالكتاب في حل الشيفرة، شيفرة الرسائل، وفي إعداد رد مكتوب بنفس الصيغة ثم عاد بعد ذلك إلى بوخارست ليرسل الردود تباعاً ما بين كل رد وآخر فترة معينة من الزمن. مضت الأمور على هذا الحال لبعض الوقت اذ ان السر لم ينكشف حتى أغسطس ١٩١٤ حين تدفق على الوزير سيل من الرسائل من واشنطن بسبب تفاقم الأحداث التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. حقاً لم تعد زيارات الوزير للنمسا كافية وكان عليه أن يذهب لواشنطن ويعترف بما حدث.

أحياناً في غمار الفوضى والأحداث غير المتوقعة التي تحدث في الحروب يتمكن أحد الخصوم من كشف المادة التي يستخدمها الآخر في كتابة شيفرته. فمثلاً قد تضطر دولة ما إلى اخلاء أحد مواقعها في دولة أخرى أو مقرها الرئيسي بسرعة وفي غمار ذلك قد يتركون خلفهم كتباً عن نظام الشيفرة.

وقد أدى وقوع عدة أمثلة على ذلك خلال الحرب العالمية الأولى إلى اطلاع البريطانيين على معلومات قيمة ساعدت في انقاذهم، وهذه المعلومات تدور حول النوايا العسكرية والدبلوماسية للألمان «ماجدبرج»، غير أنهم أنقذوا من بين يد أحد البحارة الغارقين كتاب الشيفرة الخاص بالبحرية الألمانية وأرسلوه على الفور إلى حلفائهم البريطانيين.

وكانت بريطانيا تقوم بعمل الشيء نفسه، ففي عام ١٩١٧ غرقت طائرتان المانيتان أثناء عودتهما من احدى الغارات فوق انجلترا وسقطتا في مياه فرنسا، وكان من بين الأشياء التي أخذت من الطائرتين خرائط وكتب مكتوبة بالشيفرة كانت الغواصات الألمانية تستخدمها في المحيط الأطلنطي. وغالباً ما يدرك العدو أن شيفرته قد كشفت عندما يرى تزايد العمليات العسكرية المبنية على تفسير شيفرته.

فقد لاحظ الألمان التزايد الواضح في عمليات الاستكشافات وفي المآزق التي تتعرض لها غواصاتهم ولم يكن من الصعب ادراك أن أحداً ما يقرأ اتصالاتهم السرية مع أسطولهم.

وعلى الفور تم تغيير كافة الشيفرات.

وغالباً ما تصادفنا مشكلة كيفية التصرف بالمعلومات التي تصلنا بتلك الوسيلة، اما أن نحقق بواسطتها نصراً عسكرياً أو دبلوماسيا سريعاً ولكننا في تلك الحالة نخاطر بمصدر المعلومات لأن هذا النصر قد يضع حداً لعمله القيم أو ننتظر حتى تتراكم المعلومات لتزداد معرفتنا بتحركات الخصم حتى نتمكن في النهاية من الحاق أكبر الأضرار به.

وفي الواقع أنه أياً كانت الوسيلة التي نستخدمها فإننا نحاول دائماً حماية المصدر الحقيقي وذلك بأن نعطي العدو معلومات مزيفة بأن معلوماتنا قد أتت من مصدر آخر.

وفي بعض الأحيان نحجم عن تنفيذ عملية معينة قد تلحق خسائر جسيمة بعدونا ولكنها في نفس الوقت ستنبئهم إلى أن المصدر الوحيد لقيامنا بها هو المعلومات التي عرفناها من خلال قراءتنا لرسائلهم.

بدأت أول عملية جدية لتحليل الشيفرة أثناء الحرب العالمية الأولى وقد حاولنا تجنب اشراك وزارة الحرب (الدفاع). كان القسم الخاص بالشيفرة يعرف رسمياً باسم «قسم ٨ التابع للمخابرات العسكرية»، غير أنهم كانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الغرفة السوداء» وهو الاسم الذي ظلت الفصائل السرية للرقابة البريدية في الدول الأوروبية الكبرى تستخدمه لقرون طويلة.

وقد بدأ العمل في هذا القسم على يد فريق من الهواة النابغين تحت اشراف هيربرت ياردلي وكان من قبل عامل تشغيل تلغراف، إلا أنهم وبحلول ١٩١٨ كانوا قد أصبحوا محترفين من الطراز الأول.

ومن أبرز انجازاتهم بعد الحرب العالمية الأولى حل الشيفرات الدبلوماسية اليابانية، ففي أثناء انعقاد مفاوضات مؤتمر نزع السلاح في واشنطن عام ١٩٢١ كانت الولايات المتحدة ترغب بشدة في الحصول على موافقة اليابانيين على بقاء نسبة البحرية ١٠ إلى ٦، وكان اليابانيون من ناحيتهم يريدون التمسك بنسبة ١٠ إلى ٧. وفي الدبلوماسية ـ تماماً مثل أي صفقة اخرى ـ تكون في موضع متميز جداً إذا اكتشفت أن خصمك ثابت أو أنه سيتراجع إلى موضع ثانوي إذا اقتضى الأمر ذلك.

وخلال تفسير أفراد «الغرفة السوداء» للشيفرة الدبلوماسية اليابانية بين طوكيو وواشنطن اكتشفنا أن اليابانيين على استعداد للموافقة على النسبة التي نريدها نحن إذا ضغطنا وصممنا على موقفنا. ومن هنا تمكنـا من الضغط دون أن يكون هناك أي خوف من فشل المؤتمر في حل هذه القضية.

استمر عمل «الغرفة السوداء» والذي كان يخدم أساساً وزارة الخارجية حتى عام ١٩٢٩ عندما أغلق ستيمسون وزير الخارجية هذا القسم رافضاً أن يستمر في عمله. وقد جاء تفسير ذلك في كتاب كتبه كاتب الوزير الخاص وقال فيه ان ستيمسون كان يتبع مبدأ واحداً في سياسته الخارجية وفي علاقاته الخاصة وهو أنه لكي نجعل الأشخاص أهلاً للثقة يجب أن نثق بهم.

وبناء على ذلك اتخذ قراره الذي جعل شعبه يواجه تحدياً عنيفاً فيما بعد لأنه كان يريد أن يتصرف بأسلوب الجنتلمان مع الأشخاص الذين ترسلهم الدول الأخرى كسفراء ووزراء.

غير أن الجيش والبحرية الأمريكية كانتا لحسن الحظ قد بدأتا في أواخر العشرينات في تركيز اهتمامهما على التغلب على المشكلات التي تواجههما في مجال تحليل الشيفرة.

وكان هناك تركيز خاص على حل الشيفرة اليابانية إذ ان الولايات المتحدة كانت تدرك مسبقاً أن اليابان ستكون خصمها الأقوى في أي حرب قادمة. وبحلول عام ١٩٤١ ـ عام بيرل هاربور ـ تمكن محللو الشيفرة من تفسير أغلب الشيفرات البحرية والدبلوماسية اليابانية الهامة وبالتالي كنا غالباً على علم بالتحركات اليابانية في منطقة الباسيفيك قبل وقوعها.

كانت معركة ميدواي (Midway) التي وقعت في يونيو عام ١٩٤٢ نقطة تحول في الحرب البحرية في منطقة الباسيفيك وقد تمكنا بواسطة حل شيفرة بعض الرسائل من معرفة أن احدى قوات المهمات الكبرى التابعة للبحرية اليابانية ستتجمع في منطقة ميدواي، وبمعرفة حجم وموقع قوات العدو تمكنت قواتنا البحرية من الاستفادة من عنصر المفاجأة.

وقد واجهتنا مشكلة خاصة في السنوات التي أعقبت فترة بيرل هاربور وهي الحفاظ على سرية حقيقة أننا تمكنا من حل الشيفرات اليابانية.

كادت التحقيقات والاتهامات والحاجة إلى ايجاد مصدر لالقاء اللوم عليه بسبب الخسائر التي لحقت بالبحرية الأمريكية، كاد كل ذلك أن يؤدي إلى انكشاف سرنا أمام الشعب واليابانيين. ورغم عدم وجود قوات بحرية كافية لدينا لمواجهة القوات اليابانية فإن أهم نصر حققناه في تلك المعركة هو تمكننا من حل شيفرة الرسائل اليابانية.

في عام ١٩٤٤ تمكن توماس ديوي وكان في ذلك الوقت مرشحاً للرئاسة ضد روزفلت مثله مثل أشخاص كثيرين كانوا على صلة وثيقة بالحكومة الفيدرالية من

معرفة نجاحنا في حل رموز الشيفرة اليابانية وفشلنا في استخدام المعلومات التي عرفناها على أفضل صورة وقد ظهر جلياً في معركتنا في بيرل هاربور. وكان مجرد احتمال استغلال ديوي لهذه المعلومات في حملته الانتخابية يثير ذعر قادة القوات المسلحة، حتى ان القائد العام بنفسه كتب له خطاباً شخصياً ينبئه فيه بأن اليابانيين لا يعلمون بأننا كشفنا رموزهم ويخبره بالفائدة العظيمة التي نجنيها من وراء فك رموز رسائلهم. وبالفعل لم يكشف ديوي عن أيٍ شيء وظل الأمر سراً.

ومن أنجح عمليات فك الشيفرة في مجال مخابرات الاتصالات كان نجاح بريطانيا في حل شيفرة الرسالة المعروفة باسم «زيمرمان» وذلك في عام ١٩١٧ عندما كانت الولايات المتحدة على حافة الحرب العالمية الأولى، فقد تمكن خبراء «الغرفة ٤٠» ـ وهو الاسم الذي كان يطلق على المقر الرئيسي لعمليات تحليل الشيفرة التابع للبحرية البريطانية ـ تمكنوا من القيام بهذا الانجاز الرائع، وكانت الرسالة موجهة من برلين من وزير الخارجية الألماني زيمرمان إلى الوزير الألماني في المكسيك.

وتضمنت الرسالة الخطة الألمانية المقرر اتباعها لمواصلة حرب شاملة للغواصات في أول فبراير ١٩١٧ مع ذكر احتمال أن ينتج عن ذلك دخول الولايات المتحدة في الحرب واقتراح بأن تدخل المكسيك الحرب إلى جانب المانيا وبانتصارها يمكن للمكسيك استعادة السلطة التي فقدتها في تكساس ونيومكسيكو والأريزونا.

وقد ظلت هذه الرسالة في حوزة الادميرال هول القائد الأسطوري للمخابرات البحرية البريطانية لمدة شهر كامل إذ كانت تواجهه مشكلة كيفية ارسال محتوياتها إلى الأمريكيين بوسيلة تقنعهم بجديتها وفي نفس الوقت تخفي عن الألمان أن البريطانيين قد حلوا شيفرتهم.

وفي النهاية دفعت ظروف الحرب اللورد بلفور وزير الخارجية البريطاني إلى إخبار السفير الأمريكي في لندن بمحتويات خطاب زيمرمان بصورة رسمية. وكان لاستخدام هذه الرسالة في واشنطن أصداء كبيرة إذ انها أوجدت مشاكل خطيرة للحكومة، فكيف يمكنها التأكد من صدق الرسالة وكيف يمكن الاعلان عن محتوياتها للشعب دون أن تبدو في نظرهم مجرد حيلة بريطانية ـ أمريكية للزج بالولايات المتحدة في الحرب.

وقد أخبرني عمي فيما بعد وكان وقتها يشغل منصب وزير الخارجية أن الأحداث الهامة التي حدثت في الأيام القليلة التالية جعلت دخول أمريكا الحرب أمراً وشيكاً.

وزاد من تعقيد الموقف أن الألمان أرسلوا هذه الرسالة لسفيرهم في واشنطن

عبر الكابلات الدبلوماسية الأمريكية وقام هو بعد ذلك بارسالها لنظيره في المكسيك. وكان الرئيس ويلسون قد سمح للألمان استخدام خطوط اتصالاتنا في رسائلهم بين أوروبا وأمريكا على أساس أن هذه الرسائل تتضمن مقترحات للسلام الأمر الذي كان ويلسون يسعى لتحقيقه.

ولذلك فقد كانت صدمة الرئيس كذلك كبيرة عندما اكتشف استغلال الألمان لمساعيه الحميدة.

ورغم ذلك فإن هذا الموقف المتداخل كانت له ميزة كبرى، فأولاً كانت لدينا نسخة مفسرة من رسالة زيمرمان التي أرسلتها برلين لسفيرها في واشنطن والتي كان يحملها دون أن يعرف محتوياتها الخطيرة. وبعد اطلاعنا على هذه الرسالة أرسلت مرة أخرى إلى سفارتنا في لندن حيث قام أحد رجال الأدميرال* هول بحضور مندوب من سفارتنا باعادة كتابة الرسالة بصيغة الشيفرة وذلك للتأكد من صحة محتوياتها.

ثانياً، ساعدت رؤية دبلوماسيين المانيين في واشنطن وفي المكسيك للرسالة على حل المشكلة التي كانت تؤرق الأدميرال هول بشأن كيفية خداع الألمان واخفاء المصدر الحقيقي للمعلومات عنهم.

وبالفعل اعتقد الألمان أن الرسالة لا بد أنها تسربت نتيجة لتعرضها للاهمال أو السرقة من أحد مكاتب السفارة الألمانية أو المكاتب المكسيكية التي استلمت نسخاً منها، ولذلك استمر الألمان في استخدام نفس نظام الشيفرة.

وقد قامت الخارجية الأمريكية في ١ مارس ١٩١٧ بنشر محتويات الرسالة عبر وكالة الأسوشيتد برس حيث سقطت المعلومات على الشعب الأمريكي سقوط القنبلة، وفي ابريل أعلنت الولايات المتحدة الحرب على المانيا.

تبدو وسائل ونظم تحليل الشيفرة التي كانت مستخدمة أيام الحرب العالمية الأولى بدائية جداً بالقياس بالوسائل المستخدمة الآن خاصة وأنه كان يتم في إطار الوسائل القديمة تكرار الرموز بصورة واضحة مما يجعلها هدفاً سهلاً، وذلك نظراً إلى وجود كلمة هامة يتم تكرارها على صورة رمز.

ففي حالة رسالة زيمرمان أدرك المحللون أن الرموز الدقيقة «٦٧٨٩٣» تعني المكسيك وقد كانت هذه المجموعة الرمزية تستخدم دائماً للدلالة على هذه الكلمة وفقاً للنظام الألماني.

أما اليوم فإن مجموعة من الرموز مثل هذه لا يمكن أن تستخدم مرتين للدلالة على كلمة واحدة.

ففي الوقت الحالي تتم كافة الاتصالات الحكومية الرسمية بالاضافة إلى الاتصالات بين عملاء المخابرات وفقاً لنظام شيفرة معقد وآمن.

فالعملاء السوفييت مثلاً يستخدمون نظام شيفرة على جانب كبير من التعقيد في ارسال أية معلومات إلى موسكو، ولكن كلما تطورت الأساليب الدفاعية كلما ازداد أيضاً تطور الأساليب المضادة لاختراقها.

استخدام الحرب

لقد ظل الحزب الشيوعي خارج الاتحاد السوفييتي يستخدم على نحو متقطع فقط من قبل الحكومة السوفييتية لأعمال تجسس فعلية. وفي كل مرة يتم فيها القبض على عنصر في الحزب لتورطه في أعمال تجسس فإن هذا يصم الحزب بأنه حزب تنظيم سياسي «مثالي» ووطني ويعرضه لما هو عليه بالفعل كأداة لقوة أجنبية معادية، وعميل متذلل لموسكو.

وحينما تكررت مثل هذه الأحداث في أوروبا في العشرينات لوحظ للمرة الأولى أن هناك انحرافات شديدة في العمل الاستخباري الذي تؤديه الأحزاب الشيوعية المحلية، وعلاوة على هذا فإن قيمة استخدام أفراد غير مدربين تدريباً غير كامل في العمل الاستخباري هي أمر مشكوك فيه حيث إن هؤلاء العملاء الهواة لا يعرضون أنفسهم للخطر فحسب بل وعمليات جهاز المخابرات.

وفي البلدان التي تتسم أحزابها بالتسامح الديني ولكن يصعب فيها تجنيد عملاء مقيمين فإن أجهزة المخابرات السوفييتية تجد طريقها إلى الحزب وهذا ما كان عليه الحال في الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان من أسباب انهيار شبكات التجسس الوطنية التي توغلت بعمق في أوساط الحكومة آنئذ هو أن أفرادها لم يكونوا على المستوى الملائم من التدريب على أعمال التجسس، فالكثير منهم كانت لديهم ميول عقائدية قوية تجاه الشيوعية تكفي لاختيارهم لمثل هذه الأعمال، وفي بعض الأحيان كانت شبكة التجسس تطردهم، وبعضهم مثل ويتكر تشامبرز «Wittaker Chambers» واليزابيث بنتلي «Elizabeth Bentley» ـ حين أصبح العمل بالنسبة لهم كريهاً، تركوه وتطوعوا بإبلاغ ما لديهم من قصص للمخابرات الأمريكية. وقد

سببت هذه المشكلة ازعاجاً للسوفييت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كنتيجة للمعلومات التي كشف عنها ايجور جوزيكو «Igor Gouzekou» موظف السفارة السوفييتية الهارب من أوتاوا، وفي ذلك الوقت أصدرت المخابرات السوفييتية أمراً سرياً إلى ضباطها في الخارج الا يستمروا بالاستعانة بأعضاء الأحزاب الشيوعية بعد ذلك في العمل الاستخباري.

ومع ذلك فإن جهاز الحزب الشيوعي ومنظمات الجبهة الشيوعية قد تكون مفيدة «لرصد» عملاء متمكنين للتجسس، والأدلة المقدمة من المحاكمات الكندية على لسان جوزيكو عرّفت الجمهور لأول مرة على الأساليب المعقدة التي يستخدمها الحزب الشيوعي تحت سهتائر مختلفة، «فجماعات القراءة» و«جماعات الدرس» بالنسبة للأشخاص المهتمين اهتماماً بريئاً بروسيا ـ هذه الجماعات كان يتم تكوينها داخل صناعات الدفاع الكندية بغرض واحد هو رصد التقرب من الأشخاص الذين يمكن استغلالهم بعد حين في الحصول على ما لديهم من معلومات، وكانت المعلومات المطلوبة في ذلك الوقت خاصة بالقنبلة الذرية.

الفخ

والسوفييت يعتمدون في الغالب على مبدأ أنه لكي تحصل على إنسان يؤدي ما تريد حاول أن تلحقه أو توقعه في فخ شيء لا يحب أن يعرفه عنه الناس أو زوجته أو مرؤوسوه أو حكومته، أياً كانت القضية. وإذا لم تفعل الضحية المرتقبة شيئاً فيه تفريط فلا بد من استدراجها إلى ما فيه تفريط على يد أفراد الـ KGB. ومن الحالات السابقة التي ذكرتها تقف حالتا ارفين سكاربيك «Irvin Scarbeck» في بولندا وجون فاسال «John Vassal» في الاتحاد السوفييتي كنموذجين لحالات وقعت في الفخ لأغراض الاستخبارات.

وفي داخل الاتحاد السوفييتي نفسه، حيث السوفييت قادرون على تهيئة المسرح وتوفير التسهيلات والمنزل الأمين والفندق أو النادي الليلي وتوزيع الأوراق على المتمكنين من مثيري ومثيرات التحريض، فإن أساليب الايقاع في الفخ يجري استخدامها على نطاق واسع.

ومن القصص النمطية القذرة لفاسال «Vassal»، موظف البحرية البريطانية الذي تجسس لحساب المخابرات السوفييتية ست سنوات في موسكو ولندن على السواء، ومن واقع خبرتي الخاصة صادفت عشر حالات تتشابه سيناريوهات حياتهم كعملاء إلى درجة التطابق. إذ قام مسؤولو الـ «KGB» الذين عُيّنوا لهذه المهمة بعد دراسة تاريخ حالة فاسال من جميع الزوايا، وتحليل نقاط الضعف فيه ـ بوضع خطة

لادخاله في الاطار المطلوب باستغلال شذوذه الجنسي، والاجراء المعتاد هنا هو دعوة الضحية لما يبدو مناسبة اجتماعية، وهناك يقدم له الاغراء الذي يجعله يستسلم له ويتم تسجيل سلوكه على شريط فيديو أو فيلم ثم يواجه بعد ذلك بهذا الدليل المادي ويحذر من انه إذا لم يعمل لحساب السوفييت فإن الدليل سيقدم إلى رؤسائه وقد دخل فاسال هذا الفخ.

وإذا كان الفرد المستهدف قوي الارادة بحيث يبلغ رؤساءه بالقصة كاملة على الفور فإن المحاولات السوفييتية لتجنيده يمكن أن يتم احباطها مع مخاطر قليلة نسبياً بالنسبة للفرد المقصود ولو كان مقيماً في الاتحاد السوفييتي، وفي بعض الأحيان وبخاصة إذا وقعت الحكاية في بلد حر فإن الرؤساء يرغبون في استغلال الرجل عكسياً ضد الجهاز السوفييتي لنقص الأفراد والأساليب المرتبطة بالعملية. وأحياناً يؤمر الرجل - إذا بدا غير مؤهل لأداء مثل هذا الدور - بالانسلاخ عن مبتزيه بعد ابلاغهم بأنه كشف النقاب عن كل شيء.

وما يدل على أن السوفييت لا يقطعون خط الرجعة في مثل هذه الحالات ما ظهر خلال التحقيقات الرسمية في قضية فاسال، إذ إن نفس العميل السوفييتي الذي عمل في السفارة البريطانية في موسكو كوكيل عام كان قد تمكن في البداية من اجتذاب فاسال إلى فخ الشذوذ الجنسي - قد بذل محاولات في وقت لاحق للقيام من خلال الابتزاز بتجنيد مهندس صيانة في السفارة وكان هذا المهندس قد ارتكب بعض الجرائم في السوق السوداء. وكانت المخابرات السوفييتية تتوقع أن هذا المهندس سيفضل التعاون معها على كشف أمره، ولكن المهندس أبلغ رؤساءه بالأمر فتمت اعادته على الفور من موسكو إلى لندن أما العميل السوفييتي الذي تسبب في كل المشاكل من هذا النوع - ففقد عمله في السفارة البريطانية أخيراً. وبالطبع لم يكن معروفاً في ذلك الوقت أنه المسؤول عن الفخ الذي أدى إلى تجنيد «فاسال».

ومن المثير تماماً أننا تبينا أن بعض العاملين في الـ «KGB» يصابون بالضجر حين يلعبون هذه الأدوار الموكلة اليهم في عمليات التجنيد لدرجة أنهم يتطلعون بشوق أكبر لمخالفتها تماماً ويتركون الخدمة في جهاز المخابرات نفسه تطلعاً لحياة أفضل.

وإن كان الشذوذ قد لعب دوراً بارزاً في أغلب قضايا الفضائح الأخيرة مثل قضية فاسال، فإن الزنا والاباحية هو الرافعة الأكثر اعتياداً، ومع ذلك فإن اجهزة المخابرات السوفييتية وأجهزة المخابرات التابعة لها في البلدان الأخرى قد تعلمت على مدار سنوات أن الابتزاز القائم على التهديد بكشف الأفعال الجنسية غير

المشروعة هي أداة قوية تستخدم مع أناس من جنسيات معينة وليست كذلك مع آخرين.

ومرد الأمر في ذلك إلى المبادىء والقيم الأخلاقية في البلد الأصلية للإنسان. ومن الطبيعي أن الأكثر عرضة للسقوط هم مـواطنو هذه الدول التي تسود فيها قيم معينة متعلقة بالوفاء للزوجية وتواجه فيها الخيانة بعدم القبول.

وسأمسك هنا عن ذكر أسماء تلك البلاد التي تندرج في هذه الفئة أو تلك من وجهة نظر السوفييت حيث انني أود أن أتفادى فتح جدل دولي حول مثل هذا الموضوع الحساس. ومع ذلك فليس لي أن أمسك عن عرض قصة مرتبطة بي: منذ سنوات مضت حينما كان المسؤولون في جهاز مخابرات أوروبي معين تابع للمخابرات السوفييتية يجهلون الموقف من الأمور الجنسية في بعض البلدان الأوروبية الغربية المجاورة، وكانت الشرطة السرية في البلد موضع الكلام قد نجحت في التقاط بعض الصور لدبلوماسي معين كانوا يأملون في استغلاله لاجباره على التواطؤ مع جهاز مخابراتهم، فدعوه إلى مكتبهم بحجة ما ثم عرضوا عليه ما لديهم من صور وكانوا يتوقعون أن زوجة الدبلوماسي ورؤساءه لن يرضوا عنه إذا عرضت عليهم الصور إلا أنه على النقيض مما كانوا يأملون ويتوقعون فإن الدبلوماسي لم ينزعج أو ينقبض لتهديدهم بل استمر في الاطلاع بحماس على الصور وقال أخيراً ان «هذه لقطات رائعة وآمل يا رفاق لو تكرمتم أن تنسخوا لي عدداً منها فأنا أريد نسختين من هذه ونسختين من تلك» ويبدو أنه كان إما قوياً تماماً أو كان يعلم كيف يقابل الابتزاز.

ومن أساليب الضغوط السوفييتية المختلفة كلية تلك التي مارسها السوفييت وعملاؤهم الذين يدورون في فلكهم على اللاجئين والمغتربين الذين لهم أقرباء خلف الستار الحديدي.

واللاجىء في الغرب قد يواجه زيارة من شخص غريب في يوم ما يطلب منه صراحة أن «يتعاون معهم أو يعاني أهله (أمه وزوجته وأطفاله) من عواقب سيئة وخيمة.

وبرغم ذلك قد يكون لدى هذا اللاجىء الشجاعة الكافية في بعض الأحيان لابـلاغ السلطات المحلية والتي قد تؤدي بدورها إلى القبض على العميل الذي جلب الرسائل (الشيفرية) فهذه العملية تدار غالباً على نحو قديم.

وأحياناً ما يتلقى اللاجىء رسالة بدلاً من الزيارة، من أحد أقرب أقربائه في المنزل وتوضح هذه الرسالة على نحو غامض أن السلطات المحلية تجري تحقيقات

عن اللاجىء وقد يكون هناك أشياء غير سارة في الخفـاء قد تواجهها أسرته.

وقد تكون هذه الرسالة مزيفة ومن تدبير المخابرات وبخاصة إذا ما كان معروفاً أن هذا الشخص يتلقى رسائل بصورة متكررة من أي من أقاربه، من ناحية أخرى قد تكون هذه الرسالة أصلية وهي النتيجة الفعلية لزيارة قام بها البوليس للشخص القريب.

وعلى هذا يبدأ اللاجىء في القلق ويقوم بكتابة رسالة إلى أهله يسألهم كيف تسير الأمور، ويقوم الشاهد بالاجابة على السؤال تحت اشراف أو بناء على توجيهات من البوليس، ويقول ان الظروف صعبة بالنسبة لهم الآن ولكن قد تصبح على ما يرام إذا ما قام الشاهد بعمل معروف أو اثنين أولهما أن يقوم بزيارة إلى سفارة بلده لمجرد اجراء حديث.

ثم تبدأ المخابرات قياس مدى احتمال نجاح عملية تجنيد ناجحة من خلال نمط الرسائل التي يكتبها اللاجىء ويرسلها إلى أقاربه.

ويستبعد أن يغامر بكشف خططهم ونكاياتهم إلى سلطات الدولة التي تأويه ما لم يروا أنه لا يصلح لهذه المهمة.

واحياناً ما يستخدم هذا الأسلوب في اغراء أولئك الذين فروا من الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية (دول الستار الحديدي) للعودة إلى وطنهم.

الأسلوب المتغير للعمليات السوفييتية

يعد نجاح المخابرات السوفييتية في الماضي وعمق الأسلوب الذي اتبعته للنفاذ خلال الأهداف الرئيسية (الموجودة) دليلاً جيداً على تحسن أساليب التجسس عما كانت عليه أثناء الحرب العالمية الثانية والتي بدأت تتكشف. وبرغم ذلك ينبغي علينا أن نفترض أن هناك الكثير من العمليات لم يكشف الستار عنها بعد.

وهؤلاء الذين لديهم هذا الأسلوب لديهم الدليل الكافي على قدرتهم على اقامة اتصالات سرية والاحتفاظ بها مع مصادر عالية المستوى تحت ظروف معاكسة، ولارشادهم بمثل هذه الطريقة التي نفذت بها أساليب المخابرات السوفييتية الفعالة. والأساس إلى هذه العمليات هو الاتجاه المؤيد للشيوعية لهؤلاء الأشخاص الذين تم تجنيدهم في هذه الشبكات والمناصب الهامة التي يتولونها في حكوماتهم أو في المنشآت الحساسة.

وبالطبع يعد كلاوس فوكس الذي كان يتجسس على المنشآت التي تعمل في

المجالات الذرية مثالاً رئيسياً لحالة كانت المخابرات السوفييتية تحصل عن طريقها على مميزات مثالية للتجسس. وقد تم تجنيد فوكس في منشآت أمريكية ـ بريطانية حساسة، وكان شيوعياً (مثالياً) مقتنعاً تماماً بالمبادىء الشيوعية.

وكما نرى فإن الاتحاد السوفييتي لم يعد قادراً بعد اليوم على الاعتماد على العثور على مثل هؤلاء المتعاونين الايديولوجيين (ذوي النزعة الايديولوجية) الذين يشغلون مناصب حساسة.

ومن هنا فقد أجبروا أكثر على تبني تكتيكات أخرى منها بصفة رئيسية ايقاع العميل في شرك الوعود بمنحه مكافآت مالية ضخمة، ويمكن تقسيم العمليات السوفييتية أثناء الحرب العالمية الثانية إلى قسمين:

١ ـ المعادون له والمعادون لحلفاء موسكو، وفي كلا المنطقتين فإن على المخابرات السوفييتية أن تنفذ أمر ستالين «بالحصول على الوثائق» والوصول مباشرة إلى الأماكن التي يتم فيها اتخاذ القرارات وتقوم بالحصول على الحقائق مباشرة وبصورة حرفية دقيقة.

وفي دولة مثل اليابان والمانيا حتى قبل أن تقوم الأخيرة بغزو روسيا ـ وهما دولتان مسالمتان مع الاتحاد السوفيتي ـ حتى قرب نهاية الحرب كان هدف المخابرات السوفييتية هو معرفة طبيعة وماهية العمليات العسكرية التي كانت تدبر والتي كانت تؤثر على دفاعات الاتحاد السوفييتي.

وفي اليابان كانت أكبر شبكة تجسس سوفييتية يديرها الألماني ريشار زورجي تتألف غالباً من مسؤولين يابانيين وصحفيين وممن هم على صلة قوية بمجلس الوزراء (الياباني) ومعظمهم من المتعاطفين مع القضية الشيوعية منذ أن كانوا طلبة.

وكان الهدف الرئيسي لشبكة زورجي هو ابلاغ ستالين في منتصف عام ١٩٤١ بدليل محدد هو أن اليابانيين لم تكن لديهم في ذلك الوقت نية للقيام بأي عملية عسكرية ضد الاتحاد السوفييتي وأنهم يقومون بحشد وتركيز قواتهم ضد جنوب شرقي الباسيفيكي وآسيا (خطة بيرل هاربور ـ ميناء اللؤلؤ).

وكانت هذه المعلومات ذات أهمية كبرى لأن ستالين اعترف على أثرها بأنه مدين لزورجي ولكنه لم يفعل أي شيء لانقاذه عندما ألقي القبض عليه.. وكان ستالين قادراً على ترك حدوده محصنة قليلاً حتى ولو كان واثقاً من أنه لن يضطر للقتال على جبهتين، وقد ألقي القبض على أعضاء شبكه زورجي بعد فترة قصيرة من تلقي موسكو هذه المعلومات... ولكن كانت الشبكة قد أدت مهمتها.

وقد أدار الاتحاد السوفييتي شبكة مخابرات أطلق عليها اسم شولنتره بوزين هارانك ضد النازيين وبخاصة المراكز الهامة للجيش الألماني والقوات الجوية والهيئات الدبلوماسية في برلين وهي تشابه شبكة زورجي من حيث التكوين والمهمة التي تؤديها.

وعلى الرغم من كونها في الأساليب الأمنية مثل شبكة زورجي إلا أنه قدر لها أن تنكشف إن عاجلاً أو آجلاً بسبب عدم مبالات أعضائها، وقد تكونت هذه الشبكة من ٢٠ إلى ٤٠ شخصاً من المناهضين للنازية والمؤيدين للشيوعية المنتشرة في جميع الوزارات النازية والقوات المسلحة والطبقات الارستقراطية.

وشولنتره ـ بوزين كان ضابطاً في وزارة الدفاع الجوي في برلين أما هارانك الذي أعدمت زوجته الأمريكية الجنسية وتدعى ميلدر ديفيش وجميع أعضاء الشبكة فقد كان يعمل مسؤولاً في وزارة الاقتصاد.

وقد خدمت الاتصالات الواسعة التي قام بها هذان الرجلان الاتحاد السوفييتي بصورة جيدة وكان من بين مئات التقارير التي أرسلاها إلى الاتحاد السوفييتي في الفترة ما بين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ تقارير ذات أهمية قصوى للسوفييت تحتوي على معلومات مفصلة عن القوات الجوية الألمانية وانتاج الطائرات الألمانية وتحركات قوات المشاة والقرارات التي تتخذها القيادة العليا الألمانية، على سبيل المثال قرار محاصرة لينينجراد وعزلها عن العالم بدلاً من احتلالها.

وقد قامت المخابرات الألمانية الغربية بتسلم هذه الوحدة التي أطلقت عليها الشبكات السوفييتية في أوروبا الغربية اسم روت كابيلي أو الأوركسترا الحمراء.

وعقب استبعادهم من الخدمة في أواخر عام ١٩٤٢ قام السوفييت بتطوير مصادر أخرى أكثر فعالية في سويسرا على شاكلة مجموعة رودلفا روسلر باسم حركي هو «لوس» بطرق لم تكن معروفة من قبل في ذلك الوقت، وقد كان في استطاعة مجموعة روسلر في سويسرا أن تستقي معلومات عن نشاط القيادة الألمانية العليا في برلين على قواعد ثابتة خلال أقل من أربع وعشرين ساعة من صنع قراراتها اليومية المتعلقة بالعمل على الجبهة الشرقية.

وكانت مجموعة روسلر تلك الموالية للكاثوليكي الشيوعي الكسندر فوت الذي كان يدير احدى محطات الاذاعة السرية السوفييتية التي كانت تنقل معلومات مجموعة «لوس» إلى موسكو، ومن أقـواله ان لـوس يمسك في يديه الخيوط التي توصلنا إلى القيادات الثلاث الرئيسية في ألمانيا كما أنه يمدنا بالمعلومات التي يحصل عليها من المكاتب الألمانية الأخرى... إن أي واحد يكون قد حارب معركة من هؤلاء أعضاء

المجالات ... رف أن ذلك يعني قدرته على وضع أعلام على مواقع العدو على مو... التخطيط لاجتياح قواته لها... إن لوس وضعت الاتحاد حس... واستطاعت التأثير على استراتيجيات الجيش الأحمر بما ...خت»، الجيش الألماني بشكل مطلق.

...ن السورج وروت كابيلي ولوس هي أفضل الاختراقات ... الثانية، وكانت تلك العمليات في مجملها والمعلومات التي ... تستطيع أن تأتي بها من خلال عملياتها السرية في الحرب الثانية مفيدة للغاية في دعم الدفاعات السوفييتية إلى الحد الذي تحلم أية دولة أن تصل إليه في حصولها على معلومات من هذا القبيل.

وعلى جانب الحلفاء كان هدف السوفييت مزدوجاً، حيث لم يكن ستالين يثق في أي من روزفلت أو تشرشل حيث وضح من البداية أن هناك تضارباً في المصالح بين القوى المختلفة، وكان من الأهداف السوفييتية الرئيسية أن تخترق مخابراتها مكاتب حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا، خاصة فيما يتعلق بالاتفاقيات السلمية، وكان الهدف الثاني علمياً ومتعلقاً في المجال النووي بشكل خاص.

وقد كان السوفييت يعلمون أن جهوداً مشتركة وضخمة تبذل في مجال البحوث النووية وكانوا يريدون الاستفادة منها خاصة فيما أطلق عليه «فاشز وآلان فان ماي، والروزنبرجيز، وجرين جلاس وجولد» وقائمة أخرى من المسميات التي ظهرت على السطح خلال سنوات الحرب الثانية.

وفي مجال المخابرات السياسية ربما بقيت القضايا وأسماء العملات أقل تحديداً على المستوى العام باستثناء قضايا هيس وبورجس ـ ماكلين. والحقيقة فإنه خلال سعي السوفييت وراء هدفهم لمعرفة ما تخطط له الولايات المتحدة بشأن ألمانيا ووسط أوروبا واليابان لفترة ما بعد الحرب. فقد كان للسوفييت أكثر من اربعين عميلاً على مستوى عال في مختلف الوزارات والوكالات الأمريكية المتخصصة في واشنطن خلال سنوات الحرب الثانية، ولم يكشف هؤلاء العملاء ولم نعرف كم عدد هؤلاء الذين بقوا مجهولين بالنسبة لنا وكانوا جميعهم مثل جواسيس المعلومات النووية أشخاصاً ذوي ميول شيوعية في ذلك الوقت.

وكانت قضية بورجس ـ ماكلين التي تفجرت عام ١٩٥١ بالهروب المفاجىء لاثنين من المسؤولين البريطانيين الى الاتحاد السوفييتي ربما قد خطفت اضواء الكثير من عمليات الهروب للخارج كما أن زواياها الواضحة ألقت ظلالاً من السحب التي عكرت صفو الموضوعات الحقيقية لأنها لم تكن عمليات هروب عادية، حيث طار

الرجلان إلى موسكو لأنهما كانا قد تلقيا عدة تحذيرات من الرجل الثالث هارولد كيم فيلبي بأن قوى الأمن البريطانية تجدّ في السعى من أجل محاكمتهما، وكان الرجال الثلاثة الذين يعملون في مواقع محل ثقة في الخدمات الخارجية البريطانية يعملون لحساب المخابرات السوفييتية لعدة سنوات وكانوا متعاطفين مع الشيوعية خلال دراستهم بجامعة كمبردج خلال الثلاثينات، وازدادت قيمتهم لدى السوفييت حين عملوا بالسفارة البريطانية بواشنطن في أوائل الخمسينات.

وقد اكتشف نشاط فيلبي التخريبي عام ١٩٦٣. بعد وقت قصير من انضمامه لزميله خلف الستار الحديدي، وخلال سنوات الحرب الثانية وإذا أمكننا أن نحكم على القضايا التي كانت تطفو على السطح خلال السنوات العشر الأخيرة فإن المخابرات السوفييتية بعملائها الكثيرين في المواقع الحساسة بالولايات المتحدة وبريطانيا بدأت في انهاء اعتمادها على الشيوعيين والمتعاطفين مع الشيوعية. من أمثال مجموعة فاشز وروزنبرج وبورجس ماكلين وكانت لهم أسبابهم في ذلك.

ولم تعد النوايا العدوانية السوفييتية قادرة على التخفي في ثوب العلاقات الدبلوماسية الحميمة. وقد تمثلت العقبات في طريق الولايات المتحدة وبريطانيا في مطاردتها التخريب السوفييتي في بروز سياسة أطلق عليها الحد الأدنى من الدبلوماسية التوفيقية مع السوفييت، وقد ظهرت من وقت لآخر في نهاية الثلاثينات وخلال الحرب ولم يعد هناك مجال للتفكير بها بعد عام ١٩٤٧. وبدلاً منها فإن احتياطات الأمن التي لم يحدد تاريخ العمل بها في العالم الغربي قد بدأ العمل بها في وطننا وأماكن أخرى لحماية المكاتب الحكومية والقواعد العسكرية والمراكز العلمية والصناعية الحساسة ضد عمليات الاختراق التي يقوم بها عاملون قد يكونون عملاء للجواسيس السوفييت، وثانياً فإن إزالة الأوهام حول ما يفترض وجوده من أهداف فكرية للشيوعية تكون قد بدأت تصل إلى بعض العقليات خلال سنوات الحرب حتى ان أواخر الأربعينات والخمسينات لم تشهد أية مجموعات ممن تعلموا تعليماً عالياً موالياً للشيوعية تأتي من جامعاتنا وكلياتنا، كما كان الحال خلال سنوات الحرب المزعجة.

لقد تحول السوفييت إلى أنواع أخرى من هؤلاء الناس المستعدين لمساعدتهم أو ممن لديهم أسباب أخرى للتعاون معهم برغبتهم أو رغماً عنهم، وربما كانت العناصر التقليدية في بداية سنوات الحرب الثانية التي كانت قد أظهرت سرعة تكيفها مع المخابرات السوفييتية ومع الأحوال الجديدة إلى جانب البراجماتية الدموية الأساسية للتكتيكات الشيوعية كانت وراء تجنيد السوفييت لـ SS السابقة ومجرمي الحرب في

شرق وغرب ألمانيا للأعمال الجاسوسية. وقد وجد السوفييت عاملين قويين لاستغلال مثل هؤلاء الناس والتعامل معهم، أولها موافقة جميع الحلفاء على اعتقال طبقة علماء الذرة، وقد قمنا بسجن عدد منهم تحت الحكم العسكري وقام السوفييت بقبول عدد منهم، ولكن ما هي الطريقة المثلى لاجبار عميل على العمل لحسابنا أفضل من اعدامه أو سجنه طويلاً ثم العفو عنه إذا ما تخلى عن ارتكاب الأعمال التخريبية في المقابل؟ لقد كانت هذه الطريقة الأخيرة هي التي استخدمها السوفييت في ألمانيا الشرقية، أما في ألمانيا الغربية فقد جعل أنصار النازية من العسير على أعضاء الـ SS السابقين والجستابو والمنظمات النازية المشابهة لهم الحصول على وظائف أقل شأناً.

وكان على هؤلاء أن يعيشوا في ظروف اجتماعية سيئة للغاية وكانت اتجاهاتهم سلبية على الأقل ازاء الاحتلال الأمريكي والبريطاني لبلادهم وكانوا سلبيين كذلك في تلقيهم لدعوة السوفييت لهم بالخيانة واعتبروا تلبية هذه الدعوة لا أساس لها من الاحتلال الأخير لبلادهم.

وقد كانت قضية هينز فيلف ذلك الضابط في المخابرات الألمانية الغربية الذي قبض عليه على يد زملائه ورؤسائه في نوفمبر عام ١٩٦١ حين قام بتسريب معلومات عن سنوات عمله للاتحاد السوفييتي والتي بلغت عدة سنوات. ففي عام ١٩٤٥ كان فيلف مجرد ضابط صغير بأمن ومخابرات الجيش الألماني العامل في خارج الحدود، وقد لقي استحساناً من ذلك الجزء من ألمانيا الذي وقع تحت الاحتلال السوفييتي عندما انتهت الحرب وقد اعتقله الحلفاء ونقلوه الى هولندا وحاول الاستقرار في ألمانيا الغربية بعد الافراج عنه من خلال أنصار النازية هناك ولكنه لقي صعوبات شديدة في ايجاد عمل يناسبه هناك على الرغم من أنه كان يحمل عدة خطابات توصية، وقد فشل أيضاً في العمل بالبوليس الألماني الغربي، وفي اطار جو الغموض الذي كان يسود دواوين الخدمة المدنية في ألمانيا تحت رقابة الحلفاء استطاع الوصول إلى وظيفة أخرى بمساعدة عدد من المسؤولين الألمان الذين كانوا لا يزالون تحت الضغوط السوفييتية.

وخلال هذه الفترة أصبح فيلف عميلاً للسوفييت، ثم وقع في أيدي السوفييت خلال رحلة سرية له إلى ألمانيا الشرقية بمساعدة أحد أصدقائه الذي كان هو الآخر عضواً سابقاً في الـ SS أس أس وقام بتعريف السوفييت به.

وقد كان ثمن عمولة فيلف للسوفييت بخساً بالنسبة لهم حيث كلفهم عفوهم عن بعض هفواته وقدراً صغيراً من المال واعطاءه حماية في المستقبل وبذلك تم تعليق السيف السوفييتي فوق رأس مثل هؤلاء الناس حيث يهددهم من حين لآخر بالسقوط فوق رؤوسهم إذا ما حاولوا العمل لحساب الغرب.

وقد قام السوفييت بالتقاط أعضاء الـ SS اس اس السابقين الذين أمكنهم العثور عليهم وقاموا بتنمية روح الطموح لديهم وكان لدى القليل منهم المهارة اللازمة لارتقاء درجات سلم دواوين الخدمات المدنية في ألمانيا الغربية لحساب السوفييت وكان فيلف واحداً من هؤلاء.

وقد كان فيلف واحداً ممن جندهم الاتحاد السوفييتي على أساس ماضيهم النازي، والمعروف أن لدى المخابرات السوفييتية KGB الاستعداد لتجنيد القدماء من ذوي الصلات الشيوعية أينما كانت مواقع عملهم في الغرب ومهما كانت هذه الصلات مصدر ازعاج لهم، وهكذا كانت الحقائق في القضية الهامة لألفريد فرينزيل العضو الدائم بالبرلمان الألماني الغربي «البوندستاج» والذي انتخب أول مرة عام ١٩٥٣ وقد خدم لعدة سنوات... في لجنة الدفاع التابعة للبوندستاج وبذلك صار على علم بالمعلومات المتعلقة بالقوة العسكرية والأسلحة لألمانيا الغربية وخطط حلف شمال الأطلنطي.

وكان فرينزيل ينحدر من أصل تشيكي وكان عضواً لعدة سنوات في الحزب الشيوعي التشيكي وفصل منه بتهمة اشاعة الفوضى في حسابات الحزب وكان هذا كله معلوماً لدى المخابرات التشيكية.

وكان فرينزيل قد لجأ خلال سنوات الحرب إلى ألمانيا الغربية مثل عدد كبير من مواطنيه ثم انخرط في السياسة معتقداً أن ماضيه الشيوعي دفن للأبد إلا أن المخابرات التشيكية استغلت هذا الماضي وأخذت تهدده بتخريب ما وصل إليه من مركز مرموق في ألمانيا الغربية إذا رفض التعاون معها مما دفعه للموافقة على ذلك بسهولة حتى أصبح هو نفسه مركزاً لتجنيد العملاء وهو سياسي بارع وعضو دائم بالبرلمان وفي مكان حساس فيه وهي لجنة الدفاع وكان يعني بالنسبة له الدمار الشامل في حالة انكشاف أمر تعاونه مع السوفييت أو التشيك.

ومثلما حدث في قضية فيلف فقد عرض عليه السوفييت مساعدة مالية سخية وحماية حيث عمل معهم حتى عام ١٩٦٠ أي لمدة خمس سنوات قبل اعتقاله في أكتوبر من ذلك العام. وخلال هذه السنوات الخمس كان فرينزيل عميلاً للسوفييت من خلال عمالته للمخابرات التشيكية حيث رأى أسياده من ضباط تلك المخابرات أنه نقل لهم المعلومات في مقابل المال والحماية من الفضيحة.

كذلك كانت هناك عدة قضايا تجنيد في ألمانيا الغربية تقوم على امتلاك المخابرات السوفييتية لأدلة تفيد أن المجندة العميلة من النساء كانت لها علاقات محرمة وعمليات اجهاض لأجنة غير شرعيين قبل فرارها إلى ألمانيا الغربية، وقد

استخدم السوفييت هذه الأدلة بدقة وعناية فائقة خاصة مع روزالي كونز التي كانت تعمل سكرتيرة للأدميرال «واخبر» نائب قائد البحرية الألمانية. وكذلك الحال مع الأطباء الفارين من الشرق الى الغرب الألماني والذين قاموا بإجراء عمليات اجهاض قام السوفييت بمطاردتهم بهذه المعلومات ونجحوا في تجنيد عدد منهم.

وهناك نوعيات أخرى تركز المخابرات السوفييتية على تجنيدها للتعاون معها. من هذه النوعيات من لا يزال السوفييت يجدون في البحث في ماضيهم عما قد يكونون قد ارتكبوه من أفعال مخزية، أو هؤلاء الذين يعانون من متاعب أو مشاكل عويصة أو لديهم طموحات جارفة ويعيشون حياة غير سعيدة أو من مدمني الكحوليات والشاذين جنسياً، مثل هؤلاء الناس من السهل جداً تجنيدهم وأحياناً يحتاج بعضهم إلى فخ ينصب لاصطيادهم والبعض الآخر لا يحتاج إلى ذلك.

ويعلم السوفييت جيداً أن حقيقة الأشخاص من ضعاف النفوس ومن لديهم متاعب نفسية أو أخلاقية لا يكونون عملاء ممتازين لهم إلا أنهم يستخدمونهم في الأعمال البسيطة وغير ذات القيمة ويجدون في البحث عن هؤلاء العملاء ذوي الأفكار الأيديولوجية الراقية.

وفي قضيتين أخيرتين بعيدتين جغرافياً تم رصدهما لحالات تورط مع المخابرات السوفييتية، قامت السلطات في ايسلندا مؤخراً بطرد اثنين من الدبلوماسيين السوفييت بسبب محاولتهم الضغط على أحد سائقي الشاحنات الايسلنديين لتجنيده للتجسس لحساب المخابرات السوفييتية حيث كانوا يريدون منه الحصول على معلومات من قاعدة كيفلاميك الجوية التابعة لحلف شمال الأطلنطي، ومما جعل القضية أكثر إثارة وتشويقاً أن الضحية راجنر جانرسون البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً كان يحمل بطاقة تدل على أنه شيوعي حتى فبراير ١٩٦٣، ورغم ذلك رفض الخضوع لضغوط الدبلوماسيين السوفييت وقام بإبلاغ البوليس بالمؤامرة بل وساعد في نصب فخ للايقاع بهم خلال محاولتهم تجنيده.

وكان السوفييت قد أشرفوا على تنشئة جانرسون منذ أن كان في الثانية والعشرين من عمره حيث وجهت له دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتي مع ثمانية شبان آخرين لمدة ثلاثة أسابيع على نفقة الحكومة، وعندما حاول الدبلوماسيون السوفييت تجنيده أخطأوا الرجل المطلوب، ويبدو أنهم لم يعلموا أن الأيام قد تغيرت بحيث أصبح من الممكن أن يرفض الشخص الشيوعي في بلد راسمالي التجسس لحساب الاتحاد السوفييتي أو حتى أن يخطو في طريق انشطتهم الجاسوسية.

وقد قام ويتكر تشامبرز واليزابيث بنتلي بإبلاغ مكتب التحقيقات الفيدرالي

(F.B.I.) عام ١٩٤٥ أن أنشطة تجسسية سوفييتية تدور في الولايات المتحدة رغم تورطهما لسنوات فيها مما قضى على علاقتهما بالشيوعية في ذلك الوقت، وكذلك هو الحال مع رفض جانرسون ارتكاب أعمال التجسس لحساب السوفييت رغم بقائه شيوعياً.

وعلى ما يبدو فإن بقاء مثل هذا النوع من العقليات كعقلية جانرسون هو اعتقاد بعض الشيوعيين أن الاتحاد السوفييتي لم يعد هو الأب الروحي للشيوعية العالمية وإنما هو رقيب عليها فقط، الأمر الذي أدى إلى عرقلة جهود المخابرات السوفييتية في البحث عن العملاء وتجنيدهم.

وقد أدت هذه الظاهرة إلى سحب البساط من تحت قدمي المخابرات السوفييتية في شتى الدول ما عدا الدول المتخلفة.

وقد كان للقضية التي كشف النقاب عنها في استراليا في فبراير عام ١٩٦٣ تأثيرها في تحديد مدى الفشل الذي مني به جهاز المخابرات السوفييتية في مسايرة المتغيرات الجديدة والمتلاحقة في العالم وترتيب عملها بشكل ناجح بين الأجانب وفي الدول التي يوجد بها أجهزة أمنية على درجة عالية من الكفاءة.

وقد منيت المخابرات السوفييتية KGB بفشل آخر في استراليا عام ١٩٥٤ عندما هرب إليها رجلها الهام فلاديمير بيتروف لأنه رأى أن مهامه في استراليا لم تكن ذات قيمة يمكن أن تعلق عليها آمال بسبب عدم تصوّر مسؤولي المخابرات السوفييتية أن استراليا عام ١٩٥٤ ليست كألمانيا الغربية في العشرينات وما يترتب على ذلك من إلصاق مهمة فشل المخابرات السوفييتية في التكيف مع الواقع بشخصه هو.

وعندما لجأ بيتروف إلى استراليا أحدثت المعلومات التي كشف النقاب عنها دماراً للعلاقات بين البلدين لمدة خمس سنوات مما دفع بالمخابرات السوفييتية لالقاء نظرة جديدة على تكتيكات التجسس في عدة أماكن من العالم.

فقد كان ايفان سكريبوف الرجل الذي أرسلوه ليرأس مكتب السفارة السوفييتية الذي أعيد فتحه في كانبيرا، هو ذاته أحد كبار المسؤولين في المخابرات السوفييتية ولكن تحت ستار دبلوماسي، وهو الأمر الذي يدل على أن السوفييت يعطون أولوية لعمليات التجسس. ولم يكن سكريبوف بالعميل الخبيث الذي يعمل صامتاً بل كان يميل إلى المرح واقامة الحفلات وكان من المفترض أن تؤدي مشاركته العلنية في الحياة الرسمية الاسترالية إلى إخفاء حقيقة مهمته عن العيون. وتتضح نظرة الروس الجديدة كذلك في حالة الكابتن ايفجيني ايفانوف ضابط المخابرات الروسي الذي كان

يعمل نائباً للملحق البحري في لندن في أوائل الستينات والذي كان أحد المترددين على كريستين كيلر مع وزير الحرب البريطاني جون بروفومو.

بدأ سكريبوف القيام بمهمته الحقيقية من خلف ظهر الأستراليين حيث أخذ يعمل على بناء جهاز سري للمخابرات في استراليا، غير أنه ارتكب خطأ واحداً جسيماً أثناء قيامه بمهمته. فقد استأجر سيدة استرالية للقيام ببعض الأعمال الخاصة وكانت هذه السيدة عميلة في جهاز الأمن الاسترالي.

وعلى الرغم من ذلك فإن مثل هذه الخطوة الناجحة من جانب الاستراليين لا تتبع دائماً بنجاح ضد الروس ذلك لأنهم نادراً ما كانوا في الماضي يعتمدون على الأجانب أما إذا اضطروا لذلك فإن أجهزة الأمن عندهم تقوم بعمليات التقصي اللازمة.

غير أن السوفييت في دولة غربية مثل استراليا بها جهاز أمن قوي ودقيق ـ لم يتمكنوا من اثارة تعاطف أحد من الشيوعيين السوفييت في إستراليا إضافة إلى أنه لم يكن لديهم عدد كاف من اتباعهم الذين يمكنهم اقتفاء أثر عملائهم الرئيسيين ومراقبتهم. لهذا كان عليهم أن يعتمدوا على مظاهر حسن النية والاخلاص الذي يبديه المتطوعون العاملون معهم .

وقد تعطلت قدرتهم على الحكم على سلوك الأشخاص لأنهم كانوا يتعاملون مع نوعية جديدة بالنسبة لهم.

وقد استحق السوفييت بجدارة الضربة الاسترالية. فقد حاول سكريبوف بواسطة عميله اقامة مقر غير رسمي للمخابرات السوفييتية في استراليا بحيث يتم من هناك التخطيط لعمليات التجسس بعد أن كان ذلك في السفارة السوفييتية ولذلك فقد قام عميل سكريبوف بتوصيل جهاز ارسال radio trensmitter ذي سرعة عالية وأجهزة أخرى لازمة للعميل السري إلى عميل آخر في أديليد.

وعلى أثر اكتشاف الروس لنشاط سكريبوف من خلال عميلتهما المزدوجة قاموا بتعطيل جهازي المخابرات السوفييتية الشرعي وغير الشرعي لمدة طويلة ولا يستطيع أحد أن يجزم إذا كان السوفييت سيحاولون للمرة الثالثة إقامة جهاز للمخابرات في استراليا أم لا.

وفي اعتقادي ان السوفييت سيحجمون عن ذلك في الوقت الحالي وأنهم سيعملون على فرض العقوبات المناسبة على الضباط المخطئين وربما يحاولون مرة أخرى ولكن بعد مرور بعض الوقت.

ومن المؤكد أنهم إذا حاولوا مرة أخرى فإنهم سيلجأون إلى إيجاد خطة جديدة

تماماً لاختراق الدفاعات الاسترالية. كما أنهم بالتأكيد سيكونون أكثر حرصاً في المستقبل في ايجاد الشخص الذي يقوم بدور حلقة الوصل بينهم وبين الاستراليين.

ولعل السوفييت يعلمون ـ دون أن يدفعهم ذلك للاستسلام أبداً ـ ان فرصة نجاح الجاسوس السوفييتي ضعيفة في دولة على علم وإدراك كامل بالأهداف والأساليب السوفييتية، بالاضافة إلى كونها تبذل جهوداً كبيرة لحماية نفسها بواسطة خلق أجهزة للأمن وللمخابرات المضادة ذات كفاءة عالية، وأخيراً لأنها دولة ما زال التيار الشيوعي فيها ضعيفاً.

وفي أعقاب اكتشاف الاستراليين لسكريبوف وطرده انتقم السوفييت،كما يفعلون دائماً، عن طريق البحث عن وسيلة ما يمكنهم من خلالها احراج الاستراليين.

وبصفة عامة عندما تمسك القوى الغربية بجاسوس سوفييتي وتطرده نتيجة لتورطه في أنشطة تجسس أو أنشطة غير قانونية فإن السوفييت يردون باختيار مبعوث دبـلوماسي لنفس الدولة الغربية في موسكو بشكل عشوائي إلا أنه يجب أن يكون له مركز مناسب وتعلن أنه شخص غير مرغوب فيه، وهذا يمثل نوعاً من الضغط بالنسبة للغرب حيث يتعين عليه ايجاد بديل مناسب.

وفي حالة الاستراليين فإن الرد السوفييتي اتخذ شكلاً سخيفاً حيث كان من الصعب ايجاد عضو ذي منصب كبير داخل السفارة الاسترالية في موسكو (الصغيرة نسبياً) يمكن أن تنطبق عليه أي قصة ملفقة ولو بأقل قدر من المصداقية، وقد اختار السوفييت في النهاية السكرتير الأول ويليام موريسون وأعلنوا أنه شخص غير مرغوب فيه موجهين إليه تهمة جمع معلومات سرية، وبيع ملابس أجنبية لمواطنين سوفييت بشكل غير قانوني.

وهذه المعلومة الأخيرة تشير إلى أن المعلومات السرية كانت ضعيفة للغاية حتى ان السوفييت شعروا بضرورة اضافة تهمة أخرى لتغطية موقفهم. ان تورط دبلوماسي أجنبي في ملابس مستعملة يماثل تقريباً الشكوى بأنه يعذب خدمه، ولسوء الحظ فإنه في ظل الاجراءات الدبلوماسية فإن الدبلوماسي الذي تعلن دولة ما أنه غير مرغوب فيه لا يمكن أن يتظلم أو يطلب اعادة النظر لذا فإن هذه الممارسة عرضة لسوء الاستخدام كما أنها تعد وسيلة للانتقام دون سبب أو مبرر.

وفي حالة القبض على عملاء غير ذي صفة قانونية أو أي عملاء آخرين لا يتمتعون بصفة دبلوماسية وادينوا بتهمة التجسس فإنه يتم آنذاك اتخاذ اجراء متبادل حيث يتم تبادل الأسرى، ومن أكثر الأمثلة وضوحاً على ذلك تبادل فرانسيس جراي باورنر وأمريكي آخر هو فريدريك بربو الذي اعتقل في الاتحاد السوفييتي بتهمة

التجسس مقابل الجاسوس السوفييتي الكولونيل رودولف آبل وذلك في فبراير ١٩٦٢.

ولهذا التبادل عدة نتائج مهمة، أولاً وقبل كل شيء تحطيم الادعاء السوفييتي حول عدم المسؤولية عن آبل وهو الموقف الذي تمسكوا به عند اعتقاله ومحاكمته وإدانته، وثانياً اظهار امكانية أن تصبح سياسة جاسوس مقابل آخر أمراً عادياً في المستقبل.

وقد كنت مديراً لوكالة المخابرات المركزية عندما بدأت المفاوضات السرية في هذا الشأن وقد وافقت عليها، لقد كان لدي شكوك بصفة عامة ولكنني شعرت آنذاك وما زال هذا شعوري الآن إنها كانت عملية تبادل عادلة وإنه كان من مصلحتنا أن نمضي قدماً فيها في ظل الظروف الخاصة بهذه القضية غير العادية ونحن نفترض أن عدد العملاء السوفييت في الغرب يفوق بكثير عدد عملاء الغرب خلف الستار الحديدي.

لذا من المحتمل وخلال فترة محدودة وفي ظل كفاءة وحذر معقولين من جانبنا أن نسيطر على عدد من العملاء السوفييت يفوق عدد العملاء الغربيين المحتجزين لديهم.

وإذا ما صحت فكرة تبادل عميل مقابل عميل أمراً عادياً فإن السوفييت سيتطلعون لأن يكون تحت أيديهم اجتياطي كبير من العملاء المعتقلين.

لذا فإن ذلك سيغريهم ومن المحتمل أن يخضعوا لهذا الاغراء ـ باعتقال الزائرين الغربيين الذين لا علاقة لهم من قريب أو بعيد بالمخابرات.

في بداية صيف ١٩٦٣ ظهرت اشاعة حول دراسة عملية أخرى لتبادل العملاء المعتقلين، وفي العامين الآخيرين نجح البريطانيون في اعتقال وإدانة وسجن سبعة من العملاء السوفييت الرئيسيين، هم ملاك وناسال وخمسة من أعضاء شبكة لوتسدالي وهم لوتسدالي نفسه وهويتهون وصديقته والزوجان كروجر، وخلال هذه الفترة اعتقل السوفييت وسجنوا بريطانيًا واحداً بتهمة التجسس وهو جريفيلي وين وهو رجل أعمال من لندن اتهمه السوفييت بأنه عمل كوسيط لاولج بتلوفسكي وقد حكم عليه بالسجن لمدة ثماني سنوات.

أما مجموع السنوات التي صدرت ضد السبعة الذين اعتقلتهم بريطانيا فيصل إلى ١٥٠ عاماً وذلك يوضح أن موقف السوفييت في المساومة لم يكن قوياً ومن الواضح أن الرجل الذي كانوا يودون اطلاق سراحه هو لونسدالي حيث إنه الوحيد الذي يحمل الجنسية السوفييتية وقد مارس هذا الرجل عمله غير القانوني لفترة طويلة

كما رددت الشائعات ان السوفييت مهتمون باطلاق سراح الزوجين كروجز اللذين قدما لهم خدمة جيدة لعشرات السنوات دون أدنى شك.

وقبل أن نستطرد في قصة تبادل الجواسيس يجدر بنا أن ندرك أين ستؤدي بنا هذه العملية!

التخطيط في التوجيه

ان الموضوعات التي تدخل في مجال اهتمام أي جهاز للمخابرات هي من التعدد والتنوع بما يستلزم وضع نظام معين لعملية جمع المعلومات، وهذا منطقياً مسؤولية جهاز الرئاسة في المخابرات فهي وحدها التي تتجمع لديها صورة ما يدور في العالم وما تطلبه حكومتنا من يوم لآخر ومن شهر لآخر.

ومن الممكن بسهولة في غياب الارشاد والتوجيه أن ينفق ضباط المخابرات في مختلف بقاع العالم الكثير من وقتهم في القيام بنفس العمل الذي يقوم به زملاؤهم وهي ازدواجية من شأنها خلق فجوات خطيرة فيما يتجمع لدينا من معلومات، وليس بمقدور ضابط المخابرات أن يقدر بصورة كاملة قيمة ما يسند إليه من مهام حيث لا يتسنى له معرفة ما إذا كانت المعلومات التي يقوم بجلبها قد تم الحصول عليها بالفعل من مكان آخر أو إذا كانت قد عرفت من مصادر علنية، أو كانت لا تحظى سوى بأهمية ضئيلة في ترتيب الأولويات بما يجعلها لا تستحق ما يبذل في جمعها من عناء أو ما ينفق عليها من أموال.

وحكومتنا هي التي تحدد الأهداف التي يتعين على جهاز المخابرات أن يسعى لتحقيقها والمعلومات التي هي بحاجة إليها بغض النظر عما قد يقف دون ذلك من عقبات، كما أن الحكومة هي التي تقوم بتحديد أولويات تلك الأهداف وفقاً لأهمية كل منها من حيث الالحاح والعجلة؛ فالـ ICBM السوفييتية لها الأولوية على إنتاج السوفييت من الصلب، كما أن معرفة ما إذا كان السوفييت يزمعون دخول حرب بشأن لاوس، هـو أمر يأتي في ترتيب الأولويات قبل معرفة الخلفية السياسية لنظام جديد يقوم في الشرق الأوسط. ولا يتم بحث مسألة العقبات إلا بعد وضع ترتيب الأولويات، فإذا كان من الممكن الحصول على المعلومات المطلوبة من خلال وسائل جمع

المعلومات العلنية أو من خلال النشاط الدبلوماسي المعتاد، لا يطلب من جهاز المخابرات أن يكرس لمثل هذه المهمة إمكاناته المحدودة التي تخصص لجمع المعلومات السرية.

أما إذا تقرر أن تضطلع المخابرات السرية بمثل هذه المهمة فإن ذلك يكون عادة بسبب وجود عقبات خطيرة تحيط بالهدف المنشود.

وخلال قيام رئاسة المخابرات بإعداد توجيهاتها لدى مجموعة من مجموعات الجهاز في منطقة ما، فإنها تقوم أولاً بدراسة العوامل السياسية والعوامل المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية وتواجد أشخاص في تلك المنطقة يمكنهم الوصول للمعلومات المطلوبة. ومن الواضح أن المناطق الواقعة على الحدود أو المتاخمة لها حول محيط الدائرة الكبيرة للعالم الشيوعي يستفاد منها كنوافذ تطل على ذلك العالم، ولو أنها نوافذ تخيم عليها الظلال المعتمة، كما أن وجـود وفود كبيرة الحجم من الكتلة السوفييتية ـ الصينية في بلدان كثيرة لا تتاخم بالضرورة تلك الكتلة يتيح فرصة من نوع آخر للحصول على معلومات بشأن هذه الكتلة.

كذلك فإن مواطني الدول الواقعة على الحدود قد لا يواجهـون نفس الصعاب التي يواجهها المواطن الأمريكي في السفر إلى مناطق محظورة والتمتع بحرية أكبر في الحركة خلال وجوده فيها كما يكونون موضع اهتمام أقل. كل هذه الأمور هي من العوامل المتعلقة بمشكلة الوصول للمعلومات ومن ثم تلعب دوراً في تشكيل عملية الارشاد.

وعلى سبيل الافتراض، إذا أرادت حكومتنا الحصول على معلومات حول تطور صناعي أو فني أخير في الصين الشيوعية حيث لا يوجد للولايات المتحدة بعثة دبلوماسية أو حتى تمثيل غير رسمي، فإن جهاز المخابرات يمكن أن يعهد بمهمة جمع المعلومات إلى المناطق الحرة المجاورة للصين والتي تستقبل لاجئين صينيين من آن لآخر، أو يعهد بها إلى منطقة حرة في العالم يكون للصين تمثيل دبلوماسي لديها، أو حتى إلى منطقة حرة أخرى يكون لها علاقة تجارية مع الصين ويمكن لرعاياها السفر إلى الصين، ولا يعهد جهاز المخابرات بهذه المهمة إلى أي منطقة لا يتوفر فيها أي من هذه الشروط، كما أنه لا يكشف عما يطلبه بصورة عشوائية في أنحاء العالم ليجعل مجموعة من ضباط المخابرات تتدافع وراء نفس المعلومات بأي وسيلة تحت نفس الاسم.

وعندما ألقى خروتشوف خطابه السري الذي شجب فيه ستالين أمام المؤتمر العشرين للحزب عام ١٩٥٦ كان واضحاً مما ذكرته الصحافة والمصادر الأخرى عن

الخطاب أنه لا بد من وجود نص له في مكان ما، وكان هذا الخطاب طويلاً جداً ويحتوي على تفاصيل كثيرة بحيث يصعب أن يكون قد ألقي ارتجالاً بغض النظر عما هو معروف عن خروتشوف المشهور بخطبه المرتجلة الطويلة.

وقد تم تكليف مجموعة مخابرات بمهمة البحث عن هذه الوثيقة حيث ان الخطاب الذي لم ينشر قط في الاتحاد السوفييتي كان ذا أهمية فائقة للعالم الحر. وقد عثر على النص في نهاية المطاف ولكن على بعد أميال كثيرة من موسكو حيث تم القاؤه، وكان من الضروري بالنسبة لرئاسة المخابرات في هذه الحالة أن تنبه مصادر كثيرة متنوعة وأن تتأكد من تتبع كل الخيوط، وأنا أنظر لهذه المهمة دائماً باعتبارها واحدة من إنجازاتي البارزة خلال فترة عملي في المخابرات. وبما أن النص قد نشر كاملاً بمعرفة وزارة الخارجية فإن ذلك يعد أيضاً من الأعمال البارزة القليلة التي يمكن كشف النقاب عنها طالما بقيت مصادر وطرق الحصول على المعلومات طي الكتمان.

وعادة فإن وسيلة جمع المعلومات يترك تحديدها بعد إسناد المهمة إلى براعة ضابط المخابرات المكلف بالتنفيذ، وقد نقل أو هرّب لي سراً في سويسرا خلال ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥ أحد مصادري في وزارة الخارجية الألمانية الذي سبق الحديث عنه تشكيلة مختارة من أكثر الوثائق الألمانية الدبلوماسية والعسكرية سرية وتزيد في مجموعها على ألفي وثيقة. وقد كان باستطاعته ـ لأسباب فنية عديدة ـ أن يرسل فقط جزءاً من مجموع الوثائق المتاحة له، وكان عليه أن ينتقي ويختار هو بنفسه.

ومع اقتراب الحرب في أوروبا من نهايتها كانت إمكانية قيام صراع طويل الأمد مع اليابان ما تزال بادية للعيان، ووقتها تلقيت من الرئاسة طلباً بأن يركز مصدرنا على إرسال مزيد من التقارير الواردة من البعثات الألمانية في الشرق الأقصى وخاصة في طوكيو وشنغهاي، ورغم اتفاقي مع الرئاسة على ضرورة توسيع هذه النافذة المطلة على الشرق الأقصى إلا أنه لم يكن من السهل تنفيذ التعليمات على وجه السرعة.

كان مصدري في برلين في الوقت الذي كنت فيه أنا في سويسرا ولم يكن بمقدوره السفر إلا فيما ندر وقد تمر أسابيع دون أن أراه، ولكن الأمر كان من العجلة بحيث لا يمكن الانتظار حتى موعد لقائنا التالي، وكان طبيعياً أننا لا نتصل سوياً أبداً عبر الحدود السويسرية الألمانية لأن ذلك كان أمراً محفوفاً بمخاطر جمة، ولكن كانت هناك وسيلة للطوارىء تعتمد على صديقة وهمية للمصدر كان يفترض أنها تعيش في سويسرا. ولما كانت البطاقات البريدية المفتوحة لا تسترعي انتباه الرقيب مثل الخطابات المغلقة، فإن تلك الصديقة الوهمية أرسلت على عنوان منزل المصدر في

برلين بطاقة بريدية جميلة كتبت عليها أن احدى صديقاتها في زيوريخ لديها متجر كان يبيع لعب الأطفال اليابانية لكن رصيده منها نفد وليس بمقدورها أن تستوردها بسبب القيود المفروضة في زمن الحرب.

ونظراً للعلاقات الوثيقة بين المانيا واليابان سألت الصديقة إن كان يمكنه المساعدة باقتراح الأماكن التي يمكن شراء لعب الأطفال منها في المانيا لمتجر تلك الصديقة، وقد فهم مصدري مغزى الرسالة في الحال حيث انه كان يعلم أن كل الرسائل الواردة من الصديقة السويسرية هي رسائل مني.

وكانت مجموعة البرقيات التالية التي أرسلها لي في معظمها واردة من المسؤولين الألمان في الشرق الأقصى إلى وزارة الخارجية الألمانية ويتحدثون فيها عن محنة البحرية وسلاح الطيران اليابانيين.

ويحدث أحياناً لأسباب دبلوماسية أو غيرها من الأسباب أن تعطي الرئاسة توجيهاً سلبياً وتصدر تعليمات بما لا يجب عمله. فقد يصادف أحد ضباط المخابرات المولعين بالمغامرة فرصاً رائعة لكنه لخيبة أمله يعلم بعد تراسله مع الرئاسة أن ثمة أسباباً وجيهة لصرف الانتباه عن تلك الفرص. وقد يحاط هذا الضابط علماً أو لا يحاط بماهية تلك الأسباب الوجيهة.

وقد أكد الجنرال مارشال في خطابه إلى حاكم الولاية ديوي، السالف الاشارة اليه، حساسية العمليات المتعلقة بالشيفرة التي يستخدمها العدو، حيث حدثه عن محاولة تفتقر للتنسيق قامت بها المخابرات الأمريكية بهدف معرفة شيفرة المانية تستخدم في البرتغال، وقد حدث خطأ في العملية مما نبه الألمان ودفعهم إلى تغيير الشيفرة التي كان يمكننا بالفعل فك رموزها ومن ثم فقدنا هذا المصدر القيم.

ولم أكن على علم آنذاك بتلك الحادثة عندما تلقيت رسالة لاسلكية من الرئاسة في موقعي الخاص بزمن الحرب في سويسرا تبلغني فيها بعدم محاولة معرفة أي شيفرة أجنبية بدون تعليمات مسبقة. وعقب ذلك بفترة قصيرة أبلغني واحد من أكثر عملائي الألمان الذين أثق بهم انه استطاع الحصول على معلومات تفصيلية بشأن شيفرات نازية معينة ورموزها.

وقد وضعني هذا في مأزق، فرغم أنني كنت أولي هذا العميل ثقتي إلا أنني لم اشأ أن أجعله يستنتج أننا نفك طلاسم الشيفرات الألمانية، لكن إذا لم أبد اهتماماً فإن هذا قد يكون مؤشراً على أننا نفعل ذلك بالفعل ولولا ذلك لما رفض أي ضابط مخابرات مثل هذا العرض. وأبلغت صديقي أنني بحاجة لقليل من الوقت لأفكر في كيفية تنفيذ هذا على أحسن وجه. وفي اليوم التالي قلت له انه لما كانت كل اتصالاتي

بواشنطن تتم عن طريق اللاسلكي - وكانت سويسرا آنذاك محاطة بقوات النازي والفاشست، فإنه من غير المأمون بالنسبة لي أن أقوم بتأويل ما يمكن أن يعطيني إياه، وأضفت أنني أفضل أن أنتظر حتى يتم تحرير فرنسا - وكان غزو نورماندي قد بدأ بالفعل - حتى يمكنني أن أرسل معلوماته الخاصة بالشيفرة بالحقيبة الدبلوماسية، وقد تقبّل بسهولة هذا الرد المقبول ظاهرياً لحد ما.

وبالطبع فإنه لا يمكن لأفضل تخطيط وأفضل توجيه أن يتنبأ بكل شيء، فما من جهاز مخابرات أو ضابط مخابرات يستبعد إمكانية حدوث ما هو عشوائي وغير متوقع وغالباً ما لا يمكن تفسيره. قد يحدث أحياناً أن يشعر شخص ما يحمل في ذهنه شيئاً معيناً أنه يأمن أكثر عندما يتحدث مع ضابط مخابرات غربي على بعد عشرة آلاف ميل من وطنه ومن ثم يترقب فرصة السفر للعثور على مثل هذا الضابط، فعلى سبيل المثال يمكن أن يتحدث عالم أو فني سوفييتي يزور جنوب شرقي آسيا باسترسال أكثر مما قد يفعل وهو خلف السور الحديدي أو حتى إذا كان في زيارة لنيويورك، والمعلومات التي يرسلها الكرملين إلى مسؤول سوفييتي في مصر قد تلقي - إذا علمنا بها - بعض الضوء على السياسة السوفييتية تجاه برلين.

حدث في عام ١٩٥٨ أن تلقى طالب عربي من العراق كان يدرس دراسات عليا في أريزونا خطاباً من بغداد حمله على الفور إلى العودة لوطنه، وخلال مغـادرته ألمح إلى صديق أمريكي له أن سبب سفره المفاجىء أن أحداثاً سياسية مهمة وشيكة الحدوث في بلده. وبعد ذلك بأسابيع قليلة وقع في العراق الانقلاب الذي أذهل العالم الغربي وجعل ضباط المخابرات يتفكرون في المعلومة التي ذكرها الطالب عن سبب سفره العاجل ووصلت بالفعل إلى مقر الرئاسة في واشنطن على وجه السرعة وذلك بفضل كفاءة جمع المعلومات في أريزونا، لكن لسوء الحظ نظر إليه على المستوى المكتبي - وهو أمر طبيعي - كمجرد قشة تذروها الرياح في اتجاه مختلف.

وتصور هذه القصة أيضاً مدى أهمية أن يرسل ضابط المخابرات العامل في الميدان العملي دون توجيهات من رئاسته، كل المعلومات مهما تضاءلت. ففي حالة مسألة العراق على سبيل المثال، لو كانت الرئاسة قد تلقت ثلاث أو أربع رسائل تفيد بأن أشخاصاً مناهضين للحكومة العراقية يتوافدون على بغداد لكان قد تم إطلاق جرس للإنذار.

ومنذ عدة أعوام عندما كانت اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في موسكو تحاط بقدر هائل من السرية كان يمكن أحياناً التنبؤ بهذه الاجتماعات بملاحظة تحركات أعضاء اللجنة العديدين الذين يشغلون مناصب دبلوماسية أو غيرها

او يسافرون للخارج. فإذا تدفق هؤلاء بهدوء على موسكو فإن معنى هذا أن شيئاً ما كان على وشك الحدوث، هنا نجد أن نمط سفر المسؤولين السوفييت كان يمثل نوعاً من المعلومات التي يتم تنبيه الضباط الميدانيين لتتبعها.

إن توجيه الرئاسة ضروري لكنه ليس بديلاً عن المبادرة الميدانية كتلك التي اتخذت في موضوع أريزونا.

الخصم الرئيسي
أجهزة المخابرات الشيوعية

لقد انشأت معظم الدول الشيوعية بمرور الوقت ليس جهاز مخابرات واحداً فحسب بل جهـازان لكل منهما وظائف مميزة على الرغم من أن عمل الجهازين قد يتداخل أحياناً، واحد هذين الجهازين هو المخابرات الحربية ويديره العاملون في القوات المسلحة ويتولى مسؤولية جمع المعلومات العسكرية والفنية في الخارج ويطلق على هذا التنظيم العسكري في الاتحاد السوفييتي اسم إدارة المخابرات الرئيسية وقد أدار ضباط هذه الإدارة العاملون في السفارة السوفييتية في أوتاوا شبكة التجسس الذري في كندا خلال الحرب العالمية الثانية، أما الجهاز الآخر والذي يمثل تطور الدولة الشيوعية فهو جهاز الأمن، ويكون منشأ مثل هذا الجهاز عموماً قوة بوليس سري مكرسة للشؤون الداخلية مثل قمع المنشقين وحماية النظام، وتدريجياً يتوسع هذا التنظيم للخارج متوغلاً في المناطق المجاورة لأسباب تتعلق بحماية النظام إلى أن ينتهي به المطاف أخيراً بالانتشار في أنحاء المعمورة كجهاز مخابرات خارجية كامل وأكثر من ذلك بكثير.

ولما كان جهاز الأمن هذا هو أساساً من صنع الحاشية أو الحزب الحاكم فإنه يكون دائماً محل قدر من الثقة من جانب القادة السياسيين أكبر من الثقة التي يحظى بها جهاز المخابرات الحربية، وعادة ما يسعى جهاز الأمن للهيمنة والسيطرة على المخابرات الحربية إن لم يكن لابتلاعها. ففي المانيا النازيه سيطر مكتب أمن الرايخ بقيادة هملر عام ١٩٤٤ تماماً على نظيره الحربي المعروف باسم أبقر.

وفي روسيا السوفييتية تم تجميع جهازي الأمن والمخابرات الحربية عام ١٩٤٧ في جهاز واحد تحت سيطرة جهاز الأمن،لكن عملية الاندماج لم تدم سوى عام واحد.

على أنه في عام ١٩٥٨ نصّب خروتشوف أحد أكثر قادة الأمن الموثوق فيهم وهو الجنرال ايفان سيروف مسؤولاً عن المخابرات الحربية مستهدفاً بذلك فيما يبدو مراقبة هذا الجهاز، وكان سيروف من أكثر الرجال وحشية في تاريخ المخابرات السوفييتية وهو الرجل الذي كلفه خروتشوف بالاشراف على قمع الثورة المجرية والغزو السوفييتي الثاني للمجر في نوفمبر عام ١٩٥٦.

وهناك من قبل الصدفة العارضة، مؤشرات على أن الأمور لم تسر بصورة مرضية بالنسبة لسيروف وربما يكون قد وقع بين فكي عملية تطهير داخلية جديدة ومثيرة تمتد إلى ما هو أبعد من جهاز المخابرات.

وسواء نجح جهاز الأمن في الدولة الشيوعية أو لم ينجح في السيطرة على المخابرات الحربية، فإنه يصبح حتماً الجهاز الأقوى، كما أن صلاحياته داخلياً وخارجياً تفوق بكثير الصلاحيات التي تمنح لأجهزة المخابرات في المجتمعات الحرة. فاليوم يعتبر جهاز أمن الدولة السوفييتي في الخارج مثلما هو في الداخل، إنه ذراع متعدد الأغراض وسري للسلطة يمكنه في التحليل الأخير أن ينفذ تقريباً أي عملية تسندها إليه القيادة السوفييتية. انه أكثر من مجرد جهاز بوليسي سري وأكثر من جهاز مخابرات أو مكافحة تجسس، إنه أداة للتخريب والتلاعب والعنف تستخدم للتدخل السري في شؤون الدول الأخرى، إنه ذراع عدواني للأطماع السوفييتية في فترة الحرب الباردة.

وأنا أتوقع أنه إذا أرسل السوفييت رواد فضاء إلى القمر فإنهم سيرسلون معهم ضابطاً من الـ (كي جي بي) لاصطحابهم.

لقد أنشأ البلاشفة جهاز البوليس السري الخاص بهم فور استيلائهم على السلطة في روسيا، وهذا الجهاز الذي أطلق عليه اسم «تشيكا» أنشىء في عام ١٩١٧ برئاسة فليكس ديرزنسكي كقوة أمن لها سلطات تنفيذية، ومعنى الاسم هو «اللجنة الاستثنائية ضد الثورة المضادة والتخريب» وكان جهاز «تشيكا» قوة أمن ارهابية متشددة قامت بعمليات تصفية جسدية متسمة بالقسوة ضد المدنيين على أساس الاشتباه في أصولهم البرجوازية.

وقد تبع قوات الجيش الأحمر في حروبها ضد قوات روسيا البيضاء وعمل كنوع من أجهزة مكافحة التجسس في المناطق التي لم تكن عمليات التصفية قد اكتملت فيها.

وفي عام ١٩٢١ أنشأ الجهاز فرعاً خارجياً لأنه في ذلك الوقت كان جنود روسيا البيضاء وخصوم البلاشفة من المدنيين الذين تمكنوا من الهرب قد فروا إلى أوروبا

الغربية والشرق الأوسط والشرق الأقصى وكانوا يسعون لضرب البلاشفة ثانية من الخارج. وعلى الفور أصبح للفرع الخارجي لجهاز الأمن السوفييتي دور أكبر بكثير مما واجهته «أوكرانا» في عهد القياصرة، فهو لم يقتصر على اختراق تنظيمات المنفيين الروس التي كانت تتآمر ضد السوفييت وتحييدها لكنه قام أيضاً بمراقبة القوى الغربية المناهضة للبلاشفة والتأثير عليها كلما كان ذلك ممكناً، وهكذا أصبح هذا الفرع جهاز مخابرات سياسياً ذا مهمة قتالية، وانخرط في سبيل تحقيق أهدافه في أعمال عنف وأعمال وحشية وعمليات خطف وقتل، سواء في الداخل أو الخارج.

وكان هذا النشاط موجهاً ليس فقط ضد أعداء الدولة، وإنما ضد الزملاء البلاشفة الذين تم اعتبارهم غير جديرين بالثقة أو عبئاً كبيراً، فقد قتل الجنرال بتلورا زعيم الوطنيين الأوكرانيين في منفاه في باريس عام ١٩٢٦، وقال البعض إن قتلته هم جهاز الأمن في حين زعم البعض الآخر أنه قتل نتيجة ثأر شخصي.

وفي عام ١٩٣٠ اختطف الجهاز الجنرال كويتبوف زعيم قدامى محاربي روسيا البيضاء من باريس، وحل نفس المصير بخليفته الجنرال ميللر عام ١٩٣٧. وطوال ما يزيد على عشر سنوات ظل ليون تروتسكي الذي ذهب للمنفى في ١٩٢٩ الهدف الرئيسي للاغتيال بناء على أوامر من ستالين، وفي ٢١ أغسطس ١٩٤٠ لقي الثائر القديم حتفه في مدينة المكسيك بعد أن ضربه أحد عملاء الأمن السوفييتي بفأس جليد من الفؤوس التي يستخدمها متسلقو جبال الألب، وقائمة ضباط الجهاز وعملائه في الخارج الذين قتلهم الجهاز خلال نفس الفترة طويلة جداً، وكان كثيرون منهم قد حاولوا الفرار أو لم يكونوا ببساطة موضع ثقة ستالين.

وحتى لا يظن أحد أن الأعمال العنيفة ضد المنفيين أو المعارضين للبلاشفة في الأيام الأولى لا تعدو كونها مظاهر لعهد الخشونة والقسوة لبداية التاريخ السوفييتي أو رغبة ستالين في الانتقام الشخصي، ينبغي أن نشير إلى أنه في فترة الملاحقة المسماة بعهد الشرعية الاشتراكية التي أعلنها خروتشوف عام ١٩٥٦ تمت تصفية جيل لاحق من الزعماء المنفيين، ويكمن الفارق الوحيد بين فرق القتلة السياسيين في المرحلتين المبكرة واللاحقة في مدى دقة وفعالية أسلحة القتل.

فالوفاة الغامضة في ميونيخ عامي ١٩٥٧، ١٩٥٩ لـ «ليف ريبيت وستيفن باندرا» وهما من قادة حركة المهاجرين الأوكرانيين، تمت برذاذ السيانيد الذي يقتل في الحال. وقد كان هذا الأسلوب من الفاعلية حتى انه في حالة ريبيت اعتقد لفترة طويلة أنه مات نتيجة أزمة قلبية، ولم تعرف الحقيقة إلا عندما سلم ستاشنسكي عميل الـ «KGB» «كي جي بي» نفسه للبوليس الألماني في عام ١٩٦١ وأقر بارتكابه جريمتي القتل.

وذكر ستاشنسكي أن مكافأته عن جريمة القتل الأولى كانت عبارة عن باقة ورد رقيقة تلقاها من رؤسائه في الـ (كي جي بي) وعن الثانية وسام الشارة الحمراء.

ومنذ الأيام الأولى للسوفييت وعملية الاغتيال السري وظيفة رسمية مسندة لجهاز الأمن، ويتولى قسم خاص بالجهاز يطلق عليه قسم العمل التنفيذي مسؤولية التخطيط لهذه الاغتيالات واختيار وتدريب القتلة والاشراف على تنفيذ المهمة بحيث لا تترك أية خيوط توصل للحكومة السوفييتية باعتبارها مرتكبة العملية. ومما يؤكد أن هذا القسم ما زال إلى اليوم أحد المكونات المهمة للمخابرات السوفييتية، ان رئيس القسم المعين حديثاً هو الجنرال توروفييف[1] الذي كان في أثناء عمله كمستشار للسفارة السوفييتية في لندن بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٦١ مسؤولاً عن جاسوسين سوفييتيين كبيرين في بريطانيا هما جورج بليك ووليام جون فاسال. وبعد اعتقال الأخير أصبح الموقف خطيراً بالنسبة للجنرال وتم استدعاؤه إلى موسكو حيث كلف بفرع القتل في الـ (كي. جي. بي.).

---

(١) كان هذا هو الاسم المستعار الذي استعمله الجنرال خلال وجوده في لندن واسمه الحقيقي هو (نيقولاي ب. رووين).

تطور أجهزة الأمن السوفييتية

في عام ١٩٢٠ أصبح جهاز تشيكا الإدارة السياسية للدولة التي أصبحت في عام ١٩٣٤ جـزء من اللجنة الشعبية للشؤون الداخلية، وهذا الاندماج جمع في النهاية كل هيئات الأمن والمخابرات المدنية ـ سرية وعلنية، محلية وخارجية تحت مظلة وزارة واحدة. وفي حين تحولت الذراع الخارجية للأمن السوفييتي إلى منظمة عالمية للتجسس والعمل السياسي، كانت الذراع المحلية تنمو بصورة مستحيلة وحشية، ويقال إنه في عهد ستالين كان واحد من كل خمسة مواطنين يزودونها بالتقارير. وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت تمارس رقابة ميليشيا الحدود بأسرها، وكان لها قوة ميليشيا خاصة بها وكانت تدير جميع السجون ومعسكرات العمل والاعتقال، ثم أصبحت الرقيب على الحكومة وعلى الحزب الشيوعي نفسه. وتكمن أكبر سلطاتها تحديداً كشرطة سرية في أحقية قيامها بأعمال الاعتقال والشنجب والتصفية بأمر الدكتاتور أو اتباعه المخلصين أو حتى اعتماداً على شارتها المميزة وبدون الرجوع إلى حكم قانوني أو سيطرة من أي منظمة أخرى تابعة للحكومة.

وإبّان سنوات الحرب وما بعدها تجزأ الهيكل الضخم للـ NKVD ثم توحد ثم انشق ثم توحد وأخيراً انشطر إلى تنظيمين منفصلين، الـ MGB أو KGB الآن وأسند إليه مسؤولية عمليات التجسس الخارجية وأعمال الأمن عالية المستوى، أما التنظيم الآخر فاحتفظ بجميع الوظائف السياسية المعنية على نحو غير مباشر بأمن الدولة على المستويات العليا وسمي هذا التنظيم بالـ MVD، وزارة الشؤون الداخلية.

ومن الواضح أن أي سلاح سري يمكن أن ينقض أو يسيطر على أغوار الحياة العامة بل وأوساط السلطة العليا ـ يجب أن يخضع للسيطرة المطلقة للدكتاتور. ولذا

فلا بد من التخلص من غير المرغوب فيهم وإضعافهم بحيث لا يلتهمون كل ما هو واقع في نطاق قبضة الدكتاتور، وتاريخ الأمن في الدولة السوفييتية ـ تحت شتى الأسماء التي أعطيت له ـ يعكس الكثير من دوائر نمو القوة وما أعقبها من عمليات تطهير قريبة وأعمال تعزيز وحالات انشقاق وموجات الاغتيال السياسي التي نفذها أو التي نفذت ضده احياناً.

وكان جهاز الأمن هذا يجري تحجيمه ـ بعد أي فترة يستغله فيها الزعيم للحفاظ على بقائه في السلطة بكثرة ما أوتي من المعلومات ولأن قوة الجهاز ينبغي أن تكون فقط لحماية سلامة الزعيم ـ وبعد موت الزعيم يلزم فعل نفس الشيء لحماية خلفه.

فكان ستالين يستخدم الـ BPU لفرض الأسلوب الجمعي وتصفية الكولاكيين أو كبار المزارعين في أوائل الثلاثينات، وكان يستخدم NKVD في منتصف الثلاثينات للقضاء على كل من لم يكن يأمنهم أو يحبهم من اعضاء الحزب أو افراد الجيش أو أعضاء الحكومة. ثم قام في عام ١٩٣٧ بتطهير جهاز التصفية نفسه إذ ان رؤساء الجهاز وكبار ضباطه كانوا يعلمون الكثير جداً عن جرائمه وكانت سلطة هؤلاء في المرتبة التالية لسلطة ستالين، وبحلول عام ١٩٥٣ وبعد وفاة ستالين استعاد جهاز الأمن قوته بدرجة أصبح معها قوة مهيمنة في مجال الكفاح من أجل السلطة، وشعرت «القيادة الجماعية» بأنها لن تكون بمأمن ما لم تتخلص من زعيم الجهاز لافرنتي بريا ورجاله المخلصين.

وقد وجه خروتشوف الاهتمام الرئيسي في خطابه المشهور في حينه أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في عام ١٩٥٦ ـ الذي عرض فيه لجرائم ستالين ـ إلى تلك الجرائم التي اقترفها ستالين من حلال الـ NKVD وهذا الخطاب لم يساعد فقط في اطلاق الهجوم على الستالينية وأتباعها الذين كانوا مازالوا في الحكومة بل كان يستهدف أيضاً تبرير أعمال التطهير الجديدة في هيئات الأمن القائمة آنئذ في الدولة والتي كان عليه أن يخضعها لسيطرته لتقوية موقفه كدكتاتور.

ولما كان خروتشوف يخشى أن يعطي الجمهور السوفييتي والعالم الخارجي الانطباع بأن الفترة الجديدة من الشرعية الاشتراكية آخذة في الأفول، فإنه اتخذ تبعاً لذلك خطوات شتى لإزالة صورة جهاز الأمن بأنه هيئة قمع تنفيذية. وتمثلت إحدى هذه الخطوات في إعلان الثالث من مارس عام ١٩٦٢ بأن وزارة الشؤون الداخلية (MVD) أصبحت تسمى الآن وزارة القانون العام والنظام، ولكنه لم يوضح بالضبط ما سوف تفعله الوزارة الجديدة بالرغم من انه تعهد بأنه لن يجري إقامة أي محاكمات أخرى يدان فيها المواطنون السوفييت سراً.

إلا أن أنظمة المراقبة الداخلية ظلت قائمة وإن كانت بأشكال جديدة، فعلى سبيل المثال فإنه بموجب مرسوم صادر في الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٢ تمّت إقامة شبكة مراقبة معقدة قالت صحيفة نيويورك تايمز في التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٢ انها سوف تجعل من كل عامل في أي عمل رقيباً على تنفيذ توجيهات الحزب والحكومة به.

وتعليقاً على هذا المرسوم أشارت صحيفة برافدا إلى ما سبق ذلك من سوء الرقابة على أعمال التلفيق والسرقة والرشاوى والبيروقراطية. وقالت إن النظام الجديد سوف يكون سلاحاً حاداً ضد الروتين الحكومي وسوء استخدام السلطة والمتلاعبين بالثروة القومية.

وسميت الوكالة الجديدة لجنة الرقابة بالحزب والدولة. وبالنظر إلى كثرة الرقباء الذين يعملون في مجال هذه الفئات الواسعة من الجنايات والجنح كان من الممكن أن يزج بأي إنسان في السجن في أي وقت.

والحق ان الصحف كانت مليئة بآخر التقارير عن أن المحاكم في الاتحاد السوفييتي حكمت بالإعدام أو السجن مدى الحياة على الكثيرين من المتهمين الذين ينظر إلى جرائمهم في الولايات المتحدة على أنها جرائم جنح.

وفي الخامس من فبراير علمنا على سبيل المثال أن المدير التنفيذي والمدير الفني لمطعم محطة السكة الحديد في سفيردلوفسك Sverdlovsk حكم عليهما بالإعدام لاختراعهما واستخدامهما آلة (مشواة) لقلي اللحم والحيوانات بما يستلزم جرامين أو ثلاثة جرامات أقل من الدهن المقرر في القواعد.

وكان الرجلان يدسان الفرق في جيبهما ويستغفلان الحكومة في أربعمائة روبية شهرياً. ومن الأمور المختلطة اختلاطاً مزعجاً والسائدة في بعض البلاد الآن أنها قد تحكم بالإعدام في مثل هذه الجرائم وتدعو المواطن العادي للتعاون مع الشرطة السرية للكشف عنها.

ثم إن الكسندر ن. شيليبين Alexander N. Shelepin الذي عينته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي رئيساً لوكالة الرقابة الجديدة هذه، خدم مرة رئيساً للـ KGB خلفاً للجنرال إيفان سيروف Ivan Serov في عام ١٩٥٨.

إلا أن كل هذه التعديلات وعمليات التطهير والتغييرات التنظيمية لم يكن لها فيما يبدو إلا أثر طفيف يمكن ملاحظته على أهداف وأساليب وقدرات ذلك القسم من جهاز

الأمن السوفييتي الذي يعنينا في المقام الأول ـ وهو الذراع الخارجية. فعلى مدار أعوامه الخمسة والأربعين قام هذا الجهاز السري العالمي النشاط بتجميع كم هائل من المعلومات والخبرات وقد تم تجريب أساليبه من ناحية ملاءمتها في توسيع نطاق الأهداف السوفييتية في شتى أنحاء العالم. وقد طلب تسليم وثائقه سالمة من أي أذى في جميع فترات الصراع على السلطة، وبين صفوفه ضباط مخابرات (ممن نجوا من عمليات التطهير) لهم خبرة عشرين إلى ثلاثين عاماً، ومدرج في قوائمهم عملاء ومصادر معلومات منتظمين ومحنكين ينتشرون في جميع أنحاء العالم، والكثير منهم ما زال نشيطاً منذ الثلاثينات.

ولهذا الجهاز أعرافه التي ترجع إلى أيام القيصر.

وفي العشرين من ديسمبر عام ١٩٦٢ ظهرت في صحيفة برافدا مقالة باسم رئيس جهاز أمن الدولة السوفييتي KGB ـ أم سيميتشاستني Semichastny بدأت بهذه الكلمات «قبل خمسة وأربعين عاماً من اليوم، وبمبادرة من فلاديمير ايليتش لينين «Vladimir Ilitch Lenin». ومضت المقالة تصف تأسيس أول جهاز للأمن السوفييتي، التشيكا Cheka في عام ١٩١٧، وأخذت في تلخيص تقلبات الأعوام الخمسة والأربعين في الشرطة السوفييتية وتاريخ المخابرات، وإذا كانت المقالة تهدف دون شك إلى تحسين الصورة العامة لهذه المؤسسة المرهوبة والكريهة، فإن أهميتها بالنسبة للمراقب الأجنبي تكمن في الاعتراف الضمني بأنه بالرغم من تغيير الأسماء والقيادات فإن السوفييت ينظرون فعلاً إلى هذه المنظمة على أنها كل محدد وغير متقطع من يوم إنشائها.

لقد قام الثوريون الروس في أواخر القرن الـ ١٩ وأوائل القرن العشرين في محاولة للتهرب من عمليات الكشف والاعتقال على يد «الأوكرانا» Okharan بتطوير الأساليب التآمرية التي أمكن للسوفييت أن يفيدوا منها على هذا النحو وقت الحاجة فيما بعد.

فالحيل المعقدة وغير المباشرة من قبل، إخفاء ونقل الرسائل وتزييف المستندات، واستخدام وسائط غير ضارة بين الأطراف المشبوهة بحيث لا يتم تعريف أحدها للآخر أو يسمح لكليهما برؤية بعضهما البعض، كل هذه كانت أساليب حياة تم تطويرها بعد مواجهات وكثير من الخسائر على يد شرطة القيصر، وحينما أقام السوفييت فيما بعد جهاز مخابراتهم كانت هذه هي الحيل التي علموها لعملائهم لمراوغة الشرطة في البلدان الأخرى. بل إن الكلمات التي استخدمها البلاشفة أيام كان نشاطهم غير مشروع قبل عام ١٩١٧ كنوع من العامية المبتذلة يستخدم بين الارهابيين،

كاستخدام كلمة OAK أي شجرة البلوط الصغيرة لتدل على سقوط حرف ميت، أصبح في بعض الأحيان الاصطلاح المستخدم رسمياً في جهاز الأمن السوفييتي.

وغالباً ما يثور في أذهان المراقبين الغربيين تساؤل عما إذا كانت الصراعات الداخلية على السلطة ـ وهي صراعات شائعة في العادة داخل هيكل السلطة في الاتحاد السوفييتي ـ ستضر بمركز وسلطات الـ KGB باعتباره أكثر الهيئات تميزاً في الدولة السوفييتية، ولست أعني فقط إمكان استبعاد كبار العاملين فيه أو حتى إعدامهم كما حدث لرؤسائه السابقين يزوف Yezhno وياجودا Yagoda وبريا Beria وإنما اعني أكثر من ذلك إمكان تطهير جميع كوادر الجهاز وإجراء خفض حاد في سائر العناصر البارزة من الدولة. والمنافس الرئيسي على السلطة هو الجيش الذي كان يخضع من حين لآخر على مدار التاريخ السوفييتي للتقليل من منزلته من قبل الدكتاتور الذي يميل إلى جهاز الأمن بالدولة الذي هو أداته الشخصية والتي يستطيع استخدامها في مراقبة الجيش.

أجهزة المخابرات عن التابعين الأوروبيين والصين الشيوعية

قام جهاز الأمن بالدولة السوفييتية على تأسيس وتنظيم وتدريب أجهزة الأمن والمخابرات في الدول الأوروبية التابعة لروسيا السلوفييتية، وما يزال حتى اليوم يشرف على هذه الأجهزة.

ويعني هذا أن هذه الأجهزة هي صور مصغرة للـ KGB وأحياناً ما تعرف بذلك في داخل أوساطها. فما هي إلا صنيعة السوفييت بالكامل ومرآة لهم في الهيكل، وأساليبها هي ثمار الخبرة الطويلة لرفاقهم السوفييت الكبار وأهدافها الرئيسية مملاة من السوفييت، بالرغم من أنه يسمح لها بمبادرات معينة ومحدودة في الشؤون المرتبطة بالأمن «الداخلي» لدولها، فالبولنديون والتشيكيون على سبيل المثال يقومون بالعمليات التي تهدف إلى اكتشاف موقع عمليات التجسس الموجهة ضد اقاليمها الوطنية. وإذا حدث خلال ذلك أن تمكنت هذه الأجهزة من اكتشاف عميل مخلص يبدي مثلاً استعداداً أولياً للنفاذ إلى أوساط حكومية غربية فإن من المرجح جداً أن السوفييت سوف يتسلمونه ويشغلونه لحسابهم وعلى جهاز المخابرات التابع أن يبتسم لذلك ويتحمل.

وهذا ما حدث مع هاري هوفتون Harry Houghton الذي جند في البداية لحساب المخابرات البولندية حينما كان مقيماً في السفارة البريطانية في وارسو، وحينما أعيد إلى لندن وعين للعمل في الأدميرالية (السلاح البحري) أدركالسوفييت الفرصة التي كانت أهم من أن يتعامل معها البولنديون فتسلموا هذا العميل لحسابهم ولم تعد المخابرات البولندية تسمع عن هوفتون ثانية حتى ظهر اسمه في الصحف مع نبأ اعتقاله.

ومن البداية عمل السوفييت على الامساك بخناق هذه الأجهزة حيث جعلوا التعيين في الوظائف العليا بها قصراً على أشخاص كانوا عملاء قدامى للسوفييت، وقد جرى تدريبهم في موسكو، بعد الحرب العالمية الثانية. وعلى ذلك فصلب جهاز المخابرات البولندية الحالي على سبيل المثال يتكون من شيوعيين بولنديين كانوا فروا إلى روسيا في عام ١٩٣٩ وعادوا إلى بولندا عام ١٩٤٤ بوحدات عسكرية بولندية مصاحبة للجيش الأحمر.

وكان هؤلاء قد قضوا أغلب سني الحرب في موسكو يتدربون على يد السوفييت للوظائف المستقبلية في جهاز المخابرات البولندية الذي كان مجرد فكرة لا حقيقة قائمة. أما الأفراد الصغار فإنهم يخضعون لرقابة دقيقة من قبل السوفييت قبل قبول تعيينهم للعمل في أي من الأجهزة التابعة.

وأكثر من ذلك ان السوفييت يديرون اليوم ويوجهون الأجهزة التابعة وليس عن بعد بل عن قرب، وهم يقومون بذلك من خلال ما يعرف بالشبكة الاستشارية، إذ يتم تعيين مستشار سوفييتي في كل الأقسام المهمة تقريباً من أجهزة المخابرات التابعة وليكن ذلك في براغ أو وارسو أو بوخارست أو أي عاصمة تابعة أخرى. والمفروض أن هذا المستشار يطلع على كل المواد المهمة المتعلقة بما يجري أداؤه من أعمال ولا بد أن يبدي رضاه عن جميع الاجراءات التنفيذية الهامة. وفي جميع الحالات تكون لهذا المستشار الكلمة النهائية.

وبنظرة جانبية إلى العلاقات السوفييتية مع التابعين يبدو من المثير أن نذكر أن السوفييت لا يعتمدون كثيراً على هؤلاء المستشارين في مراقبة أجهزة المخابرات التابعة لا لأنهم غير أكفاء ولكن لأن الأجهزة التابعة ليست موضع ثقة الأسياد السوفييت، وحتى لا تفلت الأمور من هذه الأجهزة فإن السوفييت يعمدون إلى التجنيد السري لضباط المخابرات في الأجهزة التابعة ممن بمقدورهم أن يمدوهم بمعلومات حول الخطط والأفراد والصراعات القائمة في الإدارة المحلية وأحوال السخط وما أشبه مما قد لا يدخل في دائرة اهتمام المستشار.

وبينما لا يمكن للسوفييت فعلاً أن يثقوا في اتباعهم فإنهم يستخدمونهم لاجتذاب العملاء المتكررين حين يكون التكرار مفيداً، إذ إن السوفييت أدركوا بسرعة على سبيل المثال أن الأعداد الكبيرة جداً من الأشخاص ذوي الأصل البولندي أو التشيكي أو المجري المقيمين في أوروبا أو كندا أو الولايات المتحدة يشكلون نظرياً احتياطات ممكنة من العملاء يمكن لأجهزة المخابرات التابعة الاتصال بها على نحو أسهل بكثير مما هو بالنسبة للسوفييت وذلك لاعتبارات الخلفية العرقية والروابط

الأسرية أو العاطفية الأخرى بالبلد الأم، وغير ذلك من الاعتبارات، ومن ثم نتبين أن محاولات تجنيد أشخاص أصلهم من أوروبا الوسطى أو البلقان هنا أو في الخارج لحساب شبكات التجسس الشيوعيـة، كانت تتم عن طريق أفراد من أجهزة المخابرات التابعة.

أما كون الآخرين ووجهوا بالصدود في أغلب الحالات فمرده إلى الاحساس بالانتماء عند مواطن الجيل الأول أو الثاني في الاتحاد السوفييتي وسائر دول حلف الأطلنطي.

أما الصين ـ وليست تابعة للاتحاد السوفييتي شأن الدول الأصغر في أوروبا الشرقية ـ فلها جهاز مخابرات خاص بها ونظام أمن لا يخدم بأية حال الـ KGB.

وقد كان للسوفييت في مجال المخابرات كما في المجالات الفنية والعلمية مستشارون رابطوا لفترة طويلة في الصين، ولكنهم كانوا مستشارين فعلاً وليسوا من صنف المشرفين الذين عرضت لهم من قبل. ولقد انقسم الجانبان لزمن طويل ومن غير المحتمل اليوم بالنظر إلى الشقاق الصيني السوفييتي أن يكون هناك إلا تعاون وتنسيق اسميان بين جهازي المخابرات في كل من الصين الشيوعية والاتحاد السوفييتي.

والحق اننا نستطيع القول دون مخاطرة بأن كلاً من البلدين يستخدم جهاز مخابراته عيناً على الآخر. ونحن لم نبدأ حتى الآن في النظر إلى شبكة التجسس الصينية الشيوعية على أنها تمثل خطراً جسيماً على أمننا في الولايات المتحدة بالرغم من أنها قد تصبح أداة مهولة لأعمال التجسس والتخريب في الغرب خلال السنوات القادمة، كما هو شأنها الآن بالفعل في آسيا والهادي. والصينيون بالطبع يواجهون نقطة ضعف في العمل ضدنا هي نفس نقطة الضعف في عملنا ضدهم. وذلك أن الفروق الطبيعية الجسمانية والثقافية تجعل من الصعب تماماً إخفاء حقيقة الأصل العرقي لضباط وعملاء المخابرات عند أي من الجانبين.

وإذا كان أحد الأوكرانيين قد تمكن بالتدريب الكافي والوثائق الملائمة ـ من تقديم نفسه في انجلترا ككندي من أصل أنجلوسكسوني واسمه جوردن لونسديل Gordon Lonsdale ولكن مثل هذا الأمر يستحيل فعله بالنسبة لشخص صيني. والصين تستطيع الافادة من ميزة الروابط العرقية في المناطق التي يكثر فيها أعداء الصينيين المقيمين كهاواي ومالايا... الخ.

وأهم العمليات الفعلية في مناطق الغرب هي التي يمكن أن يقوم بها الصينيون الآن في أمريكا الجنوبية، حيث إن الاتجاه الحماسي الأكبر لدى التجمعات الشيوعية

المحلية يرحب بهم وإذا نجح الصينيون في تجنيد غربيين من هذه المناطق من ذوي الأصل الاسباني كعملاء على المدى البعيد فإنها ستكون البداية التي يمكن لهم معها أن ينفذوا إلى الولايات المتحدة والدول الأوروبية بمثل هؤلاء العملاء الذين سيكون من غير الممكن معرفة أنهم عملاء صينيون بنفس القدر الذي لم يعرف به أن لونسديل Lonsdale كان عميلاً للسوفييت.

ضابط المخابرات السوفييتي

خرجت من خبراتي الخاصة بانطباع أن ضابط المخابرات السوفييتي يمثل الإنسان السوفييتي في أنقى وانجح صوره. وهذا يدهشني كثيراً باعتباره أهم شيء فيه .وباعتباره أهم خاصية من خصائصه كممارس لمهنة المخابرات نفسها.

فالضابط السوفييتي يبدو كما لو كان نوعاً من ثمار النظام السوفييتي النهائية انموذجاً للعقلية السوفييتية بمختلف مستوياتها.

فهو يلقن القضية تلقينا أعمى لا جدال فيه، ويشرب المعتقدات السياسية والفلسفية للشيوعية تماماً ويشرب الدوافع الأساسية النابعة من هذه المعتقدات التي تعتمد الغايات فحسب وأي وسيلة لتحقيقها فلها ما يبررها، وبما أن مدخل السوفييت الراسخ إلى معالجة مشكلات الحياة والسياسة هو المنهج التآمري، فليس مفاجأة أن هذا المنهج يتحقق تماماً في عمل المخابرات.

وضابط المخابرات السوفييتي يخضع طوال حياته الوظيفية لنظام صارم. ولما كان لا بد له من أن يعرف هذا النظام ليكون كذلك فيجب أن يتخرج من مدرسة حديدية. فهو على أحد الجانبين ينتمي إلى نخبة له بها مكانة وسلطة من نوع خاص جداً.

وقد يعمل كسائق للسفير ولكنه قد يتمتع بمكانة سرية أعلى من السفير وبسلطة أكبر حيث تجدي السلطة.

وعلى الجانب الآخر إذا وقع في خطأ فلن يحميه موقعه ولا مركزه ولا إنجازاته الماضية، فحينما ينكشف أمر ضابط المخابرات السوفييتية أو يقع عملاؤه في دائرة مراقبة أخرى داخل منطقته، فله أن يتوقع النزول إلى رتبه أدنى أو الطرد أو حتى السجن، وفي أيام ستالين كان يقتل رمياً بالرصاص.

وليس من دليل أوضح على اتجاه القسوة إزاء ضابط المخابرات السوفييتية من القصة التي رواها احد رؤساء المخابرات على عهد ستالين وهو الجنرال في. اس. أباكوموف V.S.Abakumov: ففي أيام الحرب عزلت أخت أباكوموف في

مكان ما في روسيا بتهمة التلاعب في السوق السوداء. ونظراً لقرابتها من هذا الضابط القوي في هيكل الشرطة السرية، فإن مسؤولي الشرطة بعثوا برسالة إلى أباكوموف يسألونه عن كيفية تكييف القضية وكانوا يتوقعون منه أن يطلب إسقاط التهم الموجهة إليها وبدلاً من ذلك فقد ذكر عنه أنه كتب على نفس المذكرة المرسلة إليه «لماذا تسألونني؟ ألستم تعرفون واجبكم؟ إن التلاعب في أثناء الحرب خيانة عظمى، اقتلوها رمياً بالرصاص».

والجانب المثير في حياة أباكوموف هو أنه كرئيسه بيريا Beria كان يدير ما يوصف بأنه «شبكة بيوت دعارة خاصة».

وواجه أباكوموف نفس مصير الكثير من ضباط المخابرات السوفييتية بعد موت ستالين وتصفية بيريا، وفي ذلك الوقت كان مسؤولاً عن قسم الأمن الداخلي السوفييتي الذي كان يحتفظ بملفات حول أعضاء الحكومة والحزب. وأعدم أباكوموف سراً وتم تقليص القسم بأكمله في عهد حكومة مالينكوف وكان هؤلاء يعرفون الكثير جداً. وبالرغم من فترات الهدوء في الحياة العامة في روسيا خروتشوف فإن «الفزع» ما زال يسود في أوساط المخابرات السوفييتية لأن هذه الذراع من السلطة السوفييتية التي تحتل الصدارة في زمن السلم لا يمكن أن تهدأ أو تضعف.

وفي روسيا السوفييتية، حيث جهاز المخابرات الخارجية والشرطة السرية الداخلية يمثلان عند المستويات العليا مجرد ذراعين منفصلين للـ KGB فإن أغلب الضباط يتناوبون الشكلين المختلفين من العمل.

ومن المعتاد أن يعينوا في مطلع حياتهم الوظيفية في مكتب إقليمي للشرطة السرية، وعادة ما يكون ذلك في ناحية من منطقة ليسوا من مواطنيها، وهنا تستلزم منهم مهام أعمالهم مبدئياً متابعة مصادر المعلومات من أفراد السكان المحليين بالإضافة إلى أداء هذه الوظيفة التي ترى الدولة السوفييتية أنها ضرورة لأمنها الداخلي، فإن العاملين في مثل هذه المراكز يتلقون أيضاً تدريباً وظيفياً في مبادىء التجسس والتجسس المضاد حتى يبلغوا مستوى لا تشكل فيه الأخطاء العابرة دماراً كبيـراً.

ولربما استمر الضباط الأقل موهبة في مثل هذه المراكز حيث يقضون الجزء الأكبر من حياتهم الوظيفية هناك، أما العاملون المتفوقون فينقلون مع مرور الوقت إلى رئاسة المخابرات، وحينما تتوفر لهم الخبرة الكافية ويعتقد أنهم خاضوا الاختبارات الملائمة ليصبحوا موضع الثقة من وجهة النظر الشيوعية فإنهم قد يرسلون أخيراً إلى مركز خارجي.

وهذا بيتر دريابين Peter Deriabin الذي تم تعيينه في فيينا في عام ١٩٥٤ يروي في كتابه «العالم السري» أنه بدأ عمله في الـ KGB بوظيفة في القسم المسؤول عن حماية أرواح كبار رجال الدولة السوفييت وقضى في هذا القسم خمس سنين ونجح أخيراً في الوصول إلى فرع قسم المخابرات الخارجية المسؤول عن العمليات في النمسا، وكان حرياً بهذا ـ كما هو الحال في معظم أجهزة المخابرات ـ أن يفتح الطريق أمامه بالتدريج نحو نقله إلى مكتب خارجي وليكن في فيينا كما تستدعي الضرورات المنطقية، ولكنه خدم في الـ KGB أكثر من ست سنين قبل أن يعهد إليه بعمل خارجي.

فالسوفييت يفضلون أن يبعثوا إلى الخارج بالأفراد ذوي الخبرة في مجال المخابرات الخارجية داخل روسيا السوفييتية وأن يتم ذلك لسبب وجيه.

وبينما كان هؤلاء العاملون يمضون أعواماً في وظائف تجعل من أولى مسؤولياتهم القبض على المناوئين للحكومة والنفاذ إلى أوساط المنشقين وتعقب الخارجين المشتبه في تعاونهم مع «الامبرياليين» فإنهم يكونون على وعي تام بالعوامل المساعدة لعقلية الشرطة السرية. وإذا ما انقلب الحال ووجدوا أنفسهم في بلاد أجنبية يديرون شبكات تجسس لحسابهم فعليهم أن يكونوا أسبق وأكثر دهاء من رجال الشرطة المحلية التي يعتبرون الآن الضحايا المحتملين لها.

وإذا عادوا من الخارج من رحلة عمل لم يثبتوا فيها تميزاً خاصاً فقد يعينون من جديد للعمل في أعمال إقليمية محلية.

فالسوفييت بذلك عندهم الحل الفصل في تقرير مصير الضباط غير الأكفاء أو من لا يؤدون أعمالهم على نحو فعال. وفي مقابل ذلك أنه لو أبدى هؤلاء الضباط أداء حسناً في الخارج فإنهم قد يرتقون درجات أعلى في السلم الإداري في قسم المخابرات الأجنبية الذي يعتبر أكثر فروع الجهاز تفضيلاً ومكانة.

والمواطن السوفييتي لا يتقدم عادة بطلب لشغل وظيفة في جهاز المخابرات بل يقع تحت المراقبة ثم يتم اختياره لذلك، أما الشباب المتألقون في مختلف المواقع، وليكن ذلك في الشؤون الخارجية والاقتصادية أو العلوم فيرشحون من قبل رؤسائهم في الحزب للعمل في المخابرات، ولكي ينال هؤلاء الرضا فلا بد أن يكونوا من أعضاء الحزب أنفسهم أو مرشحين لعضوية الحزب أو أعضاء في منظمة الشباب الكومسومول Komsomol وهي حزب شيوعي مصغر، ولا بد أن يتمتعوا بخلفية سياسية قوية بالمعايير الشيوعية التي تعني أنه لا يجوز أن تكون هناك أية أفكار بورجوازية فاسدة أو أي انحراف أو انشقاق في الأسرة الحالية أو عند الأسلاف.

أما الشباب الطموح والقادر على أن يسلك وظيفة في أي من فروع المخابرات السوفييتية فإنه محظوظ بالمعايير السوفييتية، إذ إن اختياره لهذا العمل يفتح أمامه أبواب «الطبقة الجديدة» الصفوة والنبل في الدولة السوفييتية الجديدة، وضباط المخابرات السوفييتية يصنفون وفقاً للرتب العسكرية ويعطون نفس الألقاب بالرغم من أنهم لا يستخدمون هذه الألقاب في أثناء العمل داخل البلاد، وهذا رودولف آبل Rudolf Abel الذي لعب دوره بنجاح كمصور في مؤسسة بروكلين، كان عقيداً في المخابرات السوفييتية، وعادة ما يكون رؤساء الأقسام الكبيرة من رتبة اللواء والفريق. ولكن الخدمة في جهازي الأمن والمخابرات السوفييتيين على عهد خروتشوف كانت تتجاوز غالباً مكانة الخدمة مع العسكريين، فضباط المخابرات السوفييت يتلقون جوائز مادية اكثر بكثير مما يعطي للرتب النظيرة لها في الهيكل الإداري الحكومي في الأقسام الأخرى، وهم يتمتعون بفرصة السفر وهي فرصة تتاح للقليل من المواطنين السوفييت. وأكثر من ذلك فإن عملاً من هذا النوع قد يفتح الطريق إلى وظيفة سياسية عالية ومركز هام في الحزب الشيوعي.

هذا هو نوع الرجال الذي من أمثلته تشامبرز وكلاوس فوتشن وروزبيرجرز وبوجيس وماكلين وجورج بليك وهوفتون وفاسال. لقد أحرز هؤلاء نجاحات مبهرة فما هي نقاط الضعف والقصور فيهم؟

إن جهاز المخابرات السوفييتي يعاني من نفس الضعف الأساسي في الهيكل الحكومي السوفييتي والمجتمع الشيوعي بعامة... فالفصل بين الفرد ومشاعره، وما ينتج عنه من تكرار عدم التقصير ووضعه في غير مكانه المناسب والطموحات المحيطة كلها أمور تخلق في الروسي السوفييتي افتقاده إلى عنصر المبادرة والايجابية وتثير فيه روح الاستياء والنقمة. والخدمة في الجهاز الحكومي السوفييتي لا تؤدي بالضبط إلى تنمية الفكر المستقل وخصائص الزعامة، فالمسؤول السوفييتي العادي في جهاز المخابرات كما هو في أي مكان آخر ليس ميالاً لتحمل المسؤولية أو المخاطرة بعمله، بل هناك اتجاه راسخ لتأدية المهام حرفياً للتكيف ومحاولة التنصل من المسؤولية الوظيفية إذا حدثت أخطاء.

والأهم من كل هذا أنه في كل مرة يبعث بها السوفييت بضابط مخابرات إلى الخارج فإنهم يعرضونه لمخاطر نفس الأجهزة المكلف بتدميرها. وإذا أصبح خالياً من الأوهام لأي سبب كان أو غير راض ، فإن اتصاله مع العالم الغربي يكون غالباً حافزاً له على بدء عملية السخط، وما زالت هناك أعداد متزايدة ومتنامية من ضباط المخابرات السوفييتية آخذة في القدوم إلى جانبنا مما يدل على أن المخابرات السوفييتية ليست متماسكة ومحصنة كما يود السوفييت أن يصوروها.

بعض الأساليب السوفييتية - القانونية وغير القانونية

لقد أشرت بالفعل إلى الأساليب «غير القانونية» في فصل سابق على أنها نوع من الاسفاف الـ «المعدل» أو «المعمول». وفي الطريقة السوفييتية لا يخرج العملاء فقط إلى الخارج باعتبارهم غير قانونيين بل ان الضباط العاملين انفسهم قد يفعلون ذلك، ففي العشرينات حينما كان السوفييت يديرون عمليات المخابرات من مؤسساتهم الدبلوماسية في الخارج فإن هذه العمليات التي لم تكن معقدة بأية حال، في ذلك الوقت، كانت تتعرض للمراقبة كثيراً بتأتي مخالفة لقواعد الشرطة المحلية حتى ان مركز شبكة التجسس كان يتم تعقبه إلى مكتب السفارة السوفييتية المحلية، وما يستجلبه ذلك من استدعاء أفراد المخابرات المرابطين هناك والإضرار في الغالب بالعلاقات السوفييتية مع البلاد الهامة كفرنسا وانجلترا وهي علاقات ـ لاعتبارات إقتصادية وغير ذلك ـ كان السوفييت يرغبون في استمرارها قدماً على أسس طيبة، وفي هذه الفترة ومع محاولة السوفييت الابقاء على التجسس والدبلوماسية للإفادة من مزايا كل منهما.

انتبه السوفييت إلى فكرة مؤداها إنشاء جهاز تجسس مزدوج في كل دولة، ففي كل سفارة كان ما زال هناك ضباط مخابرات ولكن كان عليهم أن يتقيدوا ـ إلا في حالات طارئة ـ بالعمليات «النظيفة» التي لدي منها الكثير لأرويه فيما بعد ـ ويسمي السوفييت هذه الوحدة باسم «Legal residentura». أما في خارج السفارة وتحت ستار العمل غير الضار في مكتبة أو أستوديو أو ما اشبه كان يقام مركز آخر تماماً مخصص للعمليات «القذرة» وكان هذا هو مقر الرئاسة «residentura» غير القانونية المكونة أساساً من ضباط تم تحويلهم بدقة وعلى مدار سنوات إلى شخصيات يستحيل في الأغلب معرفة أنهم رعايا سوفييت أو أفراد مخابرات. ومن ثم فلن يكون هناك داع للتوجه إلى مؤسسة دبلوماسية سوفييتية لإحراجها أو الإساءة إلى مصداقيتها.

والمبدأ الذي يحكم هذا الأسلوب المزدوج هو الا يحتاج أي من المركزين إلى أي شيء يربطه بالآخر إلا في حالات الطوارىء. فقد كان لكل مركز اتصالاته مع موسكو حيث يتلقى الأوامر من هناك فقط. وكانت الـ «residentura» القانونية تستخدم القنوات الدبلوماسية في الاتصال.

أما غير القانونية فكانت لها أجهزة لاسلكية خاصة بها، وهو ترتيب بالغ الخطورة والصعوبة، وبسبب هذه الأجهزة السرية انتهت معظم شبكات التجسس السوفييتية الكبرى أثناء الحرب، إلى كارثة. والفرد الذي يتم اختياره للعمل غير القانوني بأي صورة من صوره يتم إرساله للحياة في الخارج عدداً من السنين تكفي

لإلمامه الكامل بلغة وأسلوب المعيشة في البلد الآخر، ولربما يحصل على المواطنة في هذا البلد. ولكنه في خلال هذه الفترة لا تسند إليه أية مهام مخابرات على الاطلاق ولا يفعل أي شيء يثير الاشتباه به، وحينما يصل إلى درجة التكيف الكافية مع هذا البلد يعود إلى الاتحاد السوفييتي ليتدرب ويتعرف على مهمته الاستخبارية.

وبعد حين يرسل إلى البلد المستهدف الذي قد يكون نفس البلد الذي عاش فيه أو بلد آخر، والأمر الذي يعول عليه هو أن يكون من غير الممكن معرفة أنه مواطن سوفييتي أو من مواطني أوروبا الشرقية، وليكن ألمانياً أو من الدول الاسكندنافية أو دول أمريكا الجنوبية بحكم ما يحمل من أوراق رسمية أو طريقة كلامه وسلوكه.

ومن أجل توفير المستندات اللازمة لغير القانونيين فإن السوفييت يستفيدون أحياناً من أوراق أسرة اختفت حديثاً. وعلى سبيل المثال فبعد تحرير دول البلطيق في الحرب العالمية الأولى عاد كثيرون من الأمريكيين من أصل لتواني إلى موطنهم ومعهم أطفالهم، وبعد عقدين من الزمان وحينما تمكن السوفييت من السيطرة على دول البلطيق راح الكثيرون من هؤلاء ضحية ما تلى ذلك من أعمال التصفية للمناهضين للشيوعية. ووقعت أوراقهم التي تضم شهادات ميلاد لأطفالهم الأمريكيين المولد ـ في أيدي الشرطة السوفييتية، وفي وقت لاحق تبين للـ KGB أن هذه الأوراق مفيدة للغاية في تزويد عملائهم بجوازات سفر أمريكية لا زيف فيها.

وفي معظم البلدان الغربية تُسهِّل الاجراءات غير المحكمة في إصدار شهادات ميلاد مزدوجة وشهادات زواج ووفاة.. الخ نسبياً على أجهزة المخابرات المعادية في إعداد الأوراق الرسمية اللازمة لعملائهم، وهذا الأمر جرى استغلاله من قبل السوفييت مراراً. ومن المفيد للأمن الغربي تصحيح هذا الوضع على نحو دقيق.

ونظراً لأن هؤلاء العاملين «غير القانونيين» يحسنون التمويه ويصعب بالتالي كشفهم فإنهم يشكلون أقوى المخاطر على الأمن في البلدان التي يعملون ضدها. وهناك من الشواهد القوية ما يبرهن على أن السوفييت ما زالوا يعملون في تخريج مثل هؤلاء العاملين غير القانونيين بمعدل متزايد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وهؤلاء على العموم يجري تشغيلهم في وظائف إشرافية لإدارة شبكات التجسس أكثر من تشغيلهم في وظائف النفاذ التي تزيد من خطورة اكتشافهم. ومع ذلك وبالرغم من طول الفترات التي يستغرقها السوفييت في خلق هذه العناصر غير القانونية فإنه تم الكشف والقبض على عدد منهم من ذوي الرتب العالية عن طريق المخابرات الغربية في السنوات الأخيرة.

ففي عام ١٩٥٧ قبض على العقيد رودولف آبل Rudolf Abel واسمه المستعار اميل آر جولدفوس Emil R. Goldfus ومثل أمام القضاء وصدر ضده حكم ولكنه تم تسليمه عام ١٩٦٢ بعد أن قضى في السجن خمس سنوات وذلك في اطار عملية تبادل مع الطيار فرانسيس جاري باورز الذي أسقطت طائرته التي كانت من طراز يو ـ ٢ «U-2». وفي أوائل عام ١٩٦١ قبض البريطانيون على كونون مولودي «Conon Molody» واسمه المستعار جوردن لونسديل «Gordon Lonsdale» في لندن ومعه أربعة عملاء سوفييت آخرين، وذلك فيما أصبح يعرف باسمه في قضية الأسرار البحرية، وحكم على لونسديل بالسجن خمساً وعشرين عاماً، ما زال يقضيها حتى الآن. وبالرغم من جنسية لونسديل الكندية فإن السوفييت لم يستخدموه في كندا إذ كان سيتعرض للقاءات عرضية مع بني وطنه. ولكنه في انجلترا وباعتباره كندياً فكان من المنتظر أن يحظى بالقبول التام وألا يكون موضع استطلاع كبير بشأن تفصيل حياته السابقة.

وحينما يتخطى جهاز المخابرات جميع المشكلات القائمة أمام إعادة تشكيل وتكوين الفرد بما يمكنه من النجاح في مهمته وإذابة نفسه في الزحام داخل بلد آخر، فمن الطبيعي أنه يفعل ذلك متوقعاً أن هذا الإنسان سيثبت في مكانه وسيظل نشطاً ومفيداً لفترة طويلة من الزمان. وليس هنا مقام الحديث عن النمط الشائع بين المسؤولين في أغلب الأجهزة الدبلوماسية وأجهزة الاستخبارات، كما أنه ولدواع مختلفة فإنه لو كان للعامل غير القانوني أسرة فإن الأسرة لا تصحبه إذ ليس ممكناً أيضاً «تحويل» أو «تعديل» الزوجات أو الأطفال، فليذهب إذن بمفرده، بل ان اتصالاته بالزوجة والأطفال ينبغي للضرورة أن تكون محدودة وأن تتم من خلال قنوات سرية، ومجرد نظرة لآبل نجد أنه ليس سوى إنسان آلي الحركة كتوم وهذه نظرة تؤكدها خطابات وجدت بحوزته وكانت كتبتها له زوجته وابنته. لقد قضى آبل هذا تسع سنين في عمله قبل أن يقبض عليه. وليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأنه لم يكن ليستمر في هذا العمل سنين طويلة لو لم يسلم أحد زملائه من غير القانونيين أيضاً نفسه للولايات المتحدة الأمريكية.

وفي بعض الأحيان بالطبع يقدم ستار السفارة أو البعثة التجارية مزايا للمركز «القانوني» لا تتوفر لغير القانوني مثل «العلاقات التجارية» أو الاجتماعية. هذه الأوساط التي لا يستطيع غير القانوني أن يحتك بها.

فلو كان السوفييت مهتمين على سبيل المثال بإيجاد عميل في بلد عربي معين يستطيع مكاتبتهم حول صناعة حساسة، فإن بعثة التجارة السوفييتية تعلن أنها مهتمة بشراء مواد معينة غير استراتيجية مصنعة في قطاع الصناعة هذه أو قطاع آخر

وثيق الصلة به، وسيلتفت أصحاب المصانع أو الوسطاء إلى هذا الاعلان وسوف يتوجهون لزيارة البعثة التجارية لمناقشة هذا الأمر وسوف يطلب إليهم أن يملأوا استمارات بالبيانات الشخصية العملية والأسماء التي يمكن الرجوع إليها والتقارير المالية إلى غير ذلك.

ويقوم بالنظر إلى كل هذه المعلومات ضابط المخابرات المرابط في البعثة وإذا ما بدا في أي من المرشحين خير يرجى من خلال تاريخه الشخصي أو جرائمه أو اتجاهاته السياسية أو غير السياسية، أو حاجته إلى المال، أو إمكانية ابتزازه، فإن السوفييت يسعون إلى مصادقته والتقرب منه متظاهرين بأن إجراءات الصفقة تسير في بطء. وإلى هذا الوقت لا يظهر أي دليل على وجود تجسس، كما لا يبدو أن هناك شيئاً مخالفاً للقانون.

وبالمثل، فإذا حدث لضابط المخابرات السوفييتية الذي يعمل من داخل السفارة وينتمي للمركز «القانوني» Residentura وقابل شخصيات مهمة أو ذات وزن من المنطقة المحلية خلال حفلات عشاء أو أية مناسبات اجتماعية أخرى يقيمها السوفييت الآن لخلق انطباعات معينة معقدة «ودية» بخلاف مسلكهم السابق خلال العقود الماضية، فإن من المحتمل جداً أن يقوم هذا الضابط بتطوير هذه «الصداقات» أو حتى المغامرة بتجنيدها في وقت لاحق، وبرغم ذلك فإن بعض المحاولات الأخيرة من هذا النوع للضباط السوفييت وبخاصة من خلال أفراد الأمم المتحدة، كانت من السذاجة بحيث تجعل المرء يتساءل عما إذا كان السوفييت يستخدمون الأمم المتحدة كمدرسة لضباط مخابراتهم. ومن الواضح أيضاً من بعض الحالات الأخيرة أن السوفييت ما زالوا غير قادرين على إقامة عناصر «غير قانونية» في بلدان معينة، ومن ثم يضطرون إلى التراجع للاعتماد على العناصر «القانونية» حتى في العمليات المحفوفة بالمخاطر.

مكافحة التجسس

اليوم وفي هذا العالم المدرك لأهمية الجاسوسنية يحاول كل طرف تعقيد مهمة الطرف الآخر في الحصول على معلوماته وذلك بغرض اجراءات أمنية لحماية معلوماته ومؤسساته الحيوية وموظفيه من اختراق العدو. هذه الاجراءات التي لا غنى عنها تمثل تحدياً للجانب الآخر، فلكي يحاول اختراقها لا بد له من أن يخترع وسائل مضادة لها.

وإذا أرادت أي دولة حماية نفسها من انتهاك العدو بواسطة مخابراته فلا بد لها ليس فقط أن تراقب المسافرين الأجانب الذين يدخلون حدودها أو تراقب المناطق الحساسه على أرضها أو التأكد من ولاء موظفيها الذين يشغلون وظائف حساسة، بل لا بد لها أن تعرف ماذا تريد مخابرات الدولة الأخرى وكيف تتصرف، ونوعية الرجال الذين يعملون كعملاء لها ومن هم.

هذه العمليات تنتمي إلى حقل مكافحة المخابرات (المخابرات المضادة)، ومكافحة المخابرات هي عملية دفاعية هدفها الأساسي احباط عمليات التجسس عليها كما أن لها ميزة هامة وهي كشف اختراق العدو والخطط التحضيرية للعدو ضد الدولة، وبما أننا نعرف أهداف الشيوعية، فإن مكافحة المخابرات من جانبنا تهتم بكشف أسرار العدو والتخريب، ورغم أن هذه المعلومات ليست مخابرات إيجابية وليس لها أي هدف مفيد للحكومة في عملية صناعة السياسة إلا أنها تحذر الحكومة من اجتياح الأعداء للدولة والمكان أو الأماكن التي يستهدفها العدو والتي لها أهمية سياسية.

وفي عام ١٩٥٤ م كان لاكتشاف عملية شحن أسلحة سرية من تشيكوسلوفاكيا

إلى جواتيمالا أثره الكبير في تحذيرنا ولفت انتباهنا إلى أن هناك تأييداً ضخماً من السوفييت لهذه الدولة لتقوية النظام الشيوعي هناك.

إن مهمة التجسس المضاد موكلة إلى عدة وكالات أمريكية، كل واحدة لها مسؤولياتها الخاصة، فمثلاً FBI مكتب التحقيقات الفيدرالي يراقب الأنشطة المعادية للولايات المتحدة على أراضيها، أما CIA جهاز المخابرات المركزية الأمريكية فمهمته الأساسية هي مكافحة المخابرات خارج الولايات المتحدة، إذاً فهو مثل خط دفاعي ضد الجاسوسية الأمريكية. إنها تحاول مراقبة عمليات المخابرات المعادية قبل وصول العملاء إلى أهدافهم. وكل جناح من القوات المسلحة له ذراع من التجسس المضاد مهمته حماية مؤسساته الفنية وموظفيه في الوطن وخارجه من اختراق العدو.

إن تأثير هذا التقسيم يعتمد على تنسيق عدة وكالات وعلى سرعة نشر المعلومات عن التجسس المضاد من واحدة إلى أخرى.

لقد اعتمدت عملية القبض على الجاسوس السوفييتي الكولونيل رودولف آبل على التنسيق، وفي مايو عام ١٩٥٧ م كان رينو هايهانن، وهو رفيق حميم وشريك عمل لرودولف آبل، متجهاً إلى الاتحاد السوفييتي لتقديم تقريره القاضي بالتعاون معنا وهو في أوروبا الغربية، ثم قام بالاتصال بالمخابرات الأمريكية وقدم جواز سفر أمريكياً مزوراً، إن قصة هايهانن مع الجاسوسية تضمنت خصوصيات عن أرصدة سرية، اتصالات ما بين العملاء في منطقة عمله وبعض الملاحظات الخاصة بالكولونيل رودولف وقد تم ارسال هذه المعلومات فوراً إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي للتأكد من صحتها. وقد عاد هايهانن إلى الولايات المتحدة بمحض ارادته وأصبح الشاهد الأساسي في محاكمة آبل، وفور وصوله إلى أرضنا تحمّل المكتب الفيدرالي للتحقيقات مسؤوليته بينما استمرت المخابرات المركزية في مهمتها مع الجهات الأخرى.

إن أهداف الجاسوسية المضادة هي تحديد مكان العدو، والتعرف على العدو وتصيده. كلمة تصيد يمكن أن تأخذ أشكالاً كثيرة في الولايات المتحدة. ويمكن مكافحة الجاسوس المقبوض عليه من خلال القانون أيضاً، فأي ضابط مخابرات يقبض عليه متلبساً إذا لم يكن له حصانة دبلوماسية يمكن أن يحاكم قانونياً. أما إذا كانت له حصانة فإنه غالباً ما يطرد. ولكن هناك عدة أساليب أخرى لتحديد الجاسوس أولها خطر اكتشافه لأنه من المعروف أن أي جاسوس يمكن أن يقبض عليه بلا ضجة إذا ما اكتشف أمره.

إن مهمة الجاسوسية المضادة ضخمة ومتشعبة لأن السوفييت لا يستعملون فقط مخابراتهم ضدنا بل أيضاً يستعملون بولندا، تشيكوسلوفاكيا، المجر، رومانيا،

بلغاريا والذين لهم اساليب عدة للجاسوسية إن لم يكن في الشيوعية. أما عن عمليات الجاسوسية الشيوعية الصينية وعمليات الجاسوسية المضادة فإنها منفصلة عن السوفييت برغم أن عدداً كبيراً من موظفيهم درسوا وترعرعوا داخل المخابرات السوفييتية. ورغم أن هدف الجاسوسية المضادة هو هدف دفاعي إلا أن وسائله وسائل هجومية هدفها الأمثل هو كشف خطط العدو في مراحلها الأولى أكثر من كشفها بعد أن تبدأ بالتخريب، ولكي تصل إلى ذلك يجب أن تخترق الدوائر الداخلية على أعلى المستويات عند العدو حيث توضع الخطط ويتم اختيار العملاء وتدريبهم ومن الممكن اللجوء إلى آخرين من الجانب الآخر. ومن أهم وأشهر وأنجح القضايا لاختراق المخابرات هو قضية الفريد ريدل الذي كان يشغل منصب رئيس مكافحة الجاسوسية في جهاز المخابرات العسكرية للامبراطورية النمساوية منذ عام ١٩٠١ إلى ١٩٠٥ م ثم بعد ذلك ممثلها في براغ. وطبقاً للدلائل المتوفرة فإنه منذ عام ١٩٠٢ م إلى أن تم القبض عليه عام ١٩١٣ م فإن ريدل كان وكيلاً سرياً للروس، لأنه وقع في شباكهم في بداية عمله بالمخابرات وذلك بسبب طباعه واخلاقياته التي تتمثل في الشذوذ الجنسي وحبه الشديد للرشاوى. كما باع بعض معداته للايطاليين ولجهة أخرى في نفس الوقت، ولكن هذا لم يكن كل شيء فهو كضابط وقائد في المخابرات العسكرية كان عضواً في رئاسة أركان الجيش النمساوية المجرية وكان يمتلك السبل والطرق للوصول إلى خطط الحرب الخاصة بهذا الجيش المشترك واعطائها للروس.

ورغم أن ريدل تم القبض عليه قبل الحرب مباشرة فإن انتحاره بعد دعوة قواده له، مباشرة بعد اكتشاف خيانته، أوقف امكانية استجوابه وتحديد مدى الضرر الذي سببه، وقد أراد النمساويون التكتم على الأمر حتى انهم لم يعلموا به الامبراطور في البداية. ومن سخرية القدر، انه قد تم القبض على ريدل من خلال اجراء من اجراءات الجاسوسية المضادة الذي كان هو نفسه ينمّيه ويطوره عندما كان رئيساً لجهاز الجاسوسية المضادة - وهو الرقابة على البريد - حيث ضبط خطابان بهما كميات كبيرة من أوراق النقد في مكتب بريد فيينا، وربما أنهما مرسلان من مدينة على حدود شرق برشا فقد اعتبروهما من الأشياء التي تدعو إلى الشك، وقد زادت مراقبة البوليس النمساوي لأي شخص يأتي ويأخذ الخطابين على ثلاثة شهور. وأخيراً حضر ريدل لاستلامهما والباقي معروف. ومع ذلك فإنه للآن ما زال موظفو جهاز المخابرات المضادة الذين يدرسون القضية اليوم مندهشين من أن الروس وفي عملية بهذه الضخامة والأهمية لهم يلجأون لهذا الأسلوب المستهتر في توصيل النقود لعميلهم، خصوصاً أن الرقابة على البريد كانت واحدة من أهم أدوات وأساليب جهاز أوكرانا للمخابرات المضادة. ان حجم مؤسسات المخابرات الرئيسية اليوم تجعل من

المستحيل على الرئيس تولي جميع تفاصيل العمليات المختلفة التي تريدها الدولة المعادية وليس هذا فقط بل إن أي مقر لمؤسسة مخابرات غير قابل للاختراق وبالتالي فإن أي جهاز مضاد للجاسوسية يسعى دائماً وراء الأهداف السهلة التي تختص بمجال العمليات، هذه الأهداف معظمها مكاتب ووحدات المخابرات في الدول الأجنبية مثلاً، في السفارات والقنصليات والوفود التجارية والتي تستطيع أن تكفل لضابط المخابرات الحماية والحصانة الدبلوماسية ونوعاً من التغطية.

كيف يستطيع عميل جهاز مكافحة الجاسوسية (الجاسوسية المضادة) اختراق هدفه أو الوصول إلى هدفه، بأي وسيلة يستطيع أن ينفذ إلى موظفي جهاز مخابرات الدولة الأخرى؟ إحدى هذه الوسائل أن يكون العميل مزوداً بمعلومات خادعة يقدمها للطرف الآخر وبما أن معظم المخابرات الهامة في التاريخ الحديث قد جاءت عن طريق أشخاص مجهولين فإن أي جهاز مخابرات لا يستطيع أن يرفض أي معلومات تفرض عليه.

وطبعاً خلف الستائر الحديدية وفي معظم المنشآت الدبلوماسية في الجانب السوفييتي،وخارج هذه الستائر يكون عدم الثقة والشك في الغرباء كبيراً لدرجة أن الزائر مهما كانت درجة المعلومات التي سيقدمها لن يستطيع أن يتعدى موظف الاستقبال،وتعتمد قدرته على اقتحام الباب على نوعية المعلومات التي يعرضها. إن أي جهاز للمخابرات تواجهه مشكلة الكشف عن هذه العروض غير المطلوبة، هل هي لمتطوع له ولاء لمنظمة أخرى أو لعميل اختراق أرسل اليهم عن طريق المعسكر الآخر؟ إذا وفق جهاز الجاسوسية المضادة في زرع عميل له في جهاز العدو سيطلب من هذا العميل فور تعيينه واجبات حساسة وعليه أن يخطر منظمته أولاً بأول بنتائج هذه الواجبات. وقد استعمل السوفييت هذه الطريقة ضد أجهزة مخابرات الحلفاء في ألمانيا الغربية والنمسا في الخمسينات. وقد كان عدد اللاجئين من الغرب كبيراً لدرجة أنه كان من الضروري تعيين الأكثر تعليماً للمساعدة في التحقيق مع زملائهم اللاجئين وقد صمم السوفييت على الاستفادة من هذا الوضع وقد ادخلوا عملاءهم بذكاء ودهاء في قناة للاجئين وزودوهم بمعلومات عن الأحوال خلف الستائر الحديدية والتي تجعلهم يبدون على درجة كبيرة من الأهمية للغربيين وكانت كل مهمتهم هي ابلاغ السوفييت عن ليونة وسائلنا في معاملة اللاجئين، ومعرفة كل شيء عن موظفينا وايضاً وضع الأشخاص الذين يحتمل التأثير عليهم للعمل في المستقبل لحساب السوفييت، تحت المراقبة. ان تكتيك الاختراق هذا يمكن أن يستعمل للوصول إلى غرض آخر مختلف وهو ما يسمى (بالاستفزاز).

إن مصطلح «العميل الاستفزازي» يرجع في أصله إلى أيام الفرنسيين خلال

فترات القلاقل والاضطرابات ولكن عاد الروس يستعملونه، وكان أسلوباً من أهم أساليب أوكرانا في القضاء على الثورات والخارجين على النظام. يندس عميل في جماعة تخريبية ولا يكتفي بالابلاغ عن تحركاتهم للبوليس بل يحثهم على المضي قدماً في أشياء يستطيع البوليس من خلالها القبض عليهم بسهولة. ومن أهم وأقدر العملاء المستفزين في جهاز أوكرانا هو العميل «ازف» فقد ولد فكرة اعتقال الدوق الأكبر سيرجيس ووزير الداخلية بلاو وقد أعطت هذه الجرائم للزار الفرصة للقبض على الارهابيين وقد كان رومون ملينوفسكي، أحد أقرب المقربين إلى لينين من عام ١٩١٢ وحتى الثورة، وكان رومون هذا عميلاً في بوليس الزار وعميلاً استفزازياً مشكوكاً في أمره دائماً من جانب المقربين من لينين، وكان لينين دائم الدفاع عنه. وقد ساعد ملينوفسكي البوليس ولكن كانت مهمته الأساسية أكثر مسرحية فقد تم انتخابه ممثلاً لطائفة بوشنيك في البرلمان الروسي الدوما.

ويبقى السؤال الدائم لمن يكون ولاء هؤلاء العملاء المزدوجين مثل ازف وملينوفسكي؟ وفي هذه الأيام عندما نقرأ في الصحف عن طرد شخص من الدولة السوفييتية،فإن السبب يكون ملفقاً في معظم الاحيان ويكون ذلك رداً على طرد عميل سوفييتي من الولايات المتحدة أو بسبب الاستفزاز ويستمر هذا الروتين دائماً فمثلاً يأتي عضو من أعضاء الجماعات السرية ويتجه لنظام الحكم ويعطيه معلومات هامة ومن المحتمل أن يتقبل الهدف المعلومات ويستمر في مقابلة الذي يزوده بالمعلومات وخلال مقابلة من المقابلات يأتي البوليس ويقبض عليه (أي على الذي يزوده بالمعلومات) ويتهمه باعطاء معلومات لجهة أجنبية ومن المحتمل أن ينشر اسم الهدف في الصحف وإذا كان موظفاً رسمياً يطلب من سفارته ترحيله وبالطبع يكون الذي يزوده بالمعلومات هو المستفيد. وفي معظم الأحيان تكون هذه العمليات ملفقة ولكن العالم الذي يريد السوفييت التأثير عليه لا يعرف أن الروس ينتهزون أي فرصة لاتهام الغرب بالتجسس والتدخل في شؤونهم الدبلوماسية والدخول في خصوصيات الدول الاشتراكية المحبة للسلام.

ومن أهم سمات جهاز الجاسوسية المضادة هي العميل المزدوج. ففي منطقة مثل ألمانيا الغربية حيث توجد تكهنات فنية وعسكرية خاصة بألمانيا الغربية وقوات حلف شمال الأطلنطي ويوجد بعض من هؤلاء العملاء في الجانب السوفييتي لكن معظمهم يفضل أن يبقى على ما هو عليه والبعض الآخر يسلم نفسه لأنه يحب الحياة في الولايات المتحدة أو الغرب الذي يعتبر أكثر إشراقاً وجاذبية.

إن مهمة العميل المزدوج هي تزويد الجانب السوفييتي بمعلومات لا تضر على أمل أن يقوم السوفييت بتزويد هذا العميل بمعلومات لتنفيذها ولكن ماذا يريد العدو

بالتحديد منا؟ وهناك نوع نفيس من هؤلاء العملاء المزدوجين وهو الذي تتصل به مخابرات العدو لاجراء عملية لهم ويقوم بإبلاغ سلطاته بهدوء والمميزات هنا واضحة بالطبع.. أولاً فإن محاولة السوفييت تجنيد أمريكي معهم تؤكد أن هناك شيئاً هاماً في حقائبهم.. ثانياً ان هذا التصرف اللاارادي من هذا العميل في إخطار رؤسائه تدل على أنه جدير بالثقة ويطلب منه رؤساؤه الاستجابة لمطالب السوفييت وفي الوقت نفسه ابلاغهم بما يطلبونه منهم. كما يقوم رؤساؤه بتزويده بمعلومات يريدونها أن تصل إلى السوفييت ومن المحتمل أن تستمر هذه اللعبة إلى أن يبدأ السوفييت الشك في هذا العميل أو لا يستطيع هذا العميل تحمل هذا العبء كثيراً. أن مخرج هوليود الراحل بوريس موريس كان من هذا النوع فقد تعاون مع مكتب الاتحاد الفيدرالي لعدة سنوات وقد أدى تعاونه هذا إلى القبض على كثيرين منهم روبرت سوبلن. إن الاشراف أو المراقبة هو عمل من أعمال جهاز الجاسوسية المضادة ولكنه لا بد أن يتم بحذر شديد.

إن اي ضابط مخابرات يشعر أنه متابع يتخذ خطوات سريعة للهرب من البلاد، إن مهمة المراقبة في جهاز الجاسوسية المضادة لها وظيفتان، إذا كان الشخص يشتبه في أنه عميل عدو فإن تتبعه ومراقبته لمدة معينة سيؤديان إلى الوصول إلى تفاصيل عن مهمته وكيف يمثلها: ثانياً من النادر أن يعمل أي عميل بمفرده وهو بأي حال من الأحوال سيحاول الاتصال بمساعديه ومتابعة مصادره من الأشخاص الذين يعطونه المعلومات، إذا فإن مهمة المتابعة هنا ستكشف الشبكة التي ينتمي إليها هذا العميل والقنوات التي من خلالها يخطرهم بتقاريره. وقد كانت عملية المراقبة هي السبب الأساسي في النجاح البريطاني للكشف عن خمسة عملاء سوفييت في يناير ١٩٦١م فقد كان هاري هوغتون موظفاً في قيادة البحرية وشك المسؤولون في أنه يعطي معلومات عن قوة أجنبية خفية فقامت اسكتلنديارد بتتبعه ومراقبته في شارع من شوارع لندن حيث قابل شخصاً آخر لمدة قصيرة جداً حيث كان من المستحيل تحديد ما حدث بينهما ولكن تصرف الشخصين بحذر شديد وإدراكهما لاحتمال أن يكونا مراقبين أفهم رجال البوليس أنهم يسيرون على الطريق الصحيح، وقد جند قسم اسكتلنديارد فرقتين لمراقبة المشتبه بهما كل على حدة. وقد أوصلتهم هذه المراقبة الدقيقة إلى زوجين أمريكيين يديران مخزنا للكتب وقد كان من غير الممكن تحديد الدور الذي يقومان به، أو تأكيد هذا الدور. وفي مناسبة أخرى جاء هوغتون إلى لندن وبصحبة صديقته التي تعمل في نفس المؤسسة البحرية وقد وضعا تحت المراقبة وفي يوم من الأيام كانا يسيران في شارع من شوارع لندن يحملان حقيبة للتسوق وقابلا نفس الرجل الذي قابل هوغتون من قبل، وقبل أن يأخذ هذا الرجل الحقيبة منهما والتي من المؤكد انها أسلوب متبع بينهم يرسلون من

خلاله المعلومات تم القبض عليهم ثلاثتهم. هذا الرجل المجهول كان جوردون لورنسديل وهو عميل سوفييتي يحمل جواز سفر كندياً وهو الذي كان يدير العملية، وبعد عدة ساعات تم القبض على الزوجين الامريكيين اللذين تم ذكرهما سابقاً، واللذين كانا قد اختفيا بعد تطور الأحداث ضدهما وأخذ المكتب الفيدرالي للمباحث بالتحقيق والبحث عنهما وذلك لضلوعهما في شبكة الجاسوسية السوفييتية في الولايات المتحدة وكانا يديران جهاز ارسال في لندن لنقل معلومات لورنسديل إلى موسكو.

والتجسس المضاد مثل أكثر فروع المخابرات له مصادر فنية كثيرة وهو من بين الفروع التي كانت مسؤولة عن غيرها في الماضي في الكشف عن أعمال التجسس الخفية وهي عملية اعتراض وتحديد مكان أجهزة الارسال غير المشروعة والمعروفة باسم أجهزة البحث عن الاتجاه. وهي تحتوي على أجهزة الكترونية حساسة تقوم بتحديد مكان واتجاه اشارة الراديو عند تركيبها على أجهزة استقبال متحركة مثل سيارة أو شاحنة وذلك بتحديد ما إذا كانت الاشارة تقوى أم تضعف بينما يقوم المستقبل المتحرك بالتجول في المبنى للاستماع إلى ما تم تعريفه سابقاً بجهاز ارسال غير مشروع. وكل جهاز مشروع سواء أكان تجارياً أم عادياً مصرحاً به ومقيداً في أكثر دول العالم في الوقت الحالي، وفي هذه الدولة فإن اشارة النداء والموقع المحدد لجهاز الارسال مسجلة لدى جهاز الاتصالات الفيدرالي التي تراقب الموجات الهوائية في جميع الأوقات من أجل الاجراءات القانونية وهذا بدوره يؤدي إلى اكتشاف الذين لم يحاولوا التقدم للحصول على تصريح كما تؤدي أيضاً للكشف عن أجهزة الارسال الهوائية غير المشروعة وهذه يسهل التعرف عليها لأن برقيتها شفوية ولا تستخدم اشارات نداء، ومراقبة الاشارات المشتبه بها قد يكشف أيضاً أن الذي يقوم بادارتها لديه جدول محدد لارسالها عبر الهواء كما أنها لا تتنافى مع الحقيقة القائلة بأنه يبث ارساله إلى أجهزة أجنبية بترتيب مسبق. وعند هذه اللحظة يبدأ عمل جهاز تحديد الاتجاه، غير أن الصعوبة التي يمكن مواجهتها عند اقتفاء اثر الاشارة هو أن العميل يقوم بارسالها في الهواء لفترة قصيرة وذلك لأسباب واضحة، ويتم هذا في الوقت الذي يحاول فيه الخبراء الذين يعملون على جهاز تحديد الاتجاه المتحرك اقتفاء اشارة العميل عبر المدينة الكبيرة في موجات هوائية مزدحمة باشارات أخرى مما يؤدي إلى انتهاء العميل من ارسال شيفرته وإغلاق جهاز إرساله ولم يعد بإمكان جهاز مراقبة الاتجاه عمل أي شيء إلى أن يحاول العميل استخدام أجهزة أخرى خلال أيام تالية. وإذا كان السوفييت هم الذين وراء العملية فإن جدول الانتقال يكون صعب التحديد كما أن ذبذبات الانتقال تتغير من وقت لآخر.

ويكون الحل الوحيد لمقرات أجهزة الاتجاه أن تستمع لكل الاشارات المشكوك فيها وتلاحقها ولكن هنا يجب التنبه أيضاً إلى ان المختصيين قد توصلوا إلى تطورات جديدة لخداع الطرف الآخر. هناك طريقة سريعة جداً في النقل يستغرق خلالها الارسال غير الشرعي حوالى ٢٠ ثانية بحيث لا يستطيع جهاز متابعة الاتجاه في هذا الوقت القصير رصد المكان وتحديده. وخلال الحرب العالمية الثانية وقبل اختراع هذه الأساليب السريعة في النقل كان على جهاز متابعة الاتجاه في كلا الجانبين مسؤولية ضخمة في عمل جهاز المخابرات المضادة. كان مقر المخابرات البريطانية في لندن على اتصال بالمخابرات الهولندية عن طريق الراديو. وكان المركز الهولندي يرسل معلومات عن العسكرية الألمانية إلى لندن ومن عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٤٤ ارسل البريطانيون كميات ضخمة من الأسلحة إلى هولندا في أماكن متفق عليها من قبل وقد تم نسف الطائرات التي أوصلت الرجال والبضائع إلى هولندا، وفي أواخر عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ استطاعت وحدات جهاز المخابرات المضادة الألمانية في هولندا النجاح عن طريق أجهزة متابعة الاتجاه في تحديد سلسلة من أجهزة الراديو الهولندية غير المشروعة والقبض على من يستخدموها. وقد استبدل الألمان الأجهزة المضبوطة وأخطروا لندن أن الأجهزة القديمة استهلكت وأنهم زودوا بأجهزة جديدة وقد لعب النظام النازي دور المخابرات الهولندية عن هذا الطريق واستطاعوا أن يجنبوا أنفسهم الهلاك عن طريق تحديد جزء من جهة المخابرات. وقد انتهى تحكم النازية في عملية (نورث بول) الكتلة الشمالية عندما استطاع اثنان من العملاء المعتقلين الهرب إلى انجلترا. وقد استطاعت أجهزة متابعة الاتجاه الألمانية افشال الشبكات السوفييتية الرئيسية في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية واستطاعت محطات التتبع الألمانية التابعة لجهاز المخابرات المضادة تسجيل عدد من الرسائل غير الشرعية من أوروبا الغربية التي تدل أن بعض المعلومات تخرج من الأراضي الألمانية المحتلة، وقد أعطى السوفييت الفرصة للألمان لكي يكشفوهم وذلك لطول مدة الرسالة وقد استطاعت المخابرات الألمانية خلال عامي ٤١، ٤٢ تحديد ثلاث من أهم الوحدات في محطات الراديو السوفييتية غير الشرعية والقبض على جميع مستخدميها.

وقد كانت اثنتان من هذه المحطات في بلجيكا وأخرى في فرنسا. وقد استطاع الألمان تتبع هذه المحطات والقبض على مستخدميها وعندما كان يتم وقف محطة يتم اقناعهم بانشاء بقية المحطات فمثلاً بمساعدة مستخدمي محطة بلجيكا استطاع الألمان القبض على مجموعة أخرى في برلين لها مجموعة هارتاك التي تم وصفها في الفصل السابق ومثل قضية الكتلة الشمالية ترك الألمان بعض المحطات تعمل لبعض

الوقت لخداع السوفييت، ونتيجة هذه الخسائر ولأنه كان من الخطورة بل من الاستحالة تأسيس محطات غير شرعية جديدة للراديو في الأراضي الألمانية المحتلة ركّز السوفييت على جعل سويسرا مركزاً لاتصالاتهم، وبما أن السوفييت ليس لهم وجود دبلوماسي في سويسرا فإنه كان من الضروري اللجوء إلى محطات الراديو غير الشرعية. وقد استطاعت أجهزة متابعة الاتجاه السويسرية رصد معظم هذه المحطات غير الشرعية واغلاقها. وبما أن معظم عمل جهاز المخابرات المضادة اليومي ضخم ومرهق فإن عملياتها المعقدة تشبه لعبة ضخمة للشطرنج تستعمل أرض العالم كرقعة لها.

المتطوعون

إن نفاذنا إلى الأسرار من خلف الستائر الحديدية والحريرية أصبح أيسر بالنسبة للغرب لوجود المتطوعين الذين يصادفوننا في طريقنا فنحن لا يتعين علينا دائماً أن نتوجه إلى الهدف ولكنه غالباً ما يأتي إلينا عبر أشخاص على دراية تامة به ورغم أن ذلك ليس طريقاً ذا اتجاه واحد فإن الغرب كسب في السنوات الأخيرة من المتطوعين ما يفوق بكثير ما حققه أعداؤه.

وأحد أسباب هذا التغيير - اضافة إلى وفاة هتلر - الشعور المتزايد بعدم الرضى تجاه الأنظمة في الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكها والصين الشيوعية، وتخفيف حدة القيود التي كانت مفروضة في عهد ستالين. كما أن المواطنين أصبح لديهم علم أكثر ويريدون مزيداً من الأشياء كما أن فرصة السفر متاحة أمامهم بشكل أكبر.

وهؤلاء المتطوعون إما لاجئون أو منشقون عبروا الحدود إلينا ويظلون «في أماكنهم» كي يقدموا لنا خدماتهم من داخل المجتمعات الشيوعية. والمعلومات التي يقدمها اللاجئون غالباً ما تكون متقطعة ومتناثرة إلا أنها أضافت إلى رصيدنا معلومات أساسية على مرّ السنين وبصفة خاصة حول الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي في أوروبا. فقد أدت الثورة المجرية التي قامت في عام ١٩٥٦ م إلى فرار ربع مليون لاجىء إلى الغرب أطلعونا على أحدث المعلومات فيما يتعلق بالجوانب الفنية والعلمية والعسكرية في المجر مما وفّر لنا توقعاً دقيقاً لقدراتهم المحتملة في السنوات التالية، وقدّم الكثيرون من بين عشرات الآلاف من اللاجئين الذين جاؤوا من ألمانيا الشرقية والدول الأخرى الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية خدمة مماثلة.

ومصطلح «منشق» يستخدم في لغة العلاقات الدولية.والمخابرات للإشارة إلى المسؤولين أو المواطنين حسني الاطلاع ـ الذين ينتمون للكتلة الشيوعية بصفة عامة ـ والذين يغادرون بلادهم ويتوجهون إلى الغرب، بيد أنه مصطلح يستلهمه الأشخاص الذين يتبرأون من المجتمع الـذي يتركونه من أجل الانضمام لمجتمع افضل. وأنا لا ازعم أن كل من يطلق عليهم اصطلاح «منشقين» يأتون للغرب لأسباب أيديولوجية، فبعضهم يأتي نتيجة لفشلهم في أعمالهم وآخرون يخشون أن يؤدي أي تغيير في النظام إلى تخفيض درجاتهم أو ما هو أسوأ من ذلك، إلا أن هناك مجموعة كبيرة تأتي إلينا من المعسكر الشيوعي لأسباب أيديولوجية مخضة فهؤلاء يشمئزون من الحياة في العالم الشيوعي ويريدون شيئاً أفضل لأنفسهم. لذا فإنني لا أحب استخدام هذا الاصطلاح لمثل هذه الحالات مع الاعتذار عن ذلك عند استخدامه ولكنني افضّل ان اطلق عليهم اصطلاح «متطوعون».

وإذا كان الشخص الذي يأتي إلينا ينتمي إلى قمة السلطة السوفييتية فإنه قد يكون على دراية كبيرة بنقاط الضعف والقوة في النظام وأجهزته المختلفـة وأوجه عدم الكفاءة والفساد، وإذا كان متخصصاً فإنه يكون على علم بالانجازات التي حققها النظام في مجال تخصصه. وقد يكون المتطوعون من الجنود أو الدبلوماسيين أو المهندسين أو العلماء أو راقصي الباليه أو الرياضيين،وليس من النادر أن يكونوا من بين ضباط المخابرات.

وهناك الكثيرون من الأشخاص الموجودين خلف الستار الحديدي الذين لا يشعرون بالرضى، إلا أنهم غير معروفين بالنسبة لنا وهم يفكرون بجدية في الفرار ولكن بعضهم يتردد في إتخاذ الخطوةالنهائية، ولا يرجع ذلك لخشيتهم التخلي عن أسلوب حياة غير مرضٍ لهم بل لأنهم يخشون المجهول الذي ينتظرهم. وللقضاء على هذا التردد يجب أن نوضح لهم أننا نرحب بهم وأنهم سيتمتعون بالأمان والسعادة معنا وفي كل مرة يعرب فيها لاجىء سياسي جديد عبر موجات صوت أمريكا عن سعادته لكونه هنا ويتحدث عن معاملته بشكل طيب، يقـوم المسؤولون الآخرون الموجودون خلف الستار الحديدي، والذين يفكرون في القيام بنفس العمل، باستجماع شجاعتهم ويواصلون التفكير في كيفية حصولهم على وظيفة ممثل تجاري في أوسلو أو باريس.

كما يحتمل أن تتطوع أعداد أكبر بكثير، من الزائرين الذين يأتون للغرب من الكتلة السوفييتية ويقومون بزيارات عديدة، وذلك لولا الممارسات السوفييتية حيث يستبقون الزوجات والأطفال كرهائن.

ومثال ذلك أولج لنشفسكي العالم السوفييتي الذي سعى للحصول على حق اللجوء لبريطانيا في مايو عام ١٩٦١ أثناء دراسته هناك بمنحة على حساب منظمة اليونسكو،وقد حاول دون جدوى حثّ خروشوف على السماح لزوجته وابنتيه اللاتي تركهن في موسكو بمغادرة البلاد والانضمام إليه وقد نشرت العديد من الصحف الغربية المناشدة الشخصية التي بعث بها في خطاب إلى خروشوف إلا أن الأخير بالطبع لم يلن ولم يكن بمقدوره ذلك. حيث إن خروشوف أدرك أنه إذا ما سمح لأسرة لنشفسكي بمغادرة روسيا فإن ذلك سيخلق موجة من المنشقين وعائلاتهم الذين يأملون في الحصول على معاملة مماثلة.

ومن بين الأسباب التي قدمها لنشفسكي لانشقاقه سبب غير عادي إلا أن له دلالة كبيرة فقد زعم أنه شعر فجأة بحاجته إلى الكنيسة وأنه أحس بالراحة بعد أن أصبح قادراً على حضور الصلوات في بريطانيا وذلك بعد أن كبت مشاعره الدينية لسنوات إلا أنه لم يذكر ذلك في الخطاب الذي أرسله لخروشوف ولكن ما ذكره كان اكتشافه لمضمون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٤٨، وعلى الرغم من أن جميع الدول الموقعة على هذا الإعلان - بما في ذلك الاتحاد السوفييتي - وافقت على نشره في جميع أنحاء العالم إلا أنه لم ير النور في روسيا السوفييتية. وقد كتب لنشفسكي لخروشوف قائلاً: الآن وبعد ثلاثة عشر عاماً، بعد أن تحققت الحرية والأخوة والمساواة والسعادة لجميع المواطنين وفقاً لمبادئنا المذكورة في البرنامج الجديد للحزب الشيوعي فقد حان الوقت لنطبق هذه المبادىء الأساسية للعلاقات بين البشر والمتضمنة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ومن الطبيعي أن يكون من الأسباب الدائمة لإثارة القلق بين العلماء والفنانين والكتّاب خلف الستار الحديدي الافتقار إلى حرية البحث في مجالاتهم وفرض التوجهات السياسية على أعمالهم مما قد يصل إلى حد رفض الأفكار التي تتعارض مع الآراء الماركسية، وفي بعض المجالات يكون موقف العالم السوفييتي الشريف من الدولة الموقف نفسه الذي تعرض له جاليليو قبل ٣٥٠ عاماً (اما أن ينكر معتقداته أو يتعرض للعقاب) وتعد قضية لنشفسكي من أكثر القضايا ذيوعاً حيث شهدت تعارضاً بين العلوم المعملية والأيديولوجية الماركسية، وقد تغلبت الماركسية بالطبع رفضت الدولة التي تؤكد على إمكانية تغيير البيئة للفرد نظريات علماء الأحياء الذين يعارضون لنشفسكي والاكتشافات الوراثية التي تؤكد على أهمية الوراثة.

وقد كتب الكيميائي السوفييتي البارز الدكتور ميخائيل كلوشكو الفائز بجائزة ستالين والذي فرّ إلى كندا في عام ١٩٦١ ما يلي:

«لقد نشر في دائرة المعارف السوفييتية مقال حول الكيمياء الطبيعية كتبه عالم أكبر مني ولكنه صار منحازاً مثيراً للضحك ولقد أشرت إلى ذلك في أحد الاجتماعات وقد أبلغني الكثيرون فيما بعد أنهم على الرغم من اتفاقهم معي في الراي إلا انهم يعتقدون أنه يتعين علي الا أثير مشاكل مع هؤلاء الأشخاص ذوي النفوذ. ولكن هذا الحدث قوّى الاعتقاد الراسخ داخلي الآن وهو ضرورة مغادرتي للاتحاد السوفييتي إذا ما كان لي أن أحقق جميع إمكانياتي كعالم».

وإنني أعتقد أن أعداد الأشخاص الذين قد ينتقلون من خلف الستائر الحديدية والحريرية قد يصل دون مبالغة إلى أرقام فلكية إذا ما منحوا فرصة ترك بلادهم للحرية. وقد وصل اجمالي عدد هؤلاء الأشخاص في الفترة من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى نهاية عام ١٩٦١، وهو العام الذي ارتفع فيه سور برلين، إلى ١١ مليون شخص أغلبهم لم تتح لهم فرصة مغادرة بلادهم لكنهم انتهزوا هذه الفرصة. وتقدر الأرقام المتوفرة والتي تشمل عدد الأشخاص الذين تركوا أوطانهم خلف الستار الحديدي إبان الحرب ولم يرغبوا في العودة إليها بعد انتهاء الحرب، بالإضافة إلى اللاجئين والمنشقين وهم موزعون وفقاً لأماكن نشأتهم كما يلي:

ألمانيا الشرقية	٣,٦٠٠,٠٠٠
دول بحر البلطيق	٢٠٠,٠٠٠
دول أوروبا الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي	١,٧٨٣,٠٠٠
دول آسيا الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي	٢,٠٠٠,٠٠٠
دول الصين الشيوعية	٣,٠٠٠,٠٠٠
روسيا السوفييتية	١,٠٠٠,٠٠٠
المجموع	١١,٥٨٣,٠٠٠

ويذهب الشيوعيون إلى أبعد مدى للحيلولة دون انشقاق أي فرد يعدّونه «ذا قيمة» بالنسبة لهم أو ذا فائدة محتملة بالنسبة لنا، فالعلماء الغربيون المشاركون في مؤتمرات دولية يحضرها وفود سوفييتية أو وفود الدول الدائرة في فلكها غالباً ما يحاولون إجراء أحاديث ودية مع أعضاء هذه الوفود الذين يأتون ككيميائيين أو كعلماء أرصاد جوية إلا أنهم يصادفون شخصاً لا يعرف شيئاً عن الموضوع الذي يفترض أن الوفد متخصص فيه. إن هذا الشخص رجل أمن من المخابرات السوفييتية (K.G.B.) جاء فقط لمراقبة العلماء المشاركين في الوفد وللتأكد من أنهم لا يتحدثون في غير موضوعهم والأمر الأهم هو التأكد من أنهم لن يفروا إلى الحرية.

والشيوعيون الصينيون يحددون كمية الوقود التي تملأ بها خزانات الطائرات

العسكرية قبل أن تلحق هذه الطائرات في رحلات تدريبية أو مناورات وذلك كي لا يستطيع الطيار الذي قد تطرأ له فكرة الذهاب إلى (فرموزا) وهو محلق في الجو أن يصل إلى هدفه. وعلى الرغم من ذلك فإن أحد الطيارين نجح منذ عدة سنوات في تحقيق هدفه، وفي أول ليلة له عقب نقله إلى مزرعة في الريف وعندما سئل في اليوم التالي كيف نام في أول ليلة له في العالم الحر أجاب أنه لم ينم جيداً بسبب الضوضاء وعندما سئل عن نوع هذه الضوضاء التي تزعجه في الريف اتضح أن صوت الدجاج هو الذي أيقظه طوال الليل حيث إنه لم يعتد عليه. ومن ناحية أخرى فإن بعض من انضموا من جانبا إلى السوفييت لا يمكن أن يكونوا، بصفة خاصة، دعاية جيدة تشجع على حدوث مزيد من الانشقاقات في هذا الاتجاه. لقد تحدث بعضهم مؤخراً إلى الزائرين الغربيين واعترفوا دون تردد بأنهم لم يكونوا سعيدي الحظ وأنهم فقدوا مستقبلهم، ويبدو أن رحلات المنشقين من العلماء، مثل عالم الفيزياء الطبيعية بونتيكورفو الذي مازال ذا فائدة بالنسبة للسوفييت في جهودهم التكنولوجية ـ كانت أفضل من رحلات الآخرين، كما أن بعضهم حصل على تكريم رفيع مثلما نال بونتيكورفو مؤخراً عندما تسلم جائزة لينين. كما نال بورجيس وماكلين دال مارتيني، وميتشيل حظهم من الدعاية إلا أنهم يعيشون الآن حياة تدعو للملل وبعضهم يتقلدون مناصب «مستشاري دعاية».

وأغلب المنشقين من الجانب الشيوعي ليسوا بالضبط كما يبدون فبعضهم على سبيل المثال كانوا يعملون كعملاء لحسابنا من أماكنهم خلف الستار لفترة طويلة وذلك قبل انشقاقهم، ويتركون بلادهم فقط لإحساسهم أو إحساسنا نحن بأن مخاطر بقائهم هناك قد ارتفعت.

والأشخاص الذين يتطوعون «من أماكنهم» لديهم العديد من السبل لتحقيق ذلك على الرغم من أنه من المفترض أن العزلة والقيود والسيطرة الداخلية في الكتلة السوفييتية ستحول دون حدوث مثل هذا الشيء. كما أنه من الممكن أن يتصلوا بالغرب بطرق عديدة ـ ومما يدعو للدهشة أنها كافية أيضاً ـ كما يمكن أن يتم الاتصال عن طريق البريد طالما يتوفر لدى الشخص عنوان مستقبل للرسالة غير ضار، فضلاً عن إخفاء هوية الراسل في داخل الكتلة. حيث لا يمكن للرقابة داخل الكتلة السوفييتية فحص كل رسالة تدخل وتخرج عبر حدودها إذ إن عدد هذه الرسائل ضخم جداً كما أنه في حالة الكشف عن أي خطاب فإنه لن يوفر أي أدلة عن هوية الراسل إذا ما تم اتباع الاجراءات الأمنية الوقائية بصورة سليمة وتوجد محطات إذاعة مختلفة في أوروبا الغربية تذيع تعليقات دعائية للكتلة السوفييتية وتتلقى رسائل بريدية من المستمعين ـ وغالباً ما تقدم رقم صندوق بريد لإرسال مثل هذه

الخطابات عليه ـ وإذا ما نجح أحد المتطوعين الذي كان قد أرسل معلومات إلى الغرب عبر محطات الراديو في الوصول إليه في النهاية فإنه سيلقى ترحيباً هناك، وبعض المنشقين المهمين والمفيدين كانوا من الدبلوماسيين أو ضباط المخابرات الذين يعملون تحت ستار دبلوماسي.

وبالطبع سيكون هناك سهولة في أن يتخلى هؤلاء الذين يتولون مناصب في الخارج عن وظائفهم في بلادهم في أحد الأيام وأن يتوجهوا إلى مبنى وزارة الخارجية في الدولة المعتمدين فيها أو إلى أي سفارة غربية أخرى في هذه الدولة حيث يطلبون الحماية. وأينما يحدث ذلك في الغرب وبعد أن يتضح أن دوافع الدبلوماسي المنشق حقيقية، غالبـاً ما يتم منحه الحماية المطلوبة والمساعدة المالية اللازمة ليتمكن من إقامة حياة جديدة في وطنه الجديد.

وأي تردد في منح مثل هذه المزايا يرجع إلى أن السوفييت من آن لآخر يقدمون منشقين مزيفين وهو أسلوب غير مقبول لدس عميل ولكن قد يكون له مزايا عرضية أو ثانوية.

فالمنشق المزيف عندما يجري مقابلات مع أشخاص من البلد الذي «ينشق» إليه قد يجمع مجموعة من المعلومات ويرسلها إلى بلاده وبصفة خاصة المعلومات الخاصة بالمعلومـات المعـروفة وغير المعروفة عن بلاده، والخطوة النهائية في مثل حالات الانشقاق المزيفة إعلان المنشق في النهاية «انشقاقه مرة أخرى» أي العودة لبلاده. ففي أحد الأيام يعلن المنشق أنه خدع في الغرب وأنه ليس كما صور له ويبدي ندمه على خطيئته وأنه يود العودة لبلاده حتى وإن تعرض للعقاب نتيجة لانشقاقه الأصلي. ويؤدي ذلك إلى تعرض الدعاية لنكسة فضلاً عن إحراج الدول التي تأوي المنشق، كما أنه يعد أسلوباً مناسباً لعودة المنشق الذي هو في حقيقته عميل، إلى بلاده للإبلاغ عن المعلومات التي قام بجمعها. إلا أن هذه الحالات تعد استثناءً ولم يحاول السوفييت اتباع هذا الأسلوب كثيراً في الفترة الأخيرة، وفي اعتقادي أن ذلك يرجع بشكل أساسي لعدم ثبات هذا الأسلوب بخاصة حيث يمكن دائماً اكتشاف زيف المنشق في وقت مبكر وفي بعض الأحيان يعترف المنشقون بأنهم مدسوسون.

كما يتمتع ضباط المخابرات في الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه مثلهم مثل الدبلوماسيين الذين يتميزون بميزة القيام برحلات وتولّي مناصب في الخارج، وبعضهم يستغل مثل هذه الفرص للهروب كما كانوا يأملون منذ فترة طويلة. والسوفييت يعتبرون انشقاق هؤلاء خسارة فادحة بالنسبة لهم وقد يذهبون إلى أبعد الحدود للحيلولة دون ذلك، وقد يصل ذلك إلى استخدام العنف لاجبار المنشقين

المحتملين على العودة. وغني عن الذكر مختلف أنواع أساليب الانتقام في حالة نجاح المنشق في خطته أو بقاء أسرته تحت السيطرة السوفييتية.

وقد يتذكر القارىء الصور الصحفية المثيرة التي التقطت في عام ١٩٥٤ والتي أظهرت فرقة سوفييتية ترافق بالقوة زوجة المنشق فلاديمير بيزوف رئيس فرع المخابرات في النمسا في محاولة لوضعها على طائرة تعود بها إلى روسيا رغماً عنها وقد أنقذ التدخل السريع للبوليس الاسترالي مسز بيزوف من محاولة الاختطاف هذه. لهذا السبب فإن انشقاق ضباط المخابرات غالباً ما يحدث جلبة أقل بكثير من تلك الناجمة عن انشقاق الشخصيات الهامة مثل الدبلوماسيين والعلماء، فضباط المخابرات السوفييتية والدول الدائرة في فلكها غالباً ما تكون لديهم ميزة معرفة كيفية الاتصال «بنظائرهم» في الغرب إلى حد ما حيث ان البحث عن هذه المعلومات يمثل جزءاً من عملهم. وعندما يقرر رجل المخابرات التخلي عن وظيفته فهناك احتمال أكبر لتوجهه إلى منظمة مخابرات غربية لا إلى هيئة دبلوماسية، وقد يذهب إلى أقرب محطة بوليس حيث انه على ثقة تامة بأنه سيكون موضع ترحيب وأن عملية انشقاقه ستتم في سرية تامة.

إن انشقاق أحد ضباط المخابرات من المعارضين والذي غالباً ما يلجأ إلى جهاز مكافحة التجسس في الغرب يكون ذا فائدة كبيرة. وعملية الانشقاق هذه دائماً ما تكون موازية، من حيث حجم المعلومات التي تقدمها، لعملية تسلل مباشرة إلى مقر قيادة معادٍ حيث يمكن لمثل هذا المتطوع أن يشكل فراغاً حقيقياً في مكان الخدمة الذي تركه لعدة أشهر قادمة. كما يمكنه أن يصف التنظيم الداخلي والخارجي لمكان خدمته وكذلك وصف أعمال وشخصية زملائه في مقر القيادة ويمكنه أيضاً التعرف على رجال المخابرات المتخفين في خارج البلاد والأفضل من ذلك كله تقديم معلومات حول عمليات المخابرات، إلا أنه قد لا يتمكن من معرفة الهوية الحقيقية لعدد كبير من العملاء حيث ان جميع خدمات المخابرات تقسم مثل هذه المعلومات ولا يعلم أحد الهوية الحقيقية للعملاء إلا عدد قليل من الضباط المعنيين بالقضية.

وقد كان الغرب محظوظاً بصورة فريدة لمجيء عدد كبير من هؤلاء المنشقين إلى جانبه في التاريخ الحديث. ففي عام ١٩٣٧ انشق اثنان من كبار ضباط المخابرات في عهد ستالين كانا يعملان في الخارج وفضلا الانشقاق على العودة إلى روسيا ليطاح بهما في عملية تطهير الـ NKVD التي استهدفت الحزب والجيش. وأحد هذين المنشقين والتر كريفيتسكي الذي كان يشغل منصب رئيس المخابرات في هولندا وقد عثر عليه ميتاً في أحد فنادق واشنطن في عام ١٩٤١ ويعتقد أن عملاء سوفييت لم يقبض عليهم مطلقاً أطلقوا النار عليه حيث من المستبعد أن يكون قد انتحر. أما

المحتملين على العودة. وغني عن الذكر مختلف أنواع أساليب الانتقام في حالة نجاح المنشق في خطته أو بقاء أسرته تحت السيطرة السوفييتية.

وقد يتذكر القارىء الصور الصحفية المثيرة التي التقطت في عام ١٩٥٤ والتي أظهرت فرقة سوفييتية ترافق بالقوة زوجة المنشق فلاديمير بيزوف رئيس فرع المخابرات في النمسا في محاولة لوضعها على طائرة تعود بها إلى روسيا رغماً عنها وقد أنقذ التدخل السريع للبوليس الاسترالي مسز بيزوف من محاولة الاختطاف هذه. لهذا السبب فإن انشقاق ضباط المخابرات غالباً ما يحدث جلبة أقل بكثير من تلك الناجمة عن انشقاق الشخصيات الهامة مثل الدبلوماسيين والعلماء، فضباط المخابرات السوفييتية والدول الدائرة في فلكها غالباً ما تكون لديهم ميزة معرفة كيفية الاتصال «بنظائرهم» في الغرب إلى حد ما حيث ان البحث عن هذه المعلومات يمثل جزءاً من عملهم. وعندما يقرر رجل المخابرات التخلي عن وظيفته فهناك احتمال أكبر لتوجهه إلى منظمة مخابرات غربية لا إلى هيئة دبلوماسية، وقد يذهب إلى أقرب محطة بوليس حيث انه على ثقة تامة بأنه سيكون موضع ترحيب وأن عملية انشقاقه ستتم في سرية تامة.

إن انشقاق أحد ضباط المخابرات من المعارضين والذي غالباً ما يلجأ إلى جهاز مكافحة التجسس في الغرب يكون ذا فائدة كبيرة. وعملية الانشقاق هذه دائماً ما تكون موازية، من حيث حجم المعلومات التي تقدمها، لعملية تسلل مباشرة إلى مقر قيادة معادٍ حيث يمكن لمثل هذا المتطوع ان يشكل فراغاً حقيقياً في مكان الخدمة الذي تركه لعدة أشهر قادمة. كما يمكنه أن يصف التنظيم الداخلي والخارجي لمكان خدمته وكذلك وصف أعمال وشخصية زملائه في مقر القيادة ويمكنه ايضاً التعرف على رجال المخابرات المتخفين في خارج البلاد والأفضل من ذلك كله تقديم معلومات حول عمليات المخابرات، إلا أنه قد لا يتمكن من معرفة الهوية الحقيقية لعدد كبير من العملاء حيث ان جميع خدمات المخابرات تقسم مثل هذه المعلومات ولا يعلم أحد الهوية الحقيقية للعملاء إلا عدد قليل من الضباط المعنيين بالقضية.

وقد كان الغرب محظوظاً بصورة فريدة لمجيء عدد كبير من هؤلاء المنشقين إلى جانبه في التاريخ الحديث. ففي عام ١٩٣٧ انشق اثنان من كبار ضباط المخابرات في عهد ستالين كانا يعملان في الخارج وفضلا الانشقاق على العودة إلى روسيا ليطاح بهما في عملية تطهير الـ NKVD التي استهدفت الحزب والجيش. وأحد هذين المنشقين والتر كريفيتسكي الذي كان يشغل منصب رئيس المخابرات في هولندا وقد عثر عليه ميتاً في أحد فنادق واشنطن في عام ١٩٤١ ويعتقد أن عملاء سوفييت لم يقبض عليهم مطلقاً أطلقوا النار عليه حيث من المستبعد أن يكون قد انتحر. أما

التاني فهو الكسندر أرلوف أحد قادة المخابرات في أسبانيا أثناء الحرب الأهلية ولكنه على عكس زميله نجح في تجنب الانتقام السوفييتي وأصدر عدة كتب من بينها كتاب عن جرائم ستالين والآخر عن المخابرات السوفييتية. ومن بين المنشقين السوفييت في أوائل عهدنا بعد الحرب ايجور جوزنكو الذي ذكرته من قبل. وكان جوزنكو من ضباط المخابرات العسكرية وهو مسؤول عن الشيفرات في السفارة السوفييتية في أوتاوا، وإلى حد ما يرجع الفضل له في الكشف عن جزء من شبكة التجسس الذرية الدولية التي كان الاتحاد السوفييتي يديرها خلال السنوات الأخيرة للحرب وما بعدها، خاصة بعد الأدلة التي قدمها.

وفي أعقاب تصفية بيرا Biera بعد فترة قصيرة من وفاة ستالين في عام ١٩٥٢ كان من الواضح بالنسبة لضباط جهاز الأمن السوفييتي أن أي شخص خدم تحت امرته كان في خطر حيث أن النظام الجديد لم يكن على يقين من إخلاص القدامى الذين يعرفون الكثير عنهم كما يمكن للنظام الجديد أن يزيد من شعبيته ويمضي قدماً في القضاء على البوليس السري للنظام القديم الذي كان مكروهاً واستبداله بهدوء بعناصر موالية له.

ويعد فلاديمير بيزوف أحد المنشقين الرئيسيين الذين أتوا للغرب خلال هذه الفترة وقد ذكرته سابقاً، كما أن هناك جوري راستفوروف وكان ضابط مخابرات في البعثة السوفييتية في اليابان وبيتر ديريابين الذي انشق من منصبه في فيينا، وجميع هؤلاء عملوا في مقر قيادة المخابرات في موسكو وكان لديهم معلومات تفوق حدود عملهم في الفترة التي انشقوا فيها وقد سرد ديريابين قصته في كتاب بعنوان «العالم السري».

وفي السنوات الأخيرة وقع حدثا انشقاق من نوع خاص لعاملين في المخابرات السوفييتية مكلفين بعمليات اغتيال، فقد بعثت موسكو بنيكولاي خوخولوف إلى المانيا الغربية في بداية عام ١٩٥٤ للإعداد لاغتيال أوكولوفيش أحد الزعماء البارزين اللاجئين المناهضين للسوفييت، وقد أبلغ خوخولوف أوكولوفيش بمهمته ثم انشق في عام ١٩٥٧ وفشل العملاء السوفييت في ميونيخ في قتل خوخولوف باستخدام السم. وفي خريف عام ١٩٦١ انشق بوجدان في ألمانيا الغربية واعترف أنه اغتال، بناء على أوامر سوفييتية، اثنين من الزعماء الأوكرانيين في المنفى في ميونيخ منذ عدة سنوات.

ومؤخراً انشق الدبلوماسي السوفييتي الكسندر كازاناستيف في بورما حيث كان يعمل في السفارة هناك ورغم أن كازاناستيف لم يكن ضمن موظفي المخابرات السوفييتية إلا أنه كان «عاملاً مختاراً» وكان معتاداً على عمل المخابرات أينما يسمح

له عمله كدبلوماسي بأداء مهام بعينها حيث ان خطر افتضاح أمره إقل من ذلك الذي يهدد زميله العامل في المخابرات. كما أن كتابه الأخير الذي وصف ما حدث داخل السفارة السوفييتية في رانجون ساعد إلى حد كبير في فضح زيف الصورة التي رسمت للبراعة السوفييتية وعدم قدرة الأمريكيين على منافستها وهي الصورة التي انطبعت في أذهان المواطنين الأمريكيين من خلال كتاب «الأمريكي القبيح».

وجميع المتطوعين من رجال المخابرات من السوفييت كما أن عدداً كبيراً من كبار ضباط المخابرات المنشقين جاؤوا من الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي وقد ساهموا بتقديم معلومات لا تتعلق بمهامهم الخاصة فحسب بل بالمخابرات السوفييتية ايضاً، ومهما حاولت حكومات الدول الأوروبية الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي إعطاء انطباع عن استقلالها فإنها مجرد دول تابعة للاتحاد السوفييتي في مسائل التجسس.

وكان جوزيف سوياتلو الذي انشق في برلين في عام ١٩٥٤ يشغل منصب رئيس إدارة المخابرات البولندية التي كانت تراقب عن كثب أعضاء الحكومة والحزب الشيوعي البولندي، ولسنا بحاجة لأن نقول إنه كان يعرف الفضائح داخل الحزب وكان السوفييت يتشاورون معه بشكل متكرر. أما باول مونات فكان يشغل منصب الملحق العسكري البولندي في واشنطن في الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٥٨ ثم عاد إلى وارسو حيث تولى مسؤولية عملية جمع معلومات من جميع أنحاء العالم من خلال الملحقين العسكريين البولنديين، وقد خدم في هذا المنصب لمدة عامين قبل انشقاقه عام ١٩٥٩ وسنسمع عنه فيما بعد.

كما انشق فرانتسك تيسلر في واشنطن بعد أن خدم كملحق عسكري تشيكي في الفترة من عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٥٩. وكذلك قام ضابط البوليس السري المجري بيك لابوسنيك بعملية هروب جريئة من أجل الحرية حيث فرّ عبر الحدود المجرية - النمساوية في مايو عام ١٩٦٢ وقد وصل لابوسنيك إلى فيينا سالماً إلا أنه مات مسموماً على أيدي العملاء السوفييت أو المجرمين كما هو واضح وذلك قبل أن يحكي قصته الكاملة للسلطات الغربية.

وتعد حالة المنشق الصيني شاوفو الذي خدم «كضابط أمن» في السفارة الصينية الحمراء في استوكهولم حتى اختفائه في عام ١٩٦٢ من أوائل حالات الانشقاق العلنية عن إدارة أمن الدولة الصينية الشيوعية، وهناك حالات أخرى.

إن الأسباب التي دفعت هؤلاء الأشخاص وآخرين إلى الانحياز إلى جانبنا تعد بالطبع مسألة ذات اهمية كبرى لأي دارس جاد للنظام السوفييتي وأسلوب الحياة السوفييتية، فقد أعلن أحدهم على سبيل المثال عن كيفية تغلبه تدريجياً على الشعور

بالذنب والمقت بعد أن بدأ يدرك أن الاتحاد السوفييتي قام بجهود تجسس مكثفة لسرقة أسرار عملية في الوقت الذي كان فيه يتملق مع بريطانيا وكندا والولايات المتحدة أثناء الحرب وهذا التحول اللاأخلاقي هو الذي أدى في النهاية إلى انشقاقه.

ولم يكن المنشقون في فترة ما بعد الحرب يمرون بظروف مشابهة حيث ان السوفييت لم يستمروا في تمثيل دور الصديق بعد عام ١٩٤٦ وقد تم تلقين وتعليم كل المسؤولين السوفييت هذه النقطة ولم يكن في إمكان أي مسؤول أن يحتفظ بوظيفته إذا ما أبدى أي تعاطف مع «الامبريالية» ولكن على الرغم من ذلك فإن مشاعر مماثلة لتلك التي أثارت جوزنكو حركت آخرين فمعظم المنشقين يعانون نوعاً من خيبة الأمل تجاه نظامهم.

وعندما يدرس الفرد الدور الذي تقوم به أجهزة المخابرات في العالم السوفييتي وصلتها الوثيقة بمراكز القوى فلن يثير الدهشة علمنا أن ضابط المخابرات السوفييتية يتطلع من الداخل هو أمر مقتصر على قليلين على الأساليب الفاسدة للعلم وراء الواجهة الكاذبة للشرعية الاشتراكية، وتكون هذه المعلومات بمثابة صدمة بالنسبة للشيوعيين العقلانيين والمخلصين.

وقد ذكر أحد المنشقين على سبيل المثال أن شعوره بخيبة الأمل الذي أدى إلى انشقاقه فيما بعد يرجع إلى اكتشافه أن ستالين والمخابرات NKVD وليس الألمان هم المسؤولون عن مذبحة كاتين (أي مقتل نحو عشرة آلاف جندي بولندي خلال الحرب العالمية الثانية) إلا أن العامة في الاتحاد السوفييتي لا يعرفون حقيقة هذا الأمر وكذلك حقيقة معظم الجرائم التي ارتكبها ستالين ولكن عندما يدرك المرء الحقائق «ويفقد إيمانه» بالنظام الذي يعمل في اطاره غالباً ما يلازمه شعور بخيبة الأمل على المستوى الشخصي وهذا يبدو عاملاً قوياً لدفع الشخص إلى الانشقاق.

والأسماء المذكورة هنا لا تشمل بأي حال من الأحوال القائمة الكاملة لهؤلاء الذين تركوا المخابرات السوفييتية ومناصب أخرى. فقد رأى بعض الذين يعدون من أهم المنشقين وأحدثهم عدم الكشف عن أنفسهم وأن يظل أمر حمايتهم خافياً عن العامة وهم يقدمون مساهمات مستمرة من حيث المعلومات الداخلية عن عمل المخابرات السوفييتية وجهاز الأمن وكذلك الكشف عن حرب التدمير التي تشنها الشيوعية ضدنا.

لقد كانت الولايات المتحدة دائماً الملجأ لهؤلاء الذين يسعون للهروب من الاستبداد ليعانقوا الحرية، كما انها سترحب دائماً بهؤلاء الذين لا يرغبون في مواصلة العمل لصالح الكرملين.

خداع العدو

في المخابرات يشمل اصطلاح «الخداع» كثيراً من المناورات المتنوعة التي تجاول من خلالها دولة ما تضليل دولة أخرى تقوم بصفة عامة بالاعداد لعمل محتّم وفعلي وفقاً لامكانياتها ونواياها.

وأفضل استخدام معروف للخداع يكون في وقت الحرب أو قبل نشوبها مباشرة حيث يكون الهدف الرئيسي سحب دفاع العدو من النقطة المقرر مهاجمتها أو اعطاءه انطباعاً بأنه لن يكون هناك أي هجوم على الاطلاق، أو تضليل العدو بشأن خطط وأهداف الدولة. والخداع كأسلوب فن له تاريخ قديم فهناك أمثلة شهيرة نستخلصها من هوميروس وحصان طروادة الذي أدى إلى سقوط طروادة والاستراتيجية اليونانية في الهجوم على سيراكيوز (Syracuse) في عام ٤١٥ قبل الميلاد. وفي الحالة الأخيرة قام بانتاجون بدس عميل بارع داخل صفوف سيراكيوز لمهاجمة معسكر اليونانيين الذي يقع على مساحة معينة من المدينة وفي الوقت نفسه وضع البانتاجون الجيش بأسره على متن سفينة أبحرت إلى سيراكيوز التي تركها أهلها دون أي حماية.

وخلال وقت السلام الذي نطلق عليه «الحرب الباردة» يمارس السوفييت أشكالاً أخرى من الخداع تشمل الخداع السياسي ضدنا وغالباً ما تتضمن استخدام أساليب التزييف وقد اتخذ الخداع شكلاً أقل مهارة في كوبا عندما تم اكتشاف الصواريخ الهجومية متوسطة المدى التي ينشرها الاتحاد السوفييتي هناك في الوقت الذي كان فيه السوفييت يتوقون بشدة إلى قيامهم بمثل هذا العمل.

والخداع بوصفه مناورة استراتيجية يستلزم بصفة عامة إعداداً مطولاً ودقيقاً فيجب على المخابرات ان تتأكد أولاً مما يفكر فيه العدو وما يتوقعه حتى تكون

المعلومات المضللة التي ستعطيها اليه معقولة وليست خارج النطاق العملي للخطط التي يدرك العدو أن من الممكن تنفيذها. ثم يتعين على المخابرات إعداد الطريقة التي يتم بها خداع العدو ونجاح ذلك يعتمد على التنسيق الوثيق بين القيادة العسكرية والمخابرات.

بعد أن طرد الحلفاء الألمان من شمال افريقيا في عام ١٩٤٣ أصبح من الواضح للجميع أن الخطوة التالية ستكون جنوبي أوروبا ولكن السؤال كان أين؟ وبما أن صقلية كانت الخطوة الرئيسية بل كانت تمثل هدف الحلفاء في الواقع فقد كان هناك شعور بضرورة بذل الجهود من أجل اقناع الألمان والايطاليين بأن الحلفاء سيتجاهلونها ولم يكن من الممكن اقناعهم بأنه لن يكون هناك هجوم على الاطلاق أو أن الهجوم سيكون عن طريق أسبانيا لأن مثل هذه المناورات غير مقنعة أو معقولة فالخداع يجب أن يشير إلى عمل في اطار النطاق المتوقع. وعدد قليل من أساليب الخداع تستخدم «الصدفة» حتى تنقل الخدعة الجيدة إلى القيادة العليا للعدو مباشرة وبشكل سريع وفعال وذلك طالما كانت الخدعة تبدو منطقية وتحمل جميع مظاهر وجود مزية حظ وراء وصولها للعدو، وقد أعد البريطانيون مثل هذه الصدفة بمهارة في عام ١٩٤٣ قبل غزو صقلية وقد اطمأن الألمان في ذلك الوقت إلى صحتها تماماً. ففي بداية شهر مايو من العام ذاته حملت الأمواج جثة ميجور بريطاني إلى الساحل الجنوبي الغربي لأسبانيا بالغرب من مدينة هويلفا بين الحدود البرتغالية وجبل طارق وقد وجدت حافظة أوراق مقيدة إلى معصمه بها نسخ من رسائل موجهة إلى الجنرال الكسندر في تونس من الأركان العامة للامبراطورية وقد ألمحت هذه الأوراق بوضوح إلى أن خطة الحلفاء تعتمد على غزو جنوبي أوروبا عبر سنردينيا واليونان وكما علمنا بعد الحرب فإن الألمان صدقوا تماماً هذه التلميحات وقد أرسل هتلر فرق مدرعات إلى اليونان ولم يتم تعزيز الحامية الايطالية في صقلية.

وتعد هذه من أفضل حالات الخداع التي اعتمدت على تحرك وحيد وتعرف في التاريخ الحديث للمخابرات وقد أطلق عليها «العملية فيس ميت» وقد سرد أومين مونتاجو أحد المخططين الرئيسيين للعملية القصة الكاملة لتنفيذها في كتاب «الرجل الذي لم يكن أبداً» لقد كانت عملاً معقداً للغاية أمكن تنفيذه من خلال أوضاع الحرب الحديثة والأساليب الفنية للعلوم الحديثة. فلم يكن هناك شيء غير منطقي حول امكانية سقوط طائرة، أحد ركابها ضابط يحمل معلومات هامة أو أن تكون الجثة قد حملتها الأمواج إلى الشاطىء الأسباني.

وفي الحقيقة كان الجثمان المستخدم في العملية لجندي توفي مؤخراً البسوه زي ميجور بريطاني وكانت معه جميع الأوراق التي تثبت هويته وبطاقات الزيارة

وجميع النثريات اللازمة لاثبات أنه الميجور مارتن. وقد تم تعويم الجثمان من غواصة بريطانية اقتربت بشكل ما من الساحل الأسباني لضمان وصول الجثمان إلى هدفه. كما أن غزو الحلفاء لنورماندي في يونيو عام ١٩٤٤ والمعروف باسم «أوفرلورد» استفاد بفاعلية من الخداع ولكن في هذه الحالة لم تكن خدعة منفصلة بل مجموعة من المناورات المضللة تم التنسيق بينها بصورة وثيقة وبهذا نجحت كما هو معروف في ابقاء الألمان على توقعهم الثابت بشأن المكان المحدد لعملية الانزال التي يعتزم الحلفاء القيام بها. فقد تم نشر اشاعات كاذبة بين قواتنا حول نظرية الانزال حتى تنقل إلى أسماع العملاء الالمان في بريطانيا لنقلها. كما تم استخدام قنوات الراديو الموجهة للعملاء داخل الجماعات السرية في فرنسا لنقل أوامر ومطالب مضللة للعمل من أجل المساعدة في عملية الانزال القادمة للحلفاء. وكان من المعروف أن عدداً من هؤلاء واقعون تحت سيطرة الالمان وأنهم سينقلون إليهم الرسالة التي جاءت إليهم من الحلفاء لذا كان هؤلاء العملاء يمثلون قناة مباشرة للوصول إلى المخابرات الألمانية وقد طلب من عملاء الحلفاء في منطقة لوهافر القيام بعمليات مراقبة معينة توضح للألمان وجود اهتمام كبير من جانب الحلفاء بالتحصينات في المنطقة وحركة تحص ين السكك الحديدية وذلك لحمل الألمان على الاعتقاد بأن عملية الانزال ستكون في لوهافر، وفي النهاية نظمت عمليات التجسس العسكري بطريقة تؤكد على وجود اهتمام عاجل بالمناطق التي لم يكن من المقرر أن تتعرض للهجوم حيث كانت الطلعات الجوية التجسسية على شواطيء نورماندي أقل من تلك التي تمت فوق لوهافر والمناطق الأخرى المحتملة كما نشرت اشاعات عن هجوم مضلل على النرويج للحيلولة دون حشد القوات شمالي فرنسا.

هناك أسلوبان رئيسيان لدس معلومات مضللة للعدو، الأول إعداد حادثة مثل تلك التي نفذها البريطانيون في أسبانيا ومثل هذه الحوادث معقولة لأنها على أي حال تكون بشكل متكرر نتيجة لسوء الحظ، والتاريخ حافل بحوادث وقوع رسل محملين برسائل هامة بين أيدي الأعداء. أما الأسلوب الآخر فهو دس عميل داخل صفوف العدو يطلعهم ظاهرياً على خططنا كما فعل أهل أثينا في سيراكيوز.

ويمكن أن يكون العميل «هارباً من الجيش» أو «محايداً» بأي شكل من الأشكال. والمشكلة هنا كما هي في جميع حالات التسلل داخل صفوف ادارة مكافحة التجسس هي اقناع العدو بأن يثق في العميل فليس من السهل أن يتحول إليهم العميل وهو يحمل معلومات عسكرية مثيرة ولا يمكن أن يتوقع أن يتم تصديقه ما لم يشرح دوافعه وكيفية حصوله على المعلومات.

وقد ظهرت وسيلة خداع حديثة تماماً مع بداية استخدام اللاسلكي، فعلى سبيل

المثال يمكن لاحد رجال المظلات أن يهبط في الأرض العدو وهو مزود بجهاز ارسال يمكن حمله ويتم أسره، وهناك يعترف رجل المظلات انه أرسل في مهمة تجسس لمعرفة تحركات قوات العدو على أن يتصل بمقر قيادة المخابرات عن طريق اللاسلكي وهذا العميل يتعرض لخطر القتل بعد أن يدلي باعترافه أو حتى قبل أن تسنح له فرصة الاعتراف، بيد أن هناك احتمالاً كبيراً يتمثل في أن يقرر معتقلوه أنه سيكون أكثر نفعاً وهو حي أكثر منه ميتاً لأن جهاز اللاسلكي يقوم بمثابة قناة مباشرة لتقديم معلومات خادعة لمخابرات العدو وفي حالة ادراك المخابرات التي أرسلت العميل أنه اعتقل وأنه أصبح تحت سيطرة العدو فيمكنها أن تواصل توجيه الأسئلة إليه بهدف خداع الجانب الآخر وتعد هذه احدى الخطط التي استخدمها الحلفاء في الإعداد لعملية الانزال في نورماندي.

ومن أنواع الخداع الضرورية مع أنها أقل أهمية للتمويه على الأهداف العامة أن المطارات البريطانية كانت تبدو كالمزارع من الجو وذلك لتضليل القاذفات النازية خلال الحرب العالمية الثانية. قد وضعت الأعشاب فوق حظائر الطائرات كما أن ورش الصيانة والمظلات والمباني الملحقة فقد بدت كمخازن الحبوب. أما الأمر الأكثر أهمية فقد كان وضع نماذج بالأحجام الطبيعية للطائرات ومناطق أخرى تبدو كأنها مطارات حقيقية وبها طائرات، كما تم وضع نماذج بالحجم الطبيعي للسفن البحرية وذلك في المناطق التي يمكن أن توجد بها السفن الحقيقية.

والقيام بخداع استراتيجي يستلزم تعاوناً وثيقاً ودرجة عالية من الأمان بين جميع جهات الحكومة المشاركة في هذا الجهد، ويعد ذلك أمراً صعباً بالنسبة للحكومة الديمقراطية باستثناء ما يتم في ظل القيود المفروضة في وقت الحرب.

وبالطبغ فإن الوضع بالنسبة للسوفييت أيسر على نحو ما حيث يمكنهم أن يساندوا أي عملية خداع بكفاءة تفوق بكثير مقدرتنا في هذا الصدد وذلك في ظل وجود تنظير مركزي والسيطرة الكاملة على الصحافة وعلى نشر المعلومات داخل البلاد وفي الدول الأجنبية. وغالباً ما يعرض السوفييت أسلحة وسط نطاق معين من الدعاية وذلك لجذب الانتباه بعيداً عن الأسلحة الأخرى التي لديهم بالفعل في ترسانتهم العسكرية أو قد يعتزمون ضمها إلى ترسانتهم كما أنهم في بعض الأحيان يعرضون نماذج طبيعية لطائرات ومعدات أخرى لا ترى نور الصباح على الاطلاق.

فعلى سبيل المثال نظم في يوم الطيران في يوليو عام ١٩٥٥ عرض «للطيران المنخفض» لنوع جديد من القاذفات السوفييتية الثقيلة وذلك بحضور المندوبين الدبلوماسيين والعسكريين في موسكو وقد فاق عدد القاذفات المشاركة في العرض العدد الذي كان يعتقد أنه متوافر لدى موسكو بكثير ومن ثم كان هناك انطباع بأن

عدداً كبيراً من هذه القاذفات أنتج مؤخراً وأن السوفييت ملتزمون بزيادة قوة القاذفات الثقيلة. وقد تم التوصل فيما بعد إلى نتيجة مؤداها ان نفس السرب كان يحلق على هيئة دوائر ويعاود الظهور بعد دقائق قليلة وكان الهدف من ذلك التأكيد على انتاج القاذفات السوفييتية، وفي الحقيقة كان السوفييت يعتزمون قريباً تحويل الاهتمام إلى الصواريخ.

كما يمكن للخداع أن يستغل قنوات سياسية فقد يدلي الدبلوماسي السوفييتي بتصريح لزميل له من دولة محايدة في حفل غذاء وذلك في جو من الثقة التامة حيث أنه على علم أن الزميل المحايد سيتوجه لحفلات في بريطانيا او امريكا.

وقد يأتي هذا التصريح العادي بناء على تعليمات من وزارة الخارجية السوفييتية وذلك بعد أن تتم دراسته في مقر قيادة المخابرات في مكان ما في الغرب بحيث يتضح أنه يتفق من حيث المادة مع شيء ما ذكره مسؤول سوفييتي في حفل كوكتيل على بعد عشرات الآلاف من الأميال. يؤكد التصريحان بعضهما البعض، وفي الحقيقة كان الرجلان يتكلمان فقط كأبواق في برنامج خداع سياسي ينسقه السوفييت مع مؤامراتهم المتغيرة دائماً في برلين ولاوس والكونغو وكوبا وأي مكان آخر في اطار البرنامج. وأكثر الخدع السياسية الطويلة المدى والتي لاقت نجاحاً كانت بالنسبة للشيوعيين المواطنين السذج في الغرب وذلك باقناعهم بأن الحركة الشعبية في الصين ليست شيوعية ولكنها حركة اجتماعية وحركة اصلاح زراعي وحدث ذلك قبل الحرب العالمية الثانية واثناءها، وقد تم نشر هذه الخدعة من خلال مجتمعين متأثرين بالشيوعية في الشرق الأقصى وتخللت منظمات الغرب عبرهم.

وقد خصص السوفييت ادارة خاصة في المخابرات اطلق عليها «مكتب تشويه المعلومات» ليتولى مسؤولية تخطيط عمليات الخداع والقيام بها وهذا المكتب يعمل في السنوات الأخيرة على اعداد وتوزيع ما يزعم أنه وثائق رسمية خاصة بالولايات المتحدة وبريطانيا أو الدول الأخرى في العالم الحر والهدف من ذلك تشويه الحقائق والاساءة لسياسات وأهداف هذه الدول. وقد قدم مستر ريتشارد هلمز وهو مسؤول كبير في وكالة المخابرات المركزية أدلة حول هذه الأنشطة لإحدى لجان الكونجرس في يونيو عام ١٩٦١، وقد اختار من بين الوثائق الجماعية المزورة المتوافرة ٣٢ وثيقة وافية تم تلفيقها في الفترة من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦٠. وأشار مستر هلمز إلى أن البوليس السري له تاريخ قديم في تزوير الوثائق حيث اخترع بروتوكولات الصهيونية منذ أكثر من ستين عاماً وذلك لدعم الحركة المناهضة للسامية. وكان السوفييت تلاميذ نابغين لاسلافهم القياصرة حيث ان أعمال التزوير التي يقومون بها اليوم كما أشار

لذلك هلمز تهدف إلى تشويه صورة الغرب، وبصفة خاصة الولايات المتحدة، أمام بقية العالم لبث الخلافات بين الحلفاء الغربيين والتفريق بين شعوب الدول غير الشيوعية وحكوماتها بتعزيز فكرة أن هذه الحكومات مجرد عملاء للولايات المتحدة، وهذه الوثائق المزورة تشمل رسائل مختلفة المفترض أن تكون من كبار المسؤولين إلى رئيس الولايات المتحدة وخطابات متداولة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومسؤولي وكالة المخابرات الأمريكية، وبالنسبة للخبراء تعد هذه الوثائق تلفيقاً واضحاً. وعلى الرغم من أن بعض النصوص معدة ببراعة إلا انه غالباً ما يكون هناك عدد ضخم من الأخطاء الفنية وعدم الاتساق. ولسوء الحظ فإن هذه الأخطاء غير واضحة بالنسبة للجمهور الذي توجه إليه هذه الرسائل وهم بصفة عامة شعوب الدول المستقلة حديثاً وهذه الوثائق معدة للاستهلاك الجماهيري اكثر منها للصفوة. ومن اكثر هذه الوثائق المزيفة مهارة تلك التي كان من المفترض أن تكون جزءاً من تقرير للحكومة البريطانية والتي حرفت تماماً الموقف الأمريكي والبريطاني تجاه سياسات اتحادات العمال في افريقيا.

كمثال على عمليات التزوير السوفييتية النموذجية فقد نشرت صحيفة هندية تصدر باللغة الانجليزية تلغرافين مزيفين رغـم أنهما مرسلان من السفير الأمريكي في تايبي إلى وزير الخارجية في واشنطن يعلق فيهما على اقتراحات ملفقة تماماً حول التخلص من شيانج كاي- شك،وقد استغل السوفييت بمهارة حقيقة اغارة الغوغاء على سفارتنا في تايبي منذ فترة لتبرير وقوع التلغرافين في أيديهم.

والتزوير يعد أسلوباً مفيداً للشيوعيين بصفة خاصة لأنهم يملكون وسائل لتوزيع الواسع والسريع حيث تتوافر لهم الصحف والمنافذ الصحفية الأخرى في جميع أنحاء العالم وعلى الرغم من أن هذه المنافذ فقدت بريقها وأصبحت موقع شك لتبعيتها للنظام الشيوعي إلا أنها قادرة على وضع هذه الوثائق الملفقة أمام ملايين من الناس في وقت قصير، كما أن النفي وابراز الأدلة على التزوير يأتيان بعد مدة طويلة جداً من نشر الوثائق المزورة لأول مرة بعد أن تكون الأخيرة قد حققت هدفها في نشر الخدعة.

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب التزوير غير متاح بالنسبة للمخابرات في وقت السلام حيث يكتنفه خطر كبير يتمثل في خداع وتضليل شعبنا وصحافتنا الحرة فضلاً عن الاعتبارات الأخلاقية. فعندما يلجأ المرء إلى الخداع عمداً فإنه في بعض الأحيان يخدع العدو والصديق، ثم يقوم فيما بعد بكشف خدعته للصديق. كما أن من يقوم بالخداع لن يجد من يصدقه عندما يود ذلك. وهو الوضع الذي مرّ به السوفييت بعد أحداث كوبا. كما أن الخوف من الخداع والتضليل أعمى العدو عن القيمة الحقيقية

للمعلومات التي تضعها الصدفة أو عمليات المخابرات بين يديه وكما كتب سير والتر سكوت يقول:

«إنها لشبكة معقدة للغاية تلك التي ننسجها عندما نبدأ في ممارسة خداع لأول مرة».

فإذا كنت تشك في أن العدو دائم الخداع فإن أي شيء يحدث يمكن أن تعتبره خدعة. ومن الآثار غير المباشرة للتضليل أنه في حالة نجاح أي عملية خداع في تحقيق هدفها فإنها تؤدي إلى اضطراب وتضليل حكم العدو وتقييمه لمعلومات أخرى يحصل عليها، وهنا يداخل العدو الشك والريبة ويحرص على ألا يؤخذ على حين غرة.

ففي العاشر من يناير عام ١٩٤٠ خلال العام الأول من الحرب العالمية الثانية حدث أن كانت طائرة المانية تحمل رسائل خاصة في رحلة بين موقعين في المانيا وقد ضلت هذه الطائرة طريقها بعد أن نفذ منها الوقود وارغمت على الهبوط اضطرارياً في مكان ما اتضح أنه بلجيكا. وقد كانت الطائرة تحمل الخطة الكاملة لغزو المانيا لفرنسا عبر بلجيكا وهي الخطة التي كان هتلر قد أمر بالفعل بالبدء في تنفيذها وعندما أدرك قائد الطائرة المكان الذي هبط فيه قام سريعاً باشعال النيران وحاول حرق جميع الأوراق التي كانت على متنها إلا أن السلطات البلجيكية أدركته قبل أن يتم عمله واستردت أوراقاً نصف محترقة وأوراقاً أخرى سليمة لتجمع معاً الخطة الالمانية.

وقد شعر بعض كبار المسؤولين البريطانيين والفرنسيين الذين درسوا المادة أن المسألة كلها مجرد خدعة المانية وتساءلوا كيف يمكن للألمان أن يكونوا بمثل هذا التساهل بحيث يسمحون لطائرة صغيرة بأن تحلق بالقرب من الحدود البلجيكية في مثل هذا الجو المسيء وعلى متنها خطة غزو تامة ومفصلة وقد ركز هذا التفسير على الظروف ولم ينظر إلى مضمون الأوراق. وقد كتب تشرشل يعارض هذا التفسير حيث تخيل تشرشل نفسه في مكان القادة الألمان وسأل نفسه ما هي الفائدة المحتملة في هذه اللحظة من اعداد خدعة من هذا النوع أي إعلان التأهب في بلجيكا وهولندا من خلال خطة غزو مزيفة. وكما عرفنا بعد الحرب فإن غزو بلجيكا الذي كان من المقرر أن يبدأ في السادس عشر من شهر يناير أي بعد ستة أيام من سقوط الطائرة أجّله هتلر نتيجة لوقوع الخطة بين أيدي الحلفاء. ومثل هذه الصدفة لا تعد الحادثة الوحيدة التي تثير شبح الخداع، فقد اشرت بالفعل إلى أنه في حالة ارسالك عميل للعدو للخداع فإن عليك أن تضفي عليه مصداقية وفي بعض الأحيان فإن المعلومات الحقيقية التي تأتي بضربة حظ تكون موضع شك أو اهمال خوفاً من التضليل وقد حدث ذلك في الأيام الأخيرة للنازي في الحرب العالمية الثانية في حالة «سيسرو» وهو الالباني الذي نجح في كسر الخزانة الخاصة بالسفير البريطاني في تركيا واطلع على

وثائق بريطانية سرية للغاية حول سير الحـرب وعرض في أحد الأيام بيع الوثائق للألمان فضلاً عـن مواصلة امدادهم بوثائق مماثلة. وقـد تم قبـول عرضه إلا أن بعض الخبراء في برلين لم يكن بوسعهم أن يصدقوا تماماً انـه ليس خدعـة بريطانية إلا أن أسبابهـم كانت أكثر تعقيداً منها في حالات الخوف من الخداع فقط وهذه الحادثة مثال جيد لايضاح كيف أن التحيز والأفكار المسبقة يؤديان إلى سوء تقييم المعلومات الصحيحة. فأولاً كـانت وثائق سيسـرو توفر أدلة عـن هجمات مكثفـة تالية للحفاء وتـزايد قوتهم وهي معلومـات تتعارض مـع الأوهام التي تؤمن بهـا الدوائر النازية العليا، وثـانياً حالت المنافسة بين أجهزة الحكومة وعدم الانسجام بينها دون إجـراء تحليل دقيـق للمصدر حيـث كانت المخابرات الخاصـة لقيادة هملر وكالتنبرونيـر على خـلاف مع الجهاز الدبلوماسي تحت قيـادة ريبنتروب ونتيجـة لـذلك كان ريبنتروب يرى، بشكل تلقائي أن المعلومات التي يعتقد كالتنبرونير أنهـا جيدة، إنها على العكس من ذلك لهذا كان من المستحيل إجراء تحليل موضوعي للمعلومات في ظل وجود قيادات متصارعة تتنافس على المنصب والنفـوذ.

وفي قضية سيسرو كان ريبنتروب وجهازه يشكان في وجود عملية خداع ونتيجة لذلك يمكن أن نؤكد أن معلومات سيسرو لم يكن لها مطلقاً تأثير كبير على استراتيجية النازي وعلى عكس الانطباع العام ليس هناك أدلة تشير إلى أن النازي حصل من سيسرو على أي معلومات حول الغزو الذي كان قد تم تخطيطه لدخول أوروبا باستثناء الاسم الحركي للعملية «افرلورد». ومن أطرف أحداث هذه القضية الشهيرة أن المخابرات النازية دفعت لهذا العميل القيّم مئات الآلاف من العملات الورقية الانجليزية المزورة المزيفة، وما يزال سيسرو من ذلك الوقت يحاول الحصول على تعويض من الحكومة الألمانية عن الخدمات التي قدمها.

كيف يتم استخدام الاستخبارات

إن المعلومة التي يتم جمعها بواسطة أجهزة المخابرات، أو يتم تصنيفها بواسطة المحلل تكون ذات قيمة ضئيلة ما لم تصل إلى أيدي المستهلك أي صانعي السياسة، وهذا يجب أن يحدث بسرعة وبوضوح وبشكل مفهوم حتى يمكن لمخابرات معينة متخصصة أن تكون متصلة بالسياسة المتخذة التي يهتم بها المستهلكون.

وهذه المعايير لا يمكن التوفيق بينها، حيث إن القدر المتاح للمخابرات يكون هائلاً ويضم عدداً من الموضوعات، فيصل إلى مركز الـ (CIA، وكالة الاستخبارات المركزية) آلاف المعلومات يومياً مباشرة أو من خلال وكالات حكومية أخرى، خاصة من وزارتي الدفاع والخارجية، ومعلومات إضافية أخرى تصل عن طريق أبحاث الباحثين تتعلق فيما نريد أن نعرف عن الأحداث وراء الستار الحديدي، ومئات من الدول الأخرى. وهذا الحجم من المعلومات ليس بغريب. إن أي مكان في العالم يمكن أن يشهد حدثاً يؤثر في الولايات المتحدة، إذن كيف يتم تبادل هذا الكم الهائل من المعلومات عن طريق الوكالات المختلفة؟ وكيف يتم التعامل معها في وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع والـ (CIA) حيث يوجد بين هذه الوكالات الثلاث تبادل مباشر وآلي للمعلومات (أي البيانات) الاستخبارية.

وبالطبع فإن شخصاً ما يقرر القضايا الهامة ويحدد الأولويات. فمرسل تقرير الاستخبارات (وربما يكون أي شخص من المسؤولين الكثيرين في الخارج - سياسي - عسكري - أو مخابرات) يصفه في الطلب ويعطيه أهمية معينة، ولكن مسألة الأولوية يتم حسمها لدى المستلم الأخير، فإذا كان التقرير يمس مسألة خطيرة مثل خطر العدوان، أو تهديداً ما خطيراً للأمن القومي فإن المرسل سوف يضع رسالته

في قنوات يمكنها أن تمد ضباط المخابرات بشكل مباشر وكذلك الخارجية والدفاع. وأخيراً الـ (CIA) كمنسق للمخابرات في الخارج لها الحق في الحصول على أية معلومات إضافية عن أية إدارة أخرى في حكومتنا. وهذا هو الوضع القانوني لدينا.

وتوجد نوبات عمل في الإدارات الثلاث طوال ٢٤ ساعة وأثناء ساعات العمل، التي تعتبر في المخابرات ساعات عمل غير عادي، فإن الضباط المختصين يستعرضون المعلومات القادمة للبحث عن أي شيء ذي أهمية وخطورة، وخلال ساعات الليل الطويلة يشاهد عدد من ضباط الحراسة والشاشات أمامهم يقومون بعملية مشاهدة الصور في الإدارات الثلاث، وهم على صلة قوية ببعضهم ويعرفون بعضهم تماماً ويتبادلون باستمرار الأفكار حول فرز المفاتيح لأي مشكلة ناجمة وفي حال ظهور أي شيء هام بالنسبة للمواد الكثيرة التي تأتي في الليل فإن ترتيبات تُتخذ لإعلام رؤسائهم وهؤلاء يقررون أياً من رجال السياسة في الحكومة، ابتداء من رئيس الجمهورية حتى كبار المسؤولين في الخارجية والدفاع والـ (CIA)، يجب أن يتم إبلاغه، وضباط المراقبة يراقبون خدمات الصحافة وتقارير الاذاعة بما فيها تلك التي من أصل سوفييتي أو صيني.

إن الأخبار ذات السمة المؤثرة، والمفتوحة مثل موت ستالين أو ثورة في العراق، أو اغتيال زعيم سياسي ربما يمكن معرفتها من خلال الوسائل العامة للاتصال، ولدى مسؤولينا في الخارج اليوم وسيلة أسرع لنقل التقارير من سفاراتنا وأجهزتنا المنتشرة عبر البحار، ولكن هذه الوسائل يجب أن تمر بعملية تركيب الرموز (الشيفرة) وحلها وكنتيجة لهذا فأحياناً تمرر الأخبار اللامعة والمبهرة بهذه الطريقة أولاً.

وبعد اكتشاف حادثة هامة تؤثر على أمننا، وهي التي تستدعي القرارات السياسية والتحركات، فتتوجه عادة للجنة استخبارات للفحص ومعرفة كيفية تداول المعلومة، وكيفية حداثة تحذيرها ووصولها من الاستخبارات في وقتها.

إن حوادث مثل الثورة العراقية ١٩٥٨ أو بناء حائط برلين الذي قسّم برلين في ١٣ أغسطس ١٩٦١ يتطلب مثل هذه المعالجة، حيث إن أياً من هذه الحوادث لم يكن من الممكن التنبؤ بها من خلال قنوات المخابرات، والغرض من فحص الحدث بعد وقوعه هو اكتساب معارف عن طبيعة معدل المفاجأة في التغيير في خدمات الاستخبارات، فإذا وُجد فشل سواء في التحذير الأولي أو في نقل المادة بين المخابرات فإنه يتم بحث الأسباب وتكثّف الجهود للبحث عن وسائل لتطوير الأدوات في المستقبل.

إن عملية دخول المعلومات من المخابرات تقع في ثلاث فئات، الأولى هي التداول اليومي للاستخبارات الحديثة وعلى مدار الساعة، والثانية هي بحث كل الاستخبارات المتاحة في سلاسل موضوعات خاصة بالاهتمام الخارجي لصانعي السياسات، وهذا يجب إعطاؤه اسم (الاستخبارات الأساسية). علي سبيل المثال فإن مجموعة تحليل تحصل على المعلومات الخاصة بالاقتصاد السوفييتي، والأخرى حول الزراعة والثالثة عن إنتاج الصلب والمواد الرئيسية، وأخرى حول تطور الطائرات والقذائف. والفئة الثالثة من العملية تتضمن إعداد تقرير الاستخبارات الذي سيتم وصفه فيما بعد.

ولا يوجد بالطبع وقت كاف لإدراج كل فقرة هامة من الاستخبارات. الحديثة لتحليل تفصيلي قبل توزيعها على صانعي السياسة، ولكن الاستخبارات الخام تعتبر شيئاً خطيراً ما لم يتم فهمها على أنها تحمل معناها العام وهو تقرير غير مقيَّم، يتم إرساله بدون أن يكون لدى مرسل التقرير ثقته النهائية ومدى مصداقيته. ومن ثم فإن صانعي القرار الذين يتسلمون هذه الاستخبارات على شكل نشرات في فترات (أو كرسالة منفردة أياً كانت أهميتها وإلحاحها ستتطلب معالجة خاصة) يتم تحذيرهم من الحكم من خلال الاستخبارات الخام فقط.

إن النشرات اليومية والأسبوعية تلخص على مستوى العالم، أهم الأحداث خلال الساعات السابقة أو الأيام السابقة لصدور هذه النشرات وهي تتضمن مثل هذا التأكيد لما يعطيه المرسل ولما تستطيع إضافته لـ (CIA) باستشارة ممثلي وكالات الاستخبارات الأخرى التابعة للحكومة، ويجتمع هؤلاء الممثلون باستمرار من أجل هذا الغرض، ويدققون في الفقرات التي يجب أن تتضمنها النشرة. ويوجد متسع لمعلومة جديدة يمكن إضافتها للنشرة اليومية حتى ساعات الصباح الأولى من اليوم التي ستصدر فيه النشرة وعندما يتم إرسال هذه الاستخبارات يتضمن هذا مادة للشرح خاصة بالمصدر وطريقة اكتسابها ومعرفة المعلومات ومصداقيتها.

إضافة إلى تقارير الاستخبارات الخام والدراسات الاستخبارية الأساسية، توجد أوراق المواقع التي يطلق عليها عادة التقريرات القومية ويتم اعدادها بواسطة الاستخبارات على أساس كل المعلومات المتاحة عن موضوع معين يتم تفسيرها بأنها غير متزنة (لا تخضع لموازين أو مقاييس) ـ وهنا نصل إلى أكثر الوظائف حيوية في عمل الاستخبارات ـ كيف يمكن التعامل مع كم المعلومات الهائل حول التطورات المستقبلية حتى يمكننا أن نجعلها مفيدة لصانعي القرار والمخططين عند تشخيصهم للمشاكل الحرجة الخاصة باليوم والغد؟

برلين، كوبا، لاوس، أهداف الشيوعية وأغراضها، البرنامج الذري والعسكري

السوفييتي، اقتصاديات الاتحاد السوفييتي، الصين الشيوعية إلى آخر القائمة، وهي بالطبع ليست مهتمة فقط بدول الكتلة الشيوعية وفي بعض الأحيان يتم وضع التقديرات على أساس أهميتها، وفي أحـيان أخرى وبصورة خاصة عندما تتدخل التقديرات بعيدة المدى. فإن هذه التقديرات توضع بعد أسابيع من دراستها.

إن أحد الأسباب الرئيسية لتكوين الـ (CIA) هو ايجاد ميكانيزم التنسيق وإصدار تقريرات الاستخبارات، حتى يتسنى للرئيس، ووزيري الدفاع والخارجية أن يكون أمامهم تحليل مسهب واحد من العناصر التي تلعب دوراً في المواقف التي تؤثر على أمننا القومي.

إن الرئيس ترومان الذي اقترح تكوين الـ (CIA) عبّر عن أمله في إيجاد مثل هذه الميكانيكية بقوله: «ان الحرب علمتنا هذا الدرس ـ اننا يجب أن نجمع المعلومات التي تجعل المعلومة متاحة حينما نريدها، وحينما نكون في حاجة إليها بشكل ذكي ومفهوم، فإذا لم تكن ذكية ومفهومة فلا فائدة لها»، كذلك فقد شرح النظام الذي يتم فيه تنسيق الاستخبارات وتمريرها إلى صانعي السياسة.

في كل مرة يكون مجلس الأمن القومي على وشك بحث سياسة معينة، دعنا نقول سياسة تتعامل مع جنوب شرق آسيا، فهو يحتاج إلى الـ (CIA) لتقديم التقديرات الخاصة بالتأثيرات التي ستحدثها هذه السياسة.

يجلس مدير الـ (CIA) مع فريق مجلس الأمن القومي ويخبرهم أثناء الاجتماع أن التقارير التي يضعها توضح آراء الـ (CIA) مع آراء المجالس الاستشارية للـ (CIA) وهي G 2 و A 2 و ONI، ووزارة الخارجية ومكتب المباحث الفيدرالية ومدير المخابرات في لجنة الطاقة الذرية ـ ويضع وزير الخارجية التوصيات النهائية للسياسة لكي يتمكن الرئيس من صنع القرار النهائي.

ويشير الرئيس ترومان إلى «المجلس الاستشاري» للـ (CIA) الذي تأسس عام ١٩٥٠ كلجنة مخابرات استشارية والذي أصبح فيما بعد مكتب استخبارات الولايات المتحدة، وغالباً يشار إليه «مجتمع الاستخبارات» أو مجموعة الاستخبارات«VSIB».

ويضم الـ «VSIB» عضواً إضافياً للمسجلين أعلاه ـ رئيس وكالة الاستخبارات بوزارة الدفاع وهي الوظيفة المنشأة حديثاً، والذي ينسق عمل الجيش والبحرية والطيران في جهاز الاستخبارات الخاص بهم ويلعب دوراً هاماً ومتزايداً فيما يسمى بمجموعة الاستخبارات. وكذلك وحدة الاستخبارات الخاصة بوزارة الخارجية والتي تضم مراتب رئاسية مثل مساعد وزير الخارجية. ويجتمع الـ «VSIB» اسبوعياً بانتظام وله اجتماعات عند حدوث الأزمات الحيوية فور تسلمه أخباراً عنها. ومدير

الاستخبارات المركزية، وهو رئيس مجلس الإدارة مسؤول عن التقريرات التي يصدرها المجلس. ومع ذلك فإذا خالف أحد الأعضاء التقرير، فإنه يسجل اعتراضه ويتم تضمين وجهة نظره في التقرير الذي يقدم في النهاية للرئيس وللأعضاء المهتمين بمجلس الأمن القومي، ويتم وضع ترتيبات معينة من الرئيس وكبار رجال الحكومة للاتصال السريع والمباشر بمدير الاستخبارات المركزية أو بأي من رجالهم في الاستخبارات عند حدوث أي طارىء.

وقد أثبتت الخبرة وعلى مرّ السنين أن هذا النظام يعمل بكفاءة ولم تمر لحظة واحدة خلال خدمتي كمدير للاستخبارات فشلت فيها بالاتصال بالرئيس ولو لدقائق قليلة للاستيضاح عن أية معلومة للاستخبارات شعرت بأنها ذات أهمية كبيرة. وقد أنشأت الـ (CIA) مجلساً قومياً للتقريرات يتبع الوكالة تعمل فيه مجموعة من الخبراء في تحليل الاستخبارات، مدنيون وعسكريون، ويعد المجلس مسودات أولية يدون فيها معظم التقارير ومن ثم يتم تنسيقها بالتعاون مع ممثل الـ «VSIB».

أما التعامل مع المواضيع ذات التكنولوجيا المتقدمة مثل القذائف السوفييتية، الطائرات، والبرامج النووية، فتم بشأنها تأسيس لجان فرعية فنية ذات كفاءة عالية من «VSIB»، وفي حالات خاصة يتم استشارة خبراء من خارج الحكومة. ومن الواضح أن عملية اعداد وتنسيق مسودة التقرير الأولية وتقديمها إلى «VSIB» وتشكيل التقرير النهائي لدى «VSIB» يكون مصحوباً بكل الآراء المعارضة كي يوضع تحت تصرف صانعي السياسة.

وتوجد أوقات معينة لا يكون بوسع المسؤولين فيها، إلا الحصول على تقارير عشوائية، وإحدى هذه المناسبات كان أزمة السويس في نوفمبر عام ١٩٥٦. فقد غادرت واشنطن للذهاب إلى مركز التصويت الذي أَتْبَعُ له في نيويورك، ومع بداية الاقتراع تلقيت مكالمة تليفونية من الجنرال «تشارلز بي كابل» نائب مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية، اطلعني فيها على انذار سوفييتي جاء عبر الوسائل السلكية، حذر فيه بولجانين بريطانيا وفرنسا من استخدام بلاده للقوة ما لم تنسحب فرنسا وبريطانيا من مصر.

وقد طلبت من الجنرال كابل أن يدعو لاجتماع (لمجتمع الاستخبارات) وعدت أدراجي مباشرة إلى واشنطن، واجتمع الـ «VSIB» طوال الليل، ومع بزوغ فجر اليوم الذي يشهد الاقتراع أخذت إلى الرئيس إيزنهاور تقريرات الـ «VSIB» التي تبين عزم الوكالة على موافقة الروس في إنذارهم واحتمالات التحرك في هذه الأزمة. ومحتويات التقرير المحتوي على التقريرات التي كانت سرية.

ومع ذلك فإن حقيقة رد وجود هذه الميكانيكية وقدرتها على العمل بسرعة يجب أن يكون معروفاً للعامة عندنا. وعندما ألقى الرئيس كيندي كلمة على الأمة حول بناء السوفييت قواعد لصواريخ متوسطة المدى سراً في كوبا فقد تسلمت الاستخبارات مجموعة تقارير من العملاء واللاجئين توضح أعمال البناء الجادة للقواعد الخاصة بنوع الصواريخ في كوبا. وقد كانت هذه الحقيقة معروفة لدينا منذ وقت قريب، فقد كان كاسترو أو السوفييت الذين يزعمون أنهم يعملون لصالح كاسترو قد أقاموا سلسلة قواعد لصواريخ أرض جو، وكانت هذه الصواريخ متوسطة المدى وكان الهدف المفترض لها أنها ستتعامل مع أي تدخل جوي بالطيران.

وحيث ان التقارير التي وصلتنا كان أغلبها من أناس ليس لديهم خبرة ودراية كافية بالصواريخ وتطورها فنياً، فلم يقطعوا بنتيجة يمكن رسمها فيما إذا كانت كل الصواريخ التي يتم إقامة قواعدها والتي تم الابلاغ عنها من النوع متوسط المدى، أو أن هناك نوايا شريرة أخرى تتداخل معها.

والدليل الذي تم تجميعه كان كافياً، لحث مجتمع الاستخبارات الأمريكي لطلب المزيد من التحليل العلمي الدقيق، وقد استؤنفت رحلات طائرات الاستطلاع، وكان الدليل الدامغ الذي تم الحصول عليه وبنى الرئيس الأمريكي عليه تقريره المهلة التي حددها بأربعين يوماً، وقد تطلب هذا بالطبع ليس فقط تحليل الاستخبارات الدقيقة ولكن قرارات الاستخبارات السريعة، فكما قال الرئيس فإن الطيران الاستطلاعي الأمريكي أكد أنه مما لا شك فيه أنه تم بناء عدد غير عادي من قواعد الصواريخ أرض جو في الأراضي الكوبية، كان من الواضح أن هذه الحادثة قد أعطت شعبية لنتائج الاستخبارات وقد أكدت تصريحات خروتشوف التالية لتصريح كيندي دقة أعمال الاستخبارات.

وهنا حالة أخرى، فعندما نضطر إلى اتخاذ تقريرات عشوائية فإن معظم التقريرات يمكن عملها على قواعد وأسس منظمة، بالرغم من وجود إحساس (شعوري) بالحيوية والطوارىء في مجال الاستخبارات بشكل عام.

ان أعوام التدريب ومهنة تجارة الاستخبارات تعتبر جزءاً من كل خاص بالانتاج النهائي وهنا يتضح فيما إذا كان التقرير سيستغرق أسابيع من العمل التحليلي أو يأخذ ليلة واحدة بكاملها لصدور نتيجته.

فمثلاً في حالة المشكلة الكوبية فإن التقرير تم إصداره بسرعة بسبب خبرة العديد من فرق الاستخبارات من المتخصصين فنياً، والذين كرّسوا أنفسهم لسنين في مجال تحليل الصور الفوتوغرافية المأخوذة، وقد وصل هؤلاء الرجال والنساء إلى

مثل هذه القدرة والكفاءة من دراسة الصور السابقة لقواعد الصواريخ. ولم يكن من الممكن أن يصدر هذا عن أناس جدد في هذا المجال وإذا صدر فإنه يكون غير واضح في التفسير وغير موضوعي، أما أولئك الخبراء فقد أصدروا نتائج استخبارات واضحة وذات مصداقية عندما شاهدوا أفلام القذائف في كوبا، ويجب أن يوجد تحليل للاستخبارات في كل دولة ربما تتأثر اهتماماتنا بها (أي بهذه الدول) كذلك في مجالات متخصصة تمثل اهتمامات محددة للاستخبارات فمثلاً ما حققه السوفييت في مجالات الطبيعة النووية والقذائف، ومراكب الفضاء، كذلك في مجال الصناعة والزراعة والنقل. ومن الطبيعي فإن مواقف دول كثيرة (الاقتصادية والسياسية والاجتماعية) ربما تمثل أهمية، وأنا أذكر أنني ذات مرة وصلني كمٌ هائل من المعلومات عن جرينلاند، وخلال دقائق تـم وضع دراسة جغرافية وجيولوجية ومناخية. وعن شعوب، وتاريخ هذه المنطقة.

كل هذا لا يمثل أي مشكلة في البناء الحركي الآلي من عمل ملفات للتقارير، والضغط على الزر الصحيح والحصول على الاجابات.

ان البناء الحركي الآلي يعتبر مساعداً ويزيد من سرعة العملية ولكن كلما نتقدم أكثر إلى عصر التكنولوجيا وإنجازاتها، فإن الماكينات المعقدة وأجهزة الانتقاء تتطلب قمة التكنولوجيا والتطور في الجزء الخاص بالقائمين على الأجهزة والتحليل، وبدون هذه التكنولوجيا فإن المعلومة العلمية لدينا والمعلومة المنقحة بواسطة الجاسوسية كانت ستصبح ذات فائدة قليلة لأن المحلل الصبور يرتب ويربط ويحاول ويضع الفروض البديلة ويرسم النهايات، وما يؤديه لهذه المهمة هو الخلفية المادية والخيال والابداع الصادر من الباحث السليم والدقيق.

توجد أشياء معروفة يحدث أن تكون غير معروفة أحياناً، وفي بعض الأحيان تكون سهلة وفي أحيان أخرى تكون صعبة للغاية في الحصول على ما يتعلق بها ولكن أيضاً توجد مسائل لا يمكن بالتأكيد معرفة أي شيء عنها، وفي مثل هذه الحالات فإذا زادت الحاجة لتخمين أي مسبب فإننا ندخل مرحلة أخرى من عمل الاستخبارات لمواجهة مثل هذه الحالة من التقرير.

فأنت تقدم تقريرات ليس فقط حول الأشياء المعلومة التي هي غير واضحة ولكن أيضاً تقدم تقريرات عن تلك الأشياء التي تعتبر غير معروفة حرفياً كما سوف نرى.

هنا يوجد جزء غير معروف وغير مشهور من عمل الاستخبارات، ولكن غالباً ما رأيت نتائج معروفة تنبع من هذه الأجزاء غير المعروفة عندما يتم استدعاء خبير

التحليل في الاستخبارات لوضع تقريرات يحتاجها صانع السياسة.

فبعض التقريرات يطلبها كبار صانعي السياسة في الحكومة لترشدهم في تعاملهم مع المشاكل التي أمامهم أو للحصول على فكرة عن كيفية ردود أفعال الآخرين تجاه خط معين يمكن اتخاذه من الحركة أو (العمل) ويتم إعداد المشاكل الأخرى وتقاريرها على أسس مجدولة منتظمة، مثل التقارير التي تأتي تباعاً عن الاستعدادات العسكرية والبحرية السوفييتية.

وقبل إعداد بعض التقريرات فإنه يتم الاتصال بأولئك الذين يجمعون الاستخبارات بسرية لمحاولة ملء ثغرات محددة خاصة بالمعلومات المطلوبة من أجل تحليل المشكلة تحليلاً كاملاً. مثل هذه الثغرات حول الشؤون الاقتصادية والعسكرية هي في متناول هؤلاء (العاملين) أو في معرفتنا بنوايا حكومة معينة. وأخيراً في الغالب يتم إعداد التقريرات لأن بعض أعضاء مجتمع الاستخبارات يشعر أن موقفاً بعينه يتطلب اهتماماً.

ان السحابة في السماء ربما لا تكون أكبر من يد الإنسان، ولكنها يمكن أن تنبىء بعاصفة، ودور الاستخبارات هنا إصدار (الإنذار) قبل الوصول إلى موقف مشكل جزئياً؛ فبينما تؤدي المسؤولية في الاستخبارات أحياناً إلى فشلها في التحذير من بعض المواقف الخطيرة، فإن الصحف والبعيدين عنها لا يعرفون عدد المرات التي قدمت فيها خدمات ضرورية لأن هذا يعتبر أيضاً أحد جوانب الاستخبارات التي لا تعلن عنه.

وهناك مجال واحد يحوز على اهتمام أكبر عن غيره من الموضوعات وهو المتعلق بالتقارير المنتظمة عن تطور ما نسميه بتصنيع وميكانيكية الآلة العسكرية، خاصة في الاتحاد السوفييتي.

وهذا يعني البرامج السوفييتية حول تطور القذائف، والرؤوس النووية والغواصات الذرية والنظام المتقدم من الطائرات وأي شيء يمثل قفزة في أي قطاع من هذه المجالات، وكذلك في مجال الفضاء وهذا أحد أهم المهام التي تواجه صاحب التقارير في الاستخبارات.

هنا يجب أن نتعامل مع القدرات السوفييتية لإعطاء نظام موجود وهو الدور الخاص بالنظام المرتبط بالنظام العسكري، وأولويته (في الاستخبارات) في المجال العسكري كله ومن الصعب التنبؤ بمقدار الكم في التأكيدات الخاصة بأي نظام معين

ما لم تقطع مراحل البحث والتطوير الطريق كله حتى تكتمل، وما لم تكن قد تمت تجارب التأثير وتعطى المصانع الأمر في البدء بإنتاج مثل هذه الأنواع.

وطالما أن النظام السوفييتي ما زال في مراحله الأولية فإن تقاريرنا سوف تهتم أكثر بالإمكانيات والنوايا المحتملة، وبمجرد أن تكون الحقائق الهامة والصعبة في المتناول فمن السهل إعطاء تقرير عن البرنامج الواقعي للنظام.

فمثلاً في عام ١٩٥٤ كان يوجد دليل على أن الاتحاد السوفييتي بصدد انتاج قاذفات ثقيلة متوسطة المدى تماثل طائراتنا (B. 52 s).

وفي أول الأمر كانت كل إشارة بما فيها ما وصفته بظهورها عام ١٩٥٥ مشيراً للنتيجة إلتي تقول بأن الروس يستخدمرن هذا السلاح كعنصر رئيسي في قوتهم الهجومية وخططوا لإنتاج قاذفات ثقيلة بأقصى إمكانياتهم وقدراتهم الاقتصادية والتكنولوجية.

وقد تم طلب تقرير عن بناء هذه القاذفة وقدرتها خلال الأعوام القليلة القادمة وكان صاحب هذا الطلب وزارة الدفاع ومدّها بالتقرير مجتمع الاستخبارات. وقد وضع التقرير بناء على المعرفة بصناعة الطائرات السوفييتية وأنواع الطائرات تحت التصنيع، وتضم هذه التقارير أيضاً مشروعات تهتم بالمستقبل على أساس الانتاج المحلي المتوقع ومعدلات الإنتاج والتوسع المتوقع في القدرة التصنيعية.

لقد كان هناك دليل قوي على القدرة السوفييتية في إنتاج القاذفات بمعدل معين إذا أرادوا ذلك، وفي وقت التقرير فقد أشار الدليل المتاح أنهم يرغبون في ذلك واعتزموا ترجمة هذه القدرة إلى برنامج واقعي.

وقد ادى كل هذا إلى التفكير في هذا البلد كـ «الثغرة القاذفة» ومن الطبيعي أن تستمر الاستخبارات في مراقبتها القريبة من الأحداث. ولم يزد الانتاج بالسرعة التي كان يبدو عليها وقد تكاثرت الأدلة على أن أداء القاذفة الثقيلة كان أقل من المرضي.

وعند نقطة ما تقريباً عام ١٩٥٧ قرر الزعماء السوفييت بوضوح أن تحد موسكو من إنتاج القاذفات الثقيلة بصورة كبيرة. ولم تتحقق الثغرة القاذفة إطلاقاً. وقد أصبح هذا مفهوماً جداً مع وجود دليل على ظهور وبدء برنامج القذائف عبر القارات (الصواريخ العابرة للقارات) الروسية وما أدى إليه من اهتمام، وهكذا فبينما ظلت صلاحية تقديرات قدرات انتاج القاذفة فإن تغييرات السياسة تطلب بالضرورة تقديراً جديداً حول التطورات المستقبلية في هذا النظام بعينه.

يمكن تعديل الاهتمامات بل وتغييرها وتقارير الاستخبارات التي تتعامل مع هذه

الأشياء لا يمكن أبداً أن تكون مرضية وتشهد اهتماماتنا حديثاً، والمتعلقة بقذائف «سكاي بولت» التي تغيرت وكيف يؤثر ذلك على حسابات المخابرات السوفييتية؟ ان برنامج القذيفة مثل نظيره الخاص بالقاذفة شهد تغيرات مختلفة حيث رأى السوفييت ـ ومن المحتمل قبلنا ـ ميزة القذيفة كسلاح المستقبل والأثر النفسي الشديد لإنجازات الفضاء، فقد رأوا ذلك قبل أن يتضح بعد أن كان من الممكن تخفيض حجم الأساس النووي وكذلك وزنه حتى يسهل نقله عبر أماكن شاسعة باستخدام القاذفات والتي صح حكمهم في أن تكون في مدى الامكانيات.

ولدى علمنا بموقعهم الجغرافي فإن متطلباتهم الاستراتيجية تختلف عن متطلباتنا، ولقد أدركوا سريعاً أن الصواريخ قصيرة المدى أو متوسطة المدى سوف تكون ذات فائدة عظيمة في السيطرة على أوروبا وأصول البرنامج تعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية عندما اتّبع الاتحاد السوفييتي التقدم الذي أحرزه الألمان في التصنيع والتطوير.

وللحصول على أكبر عدد من الخبراء الألمان، بينما كانوا يغزون المانيا الشرقية، فقد استأجر الاتحاد السوفييتي عدداً من الخبراء الألمان بالإضافة إلى أولئك الذين أخذوهم ونقلوهم إلى بلادهم من المانيا قسراً.

ومن الخطأ أن نرجع كفاءة قذائفهم الآن إلى الألمان بالدرجة الأولى فللروس أنفسهم تاريخ طويل في هذا المجال إذ طوروا كفاءات عالية بسرعة وهم لم يضعوا ثقتهم كلية في الألمان، ولكنهم استنزفوا معلوماتهم ومعرفتهم. فقد احتفظوا بهم لسنين على مكاتب التصميم، وأبعدوهم عن مناطق التجارب ومن ثم أرسلوا معظمهم إلى المانيا مرة أخرى، وبينما اثبت أولئك أنهم مصدر مفيد للاستخبارات الغربية فإنه لم يحدث لهم احتكاك بالتطور السوفييتي الواقعي ولم يقدموا إلا القليل فيما يتعلق بمشاركتهم في هذه الأبحاث، وفي الحقبة الأولى بعد نهاية الحرب فقد كان لدينا معرفة ضئيلة عن تقدم مشروع القذائف السوفييتي.

إن مكاتب التصميم صامتة، والقذائف متوسطة المدى أدت إلى ثورة. ومع بدء استخدام تكنولوجيا العلوم وصلتنا صور «V. 2» بعد عام ١٩٥٦، فقد بدأت الاستخبارات ذات القدرات العالية في الوقوع في أيدي أصحاب التقديرات غير الصبورين، وعدم صبرهم، كان مفهوماً، حيث وقعوا تحت ضغط من المسؤولين في وزارة الدفاع المهتمين ببرامجنا للقذائف ودفاعات القذائف.

وقد استغرق التخطيط في مثل هذا المجال سنين طويلة، ولقد شعرت وزارة

الدفاع أنها كانت متسرعة في الحكم على قدرات مجتمع الاستخبارات في عرض احتمالات ما حققه البرنامج السوفييتي عبر سنوات.

وفي الحالة الأولى الخاصة بإنتاج القاذفة السوفييتية فإن مجتمع الاستخبارات ـ وأنا واثق من هذا القول ـ سوف يكون ذا كفاءة عالية ما لم تطلب معرفتهم في مثل هذه الأمور ولكن حيث ان التخطيط العسكري يتطلب تقديرات من هذا النوع، فقد قال المخططون لضباط الاستخبارات إذا لم تقدموا لنا بعض التقديرات للمستقبل فسوف نكون مضطرين لإعدادها بأنفسنا.

وأنتم ضباط المخابرات يجب أن تكونوا في موقف أفضل منا في التنبؤ ولكي تنكر الاستخبارات هذا عنها فقد قالت ان هذا ليس من اختصاصها.

وهكذا فإن الأشكال الأولية لإنتاج القذائف السوفييتية، كان عليها أن تتطور استناداً لتقديرات الإنتاج وقدرات التطوير خلال فترة ما في المستقبل. ومرة أخرى كان علينا تحديد لِمَ وأي منها سيكون للجيش؟ لأي مدى يمكن للاتحاد السوفييتي تخصيص كل جهده للإنتاج العسكري؟ وكم سيدفع كتكلفة انتاج لهذه القذائف؟ وكم سيكلفه تطوير القدرات النووية؟ وكم سيخصص للقاذفات والمقاتلات والدفاعات الأرضية لمواجهة القاذفات المعادية؟ وكم ستكلفه الغواصات بصورة عامة؟ وكم سيتكلف عنصر الهجوم؟ وكم سيتكلف عنصر الدفاع؟ وتعزى عملية نمو الثغرة القاذفة في المناقشة القومية للتقديرات المليئة بالشك وعدم الاطمئنان في نهاية فترة الخمسينـات عام ١٩٥٠ ومن ثم فقد وضعت التقديرات الخاصة بعدد القذائف والرؤوس النووية المتاحة لدينا والقاذفات أيضاً لعدة سنوات قادمة، كل ذلك بناء على معلومات مؤكدة عن قدرات السوفييت ورؤيتنا لاهتماماتهم واستراتيجيتهم.

ولا شك في أن التجارب على القذائف السوفييتية عام ١٩٥٧ وبعد هذه السنة أثبتت كفاءة عالية في الصواريخ عابرة القارات وقد أظهرت لقطات سوفييتية صواريخ تبلغ مدى يتراوح بين ٧ ـ ٨ آلاف ميل في المحيط الهادي، وكذلك وضع الروس سفينة الفضاء سبوتنك في مدار حول الأرض.

وكذلك تجاربهم على الصواريخ متوسطة المدى التي أثبتت فاعليتها. ولكن هل سينصبون أول جيل من الصواريخ عابرة القارات كلها، أم سينتظرون لنصب الجيل الثاني أو الثالث من الصواريخ لاستخدامها بطريقة مؤثرة؟ وهل ستدفعهم العجلة في التفوق في القذائف إلى التضحية بالحديث من البرامج في سبيل برنامج قديم؟ والإجابة بالعودة إلى أحداث الماضي بأنهم يختارون البرنامج الأكثر تنظيماً. وبمجرد ظهور هذا الدليل فإن تقديرات الصواريخ عابرة القارات كما في حالة القذائف، تم

مراجعته مرة أخرى. واليوم بعد أزمة كوبا ربما نتساءل ما إذا كانت تصرفاتهم الحديثة توضح انهم في عجلة من أمرهم للانتهاء من مشروع القذائف واتمامه. فقد كانوا يرغبون في ... مخاطر جسيمة للحصول على قواعد القذائف متوسطة المدى وقصيرة المدى في كوبا لخلق التوازن وتمثيل تهديد لنا، وبوضع عدد إضافي من قواعد الصواريخ بعيدة المدى في قلب روسيا.

ولدى وقوع أية أحداث فإن الاستخبارات تكون قد جمعت بيانات ممتازة عن القذائف السوفييتية، من حيث الطبيعة والنوعية وقدرة التهديد.

كما كانت استخباراتنا جيدة ودقيقة عن الإنتاج السوفييتي في أجهزة الدفع، وتصنيع السفينة السوفييتية الفضائية «سبوتنيك» كل هذه الاستخبارات حثتنا على المضي قدماً في برنامجنا للقذائف والفضاء.

وعندما نتحول من المجال العسكري إلى المجال السياسي فإن المشاكل أمام أصحاب التقديرات تكون أكثر تعقيداً وتحليل السلوك الإنساني ومشاركة التفاعلات لا يمكن وضعها في الكمبيوتر، وهي تربك أمهر المحللين.

ومنذ أكتوبر من خريف عام ١٩٥٠ كان على هذا البلد مواجهة القرار الصعب في كوريا الشمالية، فإذا نحن لم نتقدم للأمام إلى نهر «يالـو» فلن نعيد توحيد كوريا. وإذا نحن فعلنا هذا فهل سترد الصين الشيوعية بهجوم مباشر؟ أو سوف يظلون على ما هم عليه. إذاً فمشكلة الكوريين دون غيرهم من القوات الأمريكية وقوات الأمم المتحدة شكلت الجزء الأكبر من القوات، مما يتعين علينا أن نربك مصادر الطاقة الكهربية الصينية في كوريا الشمالية في ذلك الوقت. وقد كانت لدينا استخبارات قيّمة وقوية عن قوات الصين الشيوعية على الجانب الآخر من نهر «يالو».

وكان علينا تقدير اهتمامات موسكو وبكين التي لم تكن في الحسبان في حسابات مجالسهم السرية وقراراتهم السرية في مثل هذه الحالات، فمن المغالى فيه ومن الخطورة أيضاً، أن يتخذ ضابط المخابرات قراراً حازماً يغامر به في غياب معلومات هامة عن مواقع وتحركات القوات والحصول على الامدادات الاستراتيجية وغيرها من الأمور الهامة.

أستطيع القول متحيزاً لتقديرات «يالو» فأقول بأنها قد وضعت قبل أن أنضم للـ (CIA) وكانت نتائج أصحاب التقارير تمثل مقامرة ولكنهم مالوا إلى أنه في حالات خاصة فمن المحتمل ألا يتدخل الصينيون.

في الحقيقة لم نعرف ما الذي سيقوم به الصينيون الشيوعيون ولم نعرف إلى

اي مدى سيدفعهم الاتحاد السوفييتي او يوافق على دعمهم إذا تحركوا.

لا يمكن أن نفترض أن أي زعيم شيوعي سوف يتصرف أو يكون رد فعله مثلما نفعل أو أنه سوف يكون محقاً في تقديراته حول ردود افعالنا، ففي كوبا في أكتوبر ١٩٦٢ فقد قدر خروتشوف مسبقا أنه يمكنه وضع قذائفه في هذه الجزيرة، وأن يزرعها ويخفيها ومن ثم وفي الوقت الذي يختاره يخبر الولايات المتحدة بالأمر الواقع الذي كنا سنقبله بدلاً من أن نخوض مخاطرة الحرب، وبالتأكيد فهو هنا أخطأ التقدير مثلما أخطأ البعض من جانبنا في الحكم على أنه لن يحاول أن يضع أسلحة هجومية في كوبا، تحت انوفنا وانظارنا مباشرة.

ولقد كان دور الاستخبارات في المراحل الأولى من المشكلة الكوبية في أكتوبر ١٩٦٢ التابعة للجنة الخدمات العسكرية في مجلس الشيوخ برئاسة السناتور «جون ستيبنس» عن ميسيسيبي، وتقول خاتمة تقرير اللجنة الفرعية أن التقييم الخاطىء والحسم الخاطىء للجنة الاستخبارات بأنها لن تصطدم بالسياسة السوفييتية في وضع القذائف السوفييتية في كوبا، نتج عن تقديرات المخابرات التي ثبت خطؤها مؤخراً.

هذا النقد للاستخبارات تم توجيهه في الفترة من سبتمبر وبدء أكتوبر قبل الحصول على الصور المناسبة، ثم ظهرت تقديرات محددة للاستخبارات للتأثير العام الذي اثبت أنه لسوء الحظ كانت الصواريخ متوسطة المدى، أو القذائف التي تم وضعها في كوبا بواسطة السوفييت، يمكنها الوصول إلى أماكن في الولايات المتحدة. وكان يوجد البعض وأذكر منهم السيد ماكون مدير الاستخبارات المركزية الذي عبّر عن هواجسه وتحذيراته المسبقة في هذا الوقت، ولكن مجموعة الاستخبارات بصورة عامة شعرت أن خروتشوف لن يخاطر باتخاذ قرار يؤدي لتهديد الولايات المتحدة والقيام بنشاطات تالية وبينت أنه مستعد للتخلي بسرعة عن هذا القرار في حال مواجهة رد فعل أمريكي عنيف

إن كوبا مثال آخر لتحذيرنا مما جعلنا مستعدين لخروتشوف وأي عمل غير متوقع وغير عادي، يمكن أن يشكل صدمة، والثقة في قدرته الخاصة على الانسحاب وكذلك على التقدم عندما تصبح المعارضة ساخنة وكذلك ثقته الكبيرة في القيام بعمليات الانسحاب دون أن يؤثر بدرجة خطيرة في الموقف داخل بلاده مع السيطرة الكاملة على وسائل الاعلام في بلاده، وهكذا يمكنه شرح انسحابه من كوبا بصورة تمثل السلام من جانب الاتحاد السوفييتي وفي الاعداد للتقديرات بالنسبة للسياسة السوفييتية وأفعالهم وردود افعالهم، حيث يكون مع عدد من القائمين بوضع التقديرات شخص أو أكثر يمثلون اتجاهات خروتشوف المسببة لتبريره. لماذا اتخذ خروتشوف

قرارات غير عادية وغير حقيقية أو كما ترى من وجهة نظرنا أنها قرارات غير حكيمة، وأفعال غير مربحة ولن تأتي عليه بفائدة؟ وبالطبع فإننا يمكن أن نتخطى النتائج المضحكة، وبالتأكيد النتائج الخاطئة في أغلب الأحيان إذا ما تماشينا مع تقديرنا للأشياء المحتملة التي يمكن أن يقوم بها الاتحاد السوفييتي.

ومن الجيد أن يتم تذكير صانعي القرار من آن لآخر ألا يستبعدوا مثل هذه الأمور غير العادية في التصرفات السوفييتية من حساباتهم فإذا أخطأ بعض صانعي التقديرات عندنا بشأن الأزمة الكوبية، فإن خروتشوف ومستشاريه ارتكبوا تقديرات أكثر سوءاً في أنه سوف يهرب بمناورته دون رد أمريكي قوي، ويجب على ضباط الاستخبارات مواجهة الحقيقة القائلة بأنه متى يقع حدث هام في مجال العلاقات الخارجية - وهو حدث ربما لا يكون الشعب مستعداً له - يمكن أن يرضخ أي منا للصرخات القائلة ان المخابرات فشلت مرة أخرى، فربما يكون الاتهام صحيحاً في وقت ما، ولكن توجد أيضاً مناسبات يتم فيها التنبؤ وإصدار تقديرات صحيحة ولكن تكون فيها المخابرات غير قادرة على الاعلان عن نجاحها.

ولقد كان هذا حقيقياً في وقت غزو السويس عام ١٩٥٦. فقد وصلت أجهزة الاستخبارات إلى ما ستفعله اسرائيل ثم فرنسا وانجلترا وقد تقبّل الشعب هذا الانطباع، ومع ذلك فقد ظهر فشل الاستخبارات صدرت تصريحات لمسؤولين أمريكيين للأثر الذي لم يعط للبلاد إنذاراً مسبقاً لهذا الحدث.

ومسؤولونا بالطبع مالوا للقول ان الفرنسيين والبريطانيين والاسرائيليين لم يخبرونا بما ينوون فعله. وفي الحقيقة فإن الاستخبارات الأمريكية استمرت في إعلام الحكومة وكالمعتاد لم تعلن الاستخبارات عن إنجازاتها.

وسبوتنيك مثال آخر، هنا، بالرغم من الانطباع العام المعكوس حول هذه القضية، فقد تنبأت مجموعة الاستخبارات بدقة تامة بالتقدم السوفييتي في تكنولوجيا الفضاء والوقت التقريبي الذي سوف يضعون فيه قمرهم الصناعي في مدار في الفضاء،وفي حالة أخرى أخطأت الصحافة والشعب في الدور الواقعي للمخابرات في مواقف محددة.

ولدى وصولهم إلى النتائج حول تقديرات المخابرات التي يجب أن تكون في ضوء التحركات المسؤولة فقد جنحوا للهجوم على المخابرات وخدماتها حتى لو لم يكن مثل هذا التقدير الخاطىء قد اتخذ فعلاً من قبل المخابرات، لنأخذ على سبيل المثال خليج الخنازير والمشكلة الخاصة به عام ١٩٦١، فمعظم الصحافة الأمريكية افترضت في وقت ما أن الاجراء الذي اتخذ تم التنبؤ به على أساس

تقديرات خاطئة للاستخبارات إلى الأثر الذي جعل عملية إنزال سوف تساعد وتمس عملية ثورة شعبية ناجحة في كوبا.

ان أولئك الذين عملوا مثلي في المقاومة السرية ضد هتلر وراء خطوط النازي في فرنسا وايطاليا والمانيا نفسها أثناء الحرب العالمية الثانية، وأولئك الذين شاهدوا مأساة الوطنيين في المجر عام ١٩٥٦ كانوا يدركون أن الثورات المتزامنة التي تقوم بها شعوب غير مسلحة في هذا العصر الحديث ليس لها تأثير وهي مدمرة في الغالب.

وبينما لم أعلق على أي تفصيلات خاصة بعملية كوبا عام ١٩٦١ ولا أعتزم التعليق عليها هنا فأنا أكرر ما قلته علناً انني لا أعرف تقديراً عن أن الانتفاضة المتزامنة للشعب غير المسلح في كوبا كانت ستجر إلى عملية الانزال.

وبوضوح فإن تقديرات مخابراتنا، خاصة في التعامل مع الشيوعيين، يجب أن تأخذ في اعتبارها ليس فقط الطبيعي والعادي ولكن أيضاً غير العادي وما يتميز بالقسوة وما هو غير متوقع.

ولا يمكن تقدير الأفعال وردود الأفعال على ما يجب أن نفعله نحن إذا كنا في موقف خروتشوف، الذي رأيناه يخلع حذاءه في الأمم المتحدة، إذ غالباً ما تكون التحركات السوفييتية متأثرة بنظريات ايفان بتروفيتش بافلوف عالم الفسيولوجيا الروسي الشهير والذي أثار انعكاسات معينة في الحيوانات وبتغيير المعاملة بسرعة وضع الحيوانات في حالة ارتباك.

ويمكن أن نرى لمسة بافلوف في تغييرات خروتشوف السريعة في الموقف والاجراء.

إن ما حدث في قمة باريس عام ١٩٦٠ عندما كان على علم بمشروع حربي والاستئناف المفاجيء للتجارب النووية في الوقت الذي كانت تنعقد فيه قمة عدم الانحياز في بلجراد عام ١٩٦١ والموقف الشهير لاستخدام الحذاء وأصبح الابهام كل هذا من أجل أن تحدث هذه الأمور صدمات لاحراز النتائج التي يريدها.

ربما كان يأمل أن يحصل على نفس التأثيرات التي أحدثتها أزمة الصواريخ السوفييتية في كوبا، ويجب أن نأخذ التقديرات التي توضح كيفية سلوك خروتشوف المستقبلية في مواقف نعرفها. ويجب أن نضع شخصيته في الاعتبار.

إن رغبة أي بلد في انحسار شعبيتها دفاعاً عن مصالحها الحيوية يمكن أن يكون عنصر قوة وغالباً ما تعاني السياسة الخارجية الأمريكية من نقص في هذا العنصر. لكن هذا لا يعني أن نتجاهل أساليب الصدمة التي قدمها خروتشوف.

وبالطبع لا يمكن لأي فرد أن يدرك جميع العوامل المؤثرة على موقف نعرفه ولا يمكن لأي شخص أن يتوقع بشكل مؤكد ما يجري في عقل القادة الذين تحدد قراراتهم مسار التاريخ.

وفي الواقع إذا كان يتعين علينا تحديد ماهية القرارات السياسية في المستقبل فإننا سنضل الطريق في غابة من الشكوك. إلا أن تقديراتنا يُعتمد عليها لتحديد ما سيفعله الآخرون. ولسوء الحظ فإن تقديرات المخابرات لن تصبح مطلقاً علماً دقيقاً.

لكن إذا تم إحراز تقدم في جمع عناصر الوضع المعروف لنا بأسلوب فعّال، فربما يساعد المخططين وواضعي السياسات ومن الممكن في أغلب الأحوال عرض الاحتمالات والامكانيات وعزل العوامل التي تؤثر على قرارات الكرملين أو بكين.

وعلى أي حال لقد قطعنا شوطاً كبيراً منذ حادثة بيرل هاربر ونظام التحليل العشوائي للمعلومات الذي كان سائداً في ذلك الوقت.

العميل

إن ضابط المخابرات الذي يقوم بعملية جمع معلومات سرية والذي تكلمنا عنه كعضو في جهاز المخابرات هو مواطن أمريكي يقوم بواجبه في مكان محدد سواء في الداخل أو الخارج وهو يعمل وفقاً لتعليمات من مقر قيادته وهو في كل ذلك يقوم بدور المدير والمدرب وكذلك التقسيم الميداني لنتاج عملياته. أما الرجل الذي يختاره ويستأجره ويدربه ويوجهه لجمع المعلومات والذي يقوم الضابط بالحكم على عمله هو العميل وهذا العميل الذي قد يحمل أي جنسية قد يأتي بالمعلومات بنفسه أو قد يكون لديه اتصالات أو علاقة بأشخاص في أماكن يمكنهم منها تقديم هذه المعلومات. كما أن علاقته مع جهاز المخابرات تستمر عموماً طالما يرى الجانبان أنها مفيدة ومرضية.

إذا ما نجح ضابط المخابرات في الوصول إلى شخص يصلح للعمل في المخابرات نتيجة لمعرفته بعض المعلومات أو لأن بإمكانه الوصول إليها فإنه يتعين على ضابط المخابرات أن يتأكد أولاً من الأسس التي سيكون العميل المحتمل على استعداد للعمل على أساسها، أو ما هي السبل التي يمكن من خلالها دفعه لقبول هذا العمل. ولا يواجه ضابط المخابرات هذه المشكلة في حالة عرض العميل لخدماته ولكن مازال يتعين عليه أن يتأكد من الأسباب التي دفعت بالعميل إليه حتى يفهمه جيداً ويمكنه التعامل معه بشكل مناسب كما من الممكن أن يكون العميل من جانب العدو في محاولة للنفاذ إلى صفوف المخابرات.

وتأتي الأيديولوجية والوطنية على قمة قائمة الدوافع لمثل هذا العمل وإذا كان المتطوع يقوم بعمله من منطلق أيديولوجي وهو مخلص في هذا الصدد فنادراً ما تكون هناك حاجة للشك في ولائه. ولكن يجب عليك أن تعتبر دائماً ولاء الأشخاص الذين

يقومون بهذا العمل أهو أساساً من أجل المال أو سعياً وراء المغامرة والغموض.

وفي الحقيقة فإن كلمة أيديولوجية ليست الكلمة الدقيقة كما نصفه هنا ولكننا نستخدمها انتظاراً للتوصل لوصف أفضل، وقليلون هم الذين يقومون بعملية تحليل حتى يثبتوا لأنفسهم نظرياً أن نظاماً حكومياً أفضل من نظام آخر.

كما أن قليلين يعدون تبريراً فكرياً أو عقلياً للخيانة كما فعل كلاوس فوشر الذي زعم أنه يمكنه حلف يمين الولاء للتاج البريطاني إلا أنه استمر في تقديم الأسرار البريطانية للاتحاد السوفييتي حيث ذكر أنه استخدم فلسفته الماركسية في تقسيم عقله نصفين منفصلين. والأكثر احتمالاً أن تكون آراء هؤلاء وأحكامهم قائمة على أساس المشاعر أو على أساس اعتبارات عملية. إن المسؤولين في الأنظمة الشيوعية الذين على دراية بأسلوب العمل في الدولة التي يعملون فيها يحرصون على التكالب على السلطة في المناصب العليا، وأن المواطنين يخدعون يومياً بالشعارات الماركسية والحقائق المشوهة، وأن الشيوعية نظام يتعامل بتشدد مع كل شيء باستثناء اتباعه المتطرفين،وقد وجد هؤلاء سبلاً لتحقيق الأرباح من ذلك أن كل بلد شيوعي يوجد بـ الكثير من المواطنين الذين تعرضوا للمعاناة بسبب الدولة، أو قريبون من آخرين تعرضوا لهذه المعاناة. والكثيرون من هؤلاء قد يكونون على استعداد بعد ضمهم حديثاً للاشتراك في أعمال التجسس ضد النظام الذي لا يحترمونه ويحملون شعوراً بالأسى تجاهه.

والعميل الأيديولوجي في الوقت الحالي لا يعد نفسه خائناً أي انه لم يخن أبناء وطنه حيث أن دافعه المبدئي هو الرغبة في إسقاط نظام مكروه. وبما أن الولايات المتحدة ليست دولة امبريالية وهي تفرق بين الأنظمة الشيوعية المعادية وشعوب هذه الدول يمكن أن يكون هناك اتفاق أساسي في الأهداف بين العميل الأيديولوجي وجهاز المخابرات في دولة حرة.

والعميل الأكثر مثالية لن يشارك في أعمال التجسس البسيطة بل قد يفضل الانضمام لنوع ما من الحركات السرية إذا ما وجدت. قد يشارك في أنشطة سياسية في المنفى والتي تهدف إلى الاطاحة بالنظام المستبد الذي يسيطر على البلاد. وقد حاول واحد من أفضل العملاء الذين تعاملت معهم في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، والذي كانت معلوماته من أكثر المعلومات أهمية بالنسبة للجهود الحربية للحلفاء،حاول دائماً اقناعي بضرورة السماح له بالمشاركة في الحركات السرية المتزايدة للتخلص من الحكم النازي. وفي كل مرة كنت أقابل فيها هذا العميل كان علي أن أؤكد له أن قيامه بهذا العمل سيجذب الاهتمام إليه وأن قدرته على تقديم

المعلومات الهامة جداً بالنسبة لنا تعتبر عملاً أكثر قيمة وكان من الواضح أنه غاضب وأنه يود المشاركة في النضال حيث كان يرى أن وضعه بعد انتهاء الحرب سيكون أفضل بكثير إذا ما ساعد في إسقاط النازي إلا أنه لن يصبح بطلاً من خلال تقديمه المعلومات للحلفاء ولسوء الحظ كان على حق. كما أن عميلاً آخر من المعارضين للنازية كان على استعداد لتوفير جميع أنواع المعلومات باستثناء تلك التي قد تؤدي بشكل مباشر إلى مقتل أبناء وطنه في المعارك. وهذه الحدود يضعها الأشخاص أصحاب الضمائر.

كما أن جميع أجهزة المخابرات تستفيد من هؤلاء الذين يعملون أساساً من أجل المال أو من منطلق حبهم للمغامرة والغموض كما أن البعض ينجحون في الأعمال السرية والخداع ويشعرون بنوع معين من الرضى غير السوي لمجرد كونهم المحركين المجهولين للأحداث. ومن بين المتآمرين الشيوعيين يمكن أن نحدد العديد من هؤلاء الخائنين. كما يوجد في عالم التجسس أشخاص يدفعهم لهذا العمل الرغبة في السلطة وتحقيق أهمية الذات وهو ما لا يمكن تحقيقه في وظيفة عادية، والعميل يسعى غالباً لمواقف كبرى حيث يمكنه أن يكون شخصاً مثيراً للاهتمام وذا أهمية بالنسبة للحكومات كما أن بعضهم يذهب لأماكن رفيعة المستوى.

وهناك فقرة رائعة في قصة سومرست موم حول أحد جواسيس الحرب العالمية الأولى وحول الأسباب التي تدفع رجلاً معيناً للقيام بهذا العمل حيث يقول موجهام إنه لا يعتقد أن (سيبور) أصبح جاسوساً من أجل المال فقط،لقد كان رجلاً له أذواق معينة قد يكون أحد هؤلاء الرجال الذين يفضلون الطرق المنحرفة على الطرق السليمة. وهم يتمتعون لأسباب معقدة بخداع زملائهم حتى انه يتحول للعمل كجاسوس من منطلق رغبة لجذب انتباه هؤلاء الذين لا يعرفون بوجوده. وقد يكون الذي دفعه شيء أو شعور بأن مواهبه لم تحصل على التقدير الذي تستحقه أو مجرد رغبة شيطانية له تدفعه لعمل الشر. إن ما يعرضه لنا موجهام هنا حقيقة يعرفها بالطبع جيداً أي كاتب أومحلل نفسي جيد أو كذلك كل ضابط مخابرات جيد. وهذه الدوافع نادراً ما تكون خالصة أو منفردة إلا أنها دائماً متشابكة. إن إمكانية الحصول على المال والحماية قد تقلب الموازين بالنسبة للشخص الذي لديه دوافع أيديولوجية إن لم تأته الشجاعة الكافية. وتشعر بعض أجهزة المخابرات بأهمية قبول المتعاون الأيديولوجي بعض الأموال أو خدمة أو هدية من نوع ما حيث إن ذلك سيجعل العميل ملتزماً نوعاً ما بالخدمة وهذا يؤكد الصلة. وقد ذكر وويتاكد شامبرز واليزابيث بينتلي كيف ذهب السوفييت الذين يحاولون اختراق الصفوف الأمريكية خلال الحرب إلى أبعد الحدود بتقديم مرتّبات وحوافز حتى للشيوعيين الأمريكيين المخلصين الذين كانوا يعملون

لحسابهم. وعندما كان الأخير يرفض باستمرار فكرة قبول أي نوع منه، كان السوفييت يلجأون في النهاية إلى تقديم هدايا غالية بمناسبة أعياد الميلاد وهي هدية لا يمكن رفضها وكان بوريس بيكون الملحق العسكري الأمريكي لدى واشنطن في الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٨ يصفها بأنها «هدية من الشعب السوفييتي تقديراً لمساعدتهم».

ومن بين من يقومون بأعمال التجسس من أجل الحصول على المال هؤلاء الذين يعانون من مشاكل مالية مثل الديون التي لا يمكنهم سدادها وعدم كفاية التمويل الحكومي مع عدم توفر بديل وهذا الشخص من منطلق افتضاح أمره وعدم قدرته على جمع المال من أي مصدر قانوني يتحول إلى أي جهاز مخابرات أجنبي ليقدم له المعلومات إذا كان على استعداد لدفع أموال كافية. ويشير إلى كثرة جرائم الفساد الاقتصادي خلف الستار الحديدي الاجراءات المتشددة التي اتخذها مؤخراً جورباتشوف لمواجهتهم وهو ما ذكرته بالفعل. والشخص الذي يحاول الهروب من محاكمة جنائية بهذا الأسلوب يوقع نفسه باختياره في أسر شبكة التجسس ومن المتوقع أن يخدم المخابرات جيداً حيث لا يوجد طريق للعودة.

إن الطبيعة الخاصة للدولة الشيوعية تعطي للغرب فرصاً محددة للحصول على خدمات الأشخاص «غير المستعدين» لذلك. وقد أشرنا إلى أن الجريمة التي يرتكبها الشيوعي الطيب هي الجريمة السياسية. والجريمة السياسية الأساسية في الشيوعية هي التفكير الخاطىء أو الانحراف باختلاف أنواعه أو عدم اتباع خط الحزب مهما كان هذا الخط في ذلك الوقت وسواء كان ذلك بالعمل أو حتى في البيانات العامة. وغالباً ما تكون هذه الانحرافات قد ارتكبت في الماضي ولكنها لا تلغى وإنما تصبح بمثابة جرائم فقط بأثر رجعي بعد أن يجد الحزب أسباباً خاصة به لتطهير البيت أو لتعديل برامجه أو تفسيرها. وأعمال التطهير التي تمت في الأعوام الخمسة عشر الماضية كلها امثلة على العملية التي يتم فيها إعلان المذاهب لايجاد كبش فداء أو تبرير تغييرات رئيسية في الإدارة أو السياسة أو الهيكل الحكومي.

وكانت النازية بالطبع أكبر جريمة سياسية ارتكبها كبار الشيوعيين في الخمسينات. وقد علم الكثيرون من الشيوعيين المخلصين والصادقين بأنهم ينتمون للنازية حتى قبل أن يظهر هذا المذهب بالفعل مما أثار هلعهم وقد عوقبوا نتيجة لذلك.

وبالطبع أصبحت الستالينية أكبر جريمة سياسية بعد وفاة ستالين ورفضت أفكاره. كما توجد جرائم كثيرة صغيرة.

وكما يعلم الشيوعيون جيداً فإن المخابرات الغربية تراقب عن كثب هذه الاتجاهات منذ أعوام وبالاضافة إلى ذلك تحتفظ بسجلات للأعمال والخط والحياة العامة الخاصة بالمسؤولين الشيوعيين من قمة السلطة حتى أقل المستويات في الحزب، وعندما تظهر أي بوادر عملية تطهير تحاول المخابرات الغربية الاتصال بهؤلاء الذين يعتقد أنه سيتم الاستغناء عنهم أو الذين سيتعرضون للمهانة أو حتى لعقاب أشد وتحاول إقناعهم أنهم سيحتاجون مساعدة وأنهم سيحصلون على هذه المساعدة إذا ما تعاونوا معها. وهذه ليست عملية ممارسة ضغوط بل تبدو أكثر كمحاولة لإرهاب شخص ما حتى يفقد ثقته بنفسه ويشعر أنه بحاجة لصديق. وأحد الأسباب التي لم تؤدِ إلى نجاح مثل هذا الأسلوب كما هو متوقع هو التفكير الإنساني النموذجي عند مواجهته لخطر عام، حيث إن المرء يفكر بهذا الأسلوب، «فعندما يبدأ تساقط القنابل قد تسقط إحدى القنابل على المنزل المجاور أو المقابل ولن تسقط على منزلي. سأرى مدى حظي».

ونحن نحتاج لمختلف الأشخاص عند اقامتنا لجهاز المخابرات حيث يكون هناك المحلل الذكي الذي يملك القدرة على التمييز، وكذلك الشخص الذي يقوم بعملية المقارنة بين المعلومات الخام التي تم جمعها من جميع أنحاء العالم، والفني الذي يساعد على إنتاج ومراقبة جميع الأدوات العلمية لجمع المعلومات، والضباط، وضباط الحالات، وضباط الاتصال الذين يوجهون عمليات البحث عن المعلومات للطريق الصحيح. وكل هذه المهام المتنوعة تتطلب مهارة عالية وتدريباً دقيقاً.

الرجل المسؤول
ضابط المخابرات الأمريكية

أدت اقامة منظمة مخابرات دائمة في الولايات المتحدة في عام ١٩٤٧ إلى خلق مهنة جديدة تماماً بالنسبة لنا وهي مهنة ضابط المخابرات. وهذه المهنة بسيطة بالتأكيد ولكن تظل حقيقة أن هذه البلاد تقدم حالياً لسيدات ورجال من الشباب، يتم اختيارهم بعناية، فرصة لبناء مستقبل لهم من خلال عملهم في المخابرات.

وقد تم تدريب الآلاف من ضباط المخابرات خلال الحرب العالمية الثانية على أن يعود أغلبهم إلى وظائفهم المدنية بعد انتهاء الحرب. وفي الوقت الحالي توجد وحدات مخابرات في الجيش والقوات البحرية والجوية فيها مدنيون حيث ان أغلب العسكريين الذين يتم تعيينهم في هذه الوحدات يقومون بذلك بشكل دوري لفترات محدودة. وحتى وقت قريب كان ضابط الجيش الطموح يَعُدُّ توليه مهمة في المخابرات لفترة طويلة كالمقبرة بالنسبة له، ولكن لم يعد الحال كذلك، بيد أنه بعد على سبيل الاستثناء يمكن أن يقوم أي من أفراد القوات المسلحة بالعمل لفترة طويلة في المخابرات.

وقد قامت وكالة المخابرات المركزية (CIA) منذ اليوم الأول لتأسيسها بمباشرة عملها على أساس افتراض أن أغلبية موظفيها مهتمون بهذا العمل ولذا فهم في حاجة لنفس الضمانات والمزايا التي كان من الممكن أن يحصلوا عليها إذا ما عملوا في الخارجية أو في الجيش وأنهم يستحقون هذه الضمانات والمزايا. وفي المقابل تتوقع وكالة المخابرات (CIA) من موظفيها أن يبدأوا العمل معها وهم يعتزمون البقاء لفترة طويلة في المخابرات مثلها مثل أي مؤسسة عامة أو خاصة ضخمة لا يمكنها أن تحتمل تكلفة استثمار مواردها من الوقت والمال في تدريب أشخاص يتركون العمل

قبل أن يبدأوا في المساهمة في العمل الموكل إليهم. بل إنها في الواقع أقل قدرة على تحمل مثل هذه التكلفة من أي مؤسسة أخرى. ويرجع ذلك لسبب خاص بعينه وهو الحفاظ على أمنها. إن الاستعانة بالموظفين لفترة قصيرة على نطاق واسع أمر خطير حيث انه يعني كشف أسلوب العمل وهوية كبار العاملين وعمليات معينة يتم تنفيذها إلى حد ما لأشخاص لم يتم تلقينهم بصورة كافية العادات الأمنية التي يحكم من خلالها متى يمكنه التحدث ومتى لا يمكنه.

لذا فإن طبيعة وكالة المخابرات المحترفة ملتزمة بتعيين عاملين لفترة طويلة حيث انها تختبر بعناية المرشحين للوظيفة حتى تحدد قبل وقت كاف ما إذا كان هؤلاء الأشخاص أكفاء ومناسبين للعمل وما إذا كان انضمامهم إلى المنظمة سيسمح بتطوير مستقبلهم من أجل المنفعة المتبادلة بالنسبة للحكومة ولضابط المخابرات.

وكيفية تجنيد العاملين في المخابرات أمر خاص بنا تماماً إلا أن العامل الذي يتحكم في ذلك هو طبيعة العمل الذي يريد المرشح للعمل القيام به.

وبصفة مبدئية لا يمكننا أن ندعو المرشح للعمل إلى داخل المنظمة ليقوم بجولة داخلها ليطلع على مدى تنوع الاحتمالات المستقبلية وعائداتها، كما لا يمكننا أن نعطيه كتيباً لنطلعه على كل شيء يتعلق بالوكالة ومع أن وكالة المخابرات المركزية تقوم في الواقع بتوزيع كتيب عن عملها على الأشخاص المرشحين للعمل إلا أن هذه الكتيبات لا يمكنها أن تقدم معلومات تفيد العدو أو تفضي بمعلومات كافية للمرشح. والوكالة في هذه الحالة تريد أن تعرف كل شيء عن المرشح قبل تعيينه ولكن في هذه المرحلة لا يمكن اطلاعه على معلومات كثيرة خاصة بالمنظمة أو على الوظيفة التي تكون في انتظاره في حالة اختياره.

ومن الواضح أنه في مثل هذه الحالة فإن رئيس العمل لا يحكم على ما إذا كان المرشح مناسباً للوظيفة فحسب بل عليه أن يقرر ما إذا كان المرشح سيكون راضياً عن الوظيفة عندما يصبح على علم تام بمهامه. ويجب أن يثق المرشح تماماً في التعهدات التي سيحصل عليها من مرؤوسه، والسبيل الوحيد الذي يمكّن المخابرات من إعطاء مثل هذه التعهدات هو البحث بعمق في حياة وعقل المرشح من أجل مصلحته الخاصة ومصلحة المخابرات.

وتمثل استقصاءات الأمن جزءاً سلبياً تماماً في هذه العملية. ومع أن هذه الاستقصاءات دقيقة للغاية إلا أن الحقائق تشير إلى أن ٩٩ فرداً من بين كل مائة امريكي يمكنهم اجتياز هذا الاستقصاء دون أي صعوبة. وليس من الصعب أن ندرك لماذا لا تضم المخابرات إلى صفوفها خلال هذه الفترة اشخاصاً على صلة وثيقة

بأقارب لهم خلف الستار الحديدي أو أشخاصاً كان لهم في وقت من الأوقات علاقة بالشيوعية أو الجماعات المناهضة للأمريكيين أو هؤلاء الذين أظهروا في الماضي ضعفاً في السلوك الشخصي وأدينوا ببعض الأحكام الأخلاقية. بيد أن اكتشاف مثل هذه الأشياء بالنسبة لأي شخص أكثر سهولة من معرفة ما إذا كان هو الشخص المناسب لمهنة رجل المخابرات أما لا.

والصعوبة هنا أن وظائف المخابرات متشعبة ومتنوعة وتتيح المجال للاستفادة من أنواع عديدة من المواهب يمكن لمختلف السيدات والرجال أن يحققوا النجاح بأساليب مختلفة في أي قطاع من هذه الوظائف وبالمثل ليس هناك ملامح للخصائص الشخصية التي تستخدم في اختيار العاملين في المخابرات إلا أن هناك متطلبات أساسية بدونها لا يمكن أن ينجح المرشح في الوظيفة أو أن يرضى عنها على المدى الطويل في كل الحالات.

عندما تحدثت مؤخراً أمام المتدربين المبتدئين في وكالة المخابرات الأمريكية حاولت أن أحدد خصائص ضابط المخابرات الجيد وهي:

- القدرة على فهم الناس وحدّة الملاحظة.
- القدرة على العمل مع الآخرين في ظل ظروف صعبة.
- تعلم كيفية التفرقة بين الحقائق والأوهام.
- القدرة على التفرقة بين الأشياء الضرورية وغير الضرورية.
- أن يكون لديه قدرة كبيرة من الابداع والبراعة.
- أن تتوافر فيه المتطلبات الأساسية للمهنة.
- أن يولي اهتماماً كافياً للتفاصيل.
- أن تكون لديه القدرة على الإعراب عن الأفكار بوضوح واختصار، وأهم شيء بأسلوب مثير.
- إدراك الوقت الذي يجب أن يمتنع فيه عن الكلام، ويمكنني أن أضيف إلى هذه القائمة مؤهلات أخرى مطلوبة في ضابط المخابرات الكفء وهي أكثر بالنسبة للمواقف والدوافع منها بالنسبة للقدرة على العمل.

يجب أن يكون ضابط المخابرات متفهماً لوجهات نظر الآخرين وأساليب تفكيرهم وسلوكهم حتى لو كانوا اغراباً تماماً عنه، حيث إن الصلابة وجمود الفكر صفات لا تبشّر بمستقبل طيب في المخابرات.

ويجب ألا يكون ضابط المخابرات طموحاً أكثر من اللازم أو متحمساً من أجل

عائد شخصي عملي على هيئة شهرة أو ثروة. لأنه من غير المتوقع أن ينال ذلك من عمله في المخابرات ولكن يجب أن يضيف إلى المهمة هذا الشيء غير الملموس الذي يعدّ من أهم الخصائص اللازمة لضابط المخابرات، هذا الشيء هو الحافز. ما هو الحافز الذي يدفع شخصاً لتكريس حياته لمهنة المخابرات؟

ويمكن أن نجيب على السؤال بالنظر إلى بعض الأشخاص الذين تضمهم صفوف المخابرات الأمريكية اليوم لنرى كيف جاؤوا إليها. من بين هؤلاء أحد كبار المشرفين في وكالة المخابرات المركزية الذي حارب في الساحة الأوروبية إبان الحرب العالمية الثانية وبقي هناك حتى احتلال ألمانيا وكان في برلين خلال الجسر الجوي في عام ١٩٤٨ ثم عاد أخيراً بعد أن تم تسريحه وقد اكتشف بعد أن أمضى ثلاثة أشهر في وظيفته القديمة أن الوظيفة التي كانت في يوم من الأيام جذابة بالنسبة له من الناحية المالية لم تعد ترضيه في ظل عالم تسوده النزاعات الدولية المستمرة والتي أصبح على علم ببعضها بفضل خدمته أثناء الحرب وما بعدها. ولقد كان في حاجة لأن يكون قريباً من جبهة تتصل بما يشعر. إنه يشترك أو يتعامل مع الأشياء التي يعتقد أنها أكثر أهمية.

والرجل الآخر وهو أصغر سناً تخرّج من الكلية في بداية الخمسينات وكان متخصصاً في الشؤون الحكومية والدولية وكان والده يأمل أن ينخرط في الأعمال التجارية للأسرة إلا أنه لم يود أن يعيش هذا النمط من الحياة في ذلك الوقت، ولم يكن متأكداً بالفعل ماذا يود أن يعمل بمعرفة وما يهمه من المعلومات البسيطة التي حصل عليها من خلال دراسته في الجامعة وكان أكثر ما يثيره كلما قرأ العناوين الرئيسية للصحف هي الالتزامات والمشاكل التي تعترض الولايات المتحدة في الخارج والتحدي السوفييتي لأسلوبنا في الحياة. ثم توجه فيما بعد إلى واشنطن للبحث عن عمل حيث عمل لفترة في أحد المكاتب الحكومية ذات الصلة البعيدة بالشؤون الخارجية ثم وجد أخيراً ما كان يتطلع إليه في المخابرات.

وهناك ثالث من بلدة صغيرة في وسط الغرب إلا أنه لم يحصل على تعليم جامعي وقد تم تجنيده ثم عيّـن في النهاية في وحدة إشارة في الخارج حيث أعجب بالشرق الأقصى وشهد الغزو الشيوعي الصيني «لكوموي» وعاد إلى البلاد بعد تسريحه،وبفضل التدريب الذي حصل عليه في الجيش كان بإمكانه أن يعمل في الأليكترونيات أو أن يفتح متجراً لإصلاح أجهزة التلفزيون إلا أنه تقدم يوماً لوكالة المخابرات المركزية يعرض خدماته وقد تم تعيينه في وظيفة اتصال هامة في الخارج.

إن الشيء المشترك بين هؤلاء الرجال هو إدراكهم للنزاع القائم في العالم اليوم واقتناعهم بأن الولايات المتحدة متورطة في هذا النزاع وأن سلام ورفاهية

العالم مهددان وأن الأمر يستحق القيام بعمل في هذا الشأن. وكذلك ما دفعهم لذلك أمر أكثر تعقيداً من الوطنية الخالصة وأعمق من التطلع المجرد للإثارة.

إن ضابط المخابرات سواء عمل في الداخل أو الخارج، في داخله عقلية «خط المواجهة» أو عقلية خط الدفاع الأول كما أن إدراكه يزداد حدة حيث انه يواجه بشكل مستمر في عمله اليومي ما يشير إلى أن العدو نشط. وإذا ما لعبت روح المغامرة دوراً في هذا المجال، وهذا يحدث بالتأكيد، فإنها مغامرة حافلة إلى حد كبير بالاهتمام بالأمن العام. مع وجود هذا الدافع فإن أي فرد لديه نوع من التأهب والفضول والوطنية ويتمتع بقدر مناسب من التعليم يمكن أن يتحول إلى ضابط مخابرات جيد؛ ويجب أن تبحث المخابرات عن هذا الجانب «التحفيزي» الشامل في الشخص الذي سيكون موظفاً فيها في المستقبل، كما أن التعليم والموهبة والاجراءات الأمنية الصارمة لن تجعل من هذا الشخص رجل مخابرات ما لم يكن لديه هذا الحافز.

وقد وجه اتهام إلى وكالة المخابرات المركزية مفاده أنها تعين أغلب العاملين بها من خريجي جامعات الشرق فضلاً عن القول بأن لدينا «تساهلاً كبيراً وربما حرية كبيرة» بما يتعارض مع العمل الصعب الذي تقوم به وكالة المخابرات المركزية. إن جامعات هارفارد ويال وكولومبيا وبرينستون تأتي على رأس القائمة من حيث عدد الدرجات العلمية (الكثير من العاملين في المخابرات حصلوا على أكثر من درجة علمية) إلا أن جامعات شيكاغو إلّينوى وميتشجان وكاليفورنيا وستانفورد وميث تأتي بعد المجموعة الأولى مباشرة.

من المهم أن نذكر أن الاحصاءات تشير إلى مائة تقريباً من كبار الضباط في المخابرات الأمريكية حصلوا على درجات علمية من ٦١ جامعة مختلفة في جميع أنحاء البلاد أي انها في الواقع مجموعة متنوعة للغاية تمثل الولايات المتحدة بأسرها كما أن هناك عدداً معيناً من هؤلاء الأشخاص حصلوا على درجات عليا بعد التخرج من جامعات أجنبية. ويمكن أن يتأكد كل شخص يتقدم بطلب التحاق بالعمل في وكالة المخابرات المركزية، سواء كتابة أو شخصياً، أن طلبه سيحظى بدراسة جادة وسيتم إبلاغه إذا لم يكن هناك منصب يناسب مؤهلاته وذلك عند دراسة الأوراق التي تقدم بها مباشرة. أما إذا كان يبـدو أن لديه من المؤهلات ما يمكّنه من تولي مثل هذا العمل فتتم دعوته لإجراء مقابلة وإذا ما ترك طالب الوظيفة انطباعاً لدى من يجري معه المقابلة، وإذا ما شعر الأخير أنه يرغب بجدية في ايجاد عمل لفترة طويلة في المخابرات ولا يسعى فقط إلى الإثارة التي يعتقد أن أعمال «التجسس» تحققها فهنا تبدأ عملية الاختبارات والتحقيقات.

وقد أدت فترة الحرب الكورية إلى توسع سريع في عدد العاملين في المخابرات المركزية إلا أن معدل النمو انخفض نسبياً في السنوات الأخيرة وهناك حاجة دائمة ومتكررة للمتخصصين والفنيين لشغل وظائف معينة تتطلب مهارات عالية جداً. وبالاضافة إلى ذلك هناك حاجة ملحة لتعيين وتدريب كوادر من ضباط المخابرات المحترفين من الشباب الذين لديهم القدرة على تولي القيادة التنفيذية حتى يتولوا في النهاية مسؤولية كبار ضباط المخابرات ومناصب قادة وكالة المخابرات ويطلق على ذلك برنامج تدريب صغار الضباط الذين يصل متوسط عمرهم إلى ستة وعشرين عاماً وهم صغار الضباط المتدربين. ويمر هؤلاء بسلسلة من الدراسة التدريبية تكون ذات طبيعة عامة في البداية تليها دورات متزايدة التركيز على عمليات المخابرات لاعداد صغار الضباط المتدربين لنوع محدد من العمل. ويتبع ذلك فترة تجريبية حول التطبيق العملي للتدريب وهو الذي يحدد في النهاية مدى ملاءمته للمهمة أو المنصب وخلال هذه الفترة يخضع صغار الضباط المتدربين لمراقبة دقيقة من جانب ضابط التدريب الذي ينظر إليه كفرد في إطار محاولته المستمرة لاختيار الوظيفة التي تناسبه على نحو افضل. وقد أثبت هذا الاتجاه النفعي ذاته في التطبيق الفعلي.

وتعد وكالة المخابرات خطة لمستقبل العامل في المخابرات تهدف من بين عدة أشياء إلى وضع جدول مسبق لفترة زمنية معينة توضح خلالها المناصب والمهام التي يتولاها الموظف، وتعد على أساس الأفضليات التي يحددها الموظف والتي تتناسب مع الوظائف الملائمة له والمتوافرة وكذلك على أساس حكم المشرف على قدرات الموظف.

وقد يحكم أحياناً الشباب الطموحون من السيدات والرجال بخطط معينة لمستقبلهم لا تكون عملية على الاطلاق أو مبالغة من خلال تقدير زائد عن الحد لقدراتهم، وتساعد برامج الوكالة مسبقاً في كشف هذه الطموحات جيداً واطلاع الموظف على تقييم حقيقي لمستقبله. بيد أن الفكرة الأساسية هي تجنب المهام العشوائية أو المؤقتة ومحاولة إعطاء بعض المغزى والاستمرارية لسلسلة الأعمال التي يتولاها الرجل أو السيدة خلال فترة زمنية.

وتتلقى السيدات العاملات في المخابرات نفس التدريب الذي يتلقاه الرجال مما يؤهلهن لنفس المناصب باستثناء المهام الخارجية فهي محدودة بصورة أكبر بالنسبة للسيدات وأحد أسباب ذلك التمييز المتأصل والسائد في العديد من الدول التي تقف ضد رئاسة المرأة للرجل في عمله. والعميل الذي ينشأ في ظل هذا التقليد لن يشعر بالراحة إزاء تلقي الأوامر من سيدة، ولا يمكننا أن نغير تفكيره في هذا الصدد. ففي الحرب العالمية الثانية شاركت المرأة الأمريكية الرجل مخاطر مهام المخابرات. فقد

تم إنزال بعضهن في فرنسا بوصفهن أعضاء فرق القفز الأمريكية التي أرسلت لدعم الحركة السرية في فرنسا.

وفي الوقت الذي لا يوجد فيه مبرر لتكليف السيدات بمهام تهدد حياتهن فإن الكثير منهن خدمن كأعضاء في وحدات المخابرات في المناطق المعادية أو «الصعبة» حيث عملن لسنوات مع الرجال في عزلة تامة عن أسباب الترف في الحياة الحديثة التي عرفنها في منازلهن. والشخص الذي يهتم أكثر بالمهام الفكرية أكثر من اهتمامه بالأشخاص وبالملاحظة والتفكير أكثر من التحرك يصلح أكثر للعمل «كمحلل» لا «كمحرك» أي يمارس عملاً ميدانياً. لهذا السبب فليس هناك ما يدعو للدهشة في شغل الأشخاص من أصحاب المهن الأكاديمية للمهام التحليلية. إلا أن الذين يمارسون العمل الميداني يأتون من كل المجالات وليس هناك في الواقع نماذج أو معايير. الأمر المهم أن يتمتعوا بالحيوية وحب المعرفة وعدم الكلل وأن يكون لديهم حس قوي إزاء الأفراد.

والأشخاص الذين يسعون للحصول على عمل في المخابرات غالباً ما يكون لديهم خلفية معقولة نتيجة لدراساتهم المختارة في الشؤون الدولية والتاريخ أو اللغات ولا يرجع ذلك إلى عزمهم العمل في مجال المخابرات ولكن لنفس الأسباب التي قد تؤدي بهم إلى العمل في هذا المجال.

بيد أن ما يسمى «بحرفة» المخابرات فريدة من نوعها حتى ان هناك جامعات قليلة تقدم دراسات في هذا المجال تضع شخصاً بشكل تلقائي في مكانة أكثر تميزاً عن شخص آخر لذا فإن التأثير الوحيد الذي تتركه الدراسات أو الخبرة السابقة على عمل الشخص في المخابرات هو توجيهه بصورة أكبر سواء تجاه الجانب التحليلي أو التجميعي أو تجاه منطقة جغرافية في العالم أكثر من جهة أخرى أو تجاه مجال متخصص في المخابرات إذا ما كان خبيراً فنياً. بيد أنه في الوقت الذي يخصص فيه «المحلل» وقته لمجال أو موضوع معين لسنوات فإن العامل الميداني يفعل ذلك في الغالب حيث ان قدراته في الحرفة ذاتها أكثر أهمية من أي معرفة في مجال أو موضوع متخصص كما يمكنه أن يتنقل مرات عديدة في اطار مستقبله العملي، أن يحصل على معرفته في هذه المهنة من مدارس التدريب في المخابرات وذلك من بداية عمله كضابط مبتدىء مع أقرانه حتى يتولى في النهاية مهامٌ يقوم بها بمفرده، ومدارس التدريب في المخابرات تستعين بوسائل كثيرة مستخدمة في مهن أخرى وذلك حتى لا يحصل ضابط مخابرات المستقبل على المعرفة فحسب بل على الخبرة والثقة أيضاً، والمخابرات على عكس الكثير من المهن، ليست عملاً يمكن التغاضي فيه ببساطة على الأخطاء سواء أكانت كبيرة أم صغيرة وهي في ذلك تتفق مع المهن العسكرية.

وتقدم مدارس المخابرات الكثير من الدورات الدراسية حول مجالات ولغات عديدة وهي لا تختلف كثيراً عن الدراسة في الجامعة إلا من حيث التركيز على الأشياء التي تحظى باهتمام رئيسي من جانب ضابط المخابرات كما تقدم المدارس دورات دراسية حول مادة المخابرات نفسها، أي كيفية العمل في جهاز المخابرات وكيفية تحليل المعلومات وكيفية كتابة التقارير. إلا أن مضمون مثل هذا التدريب هو المهام العملية للعمليات الميدانية. وتعتمد مدارس المخابرات في ذلك على ممارسات مدارس القانون التي تعتمد على أسلوب القضية وعلى ممارسات الجيش الذي يخلق موقفاً «حياً» وهمياً حيث يتوقع من المتدرب أن يتصرف تماماً كما يجب أن يفعل لو كان بمفرده في دولة أجنبية.

ووفقاً لأسلوب القضية تتم دراسة العمليات السابقة للمخابرات الأمريكية ومخابرات الدول الأخرى حتى نطلع الطالب على الظروف المحددة والتسلسل الزمني لمثل هذه العمليات، كما تقدم له نسخ من الملفات المتضمنة جميع الرسائل والتقارير والتعليمات والتحركات بين مقر القيادة والمراكز والمواد التي جمعها العميـل ونتائج التحقيقات وعمليات المراقبة بترتيب زمني حتى يمكن للطالب أن يرى تقدم سير القضية يوماً بعد يوم لتكون واضحة أمامه ولتبدو أكثر كقصة طويلة جداً.

وبما أن الطالب يتمتع بميزة الادراك المؤجل لطبيعة الأحداث بحيث يمكنه أن يرى أين وقعت الأخطاء وما هي الاختيارات وماذا كان متوقعاً، وماذا كان غير متوقع؟ إن طالب القانون يدرس مرافعات المحامين وشهادات الشهود حتى يمكنه أن يدرك من خلال استعادة الأحداث الماضية من فشل المحامي في توصيل سؤال ملح إلى الشاهد وكذلك في فشل تلخيص القضية للمحلفين بحيث يركز على أكثر الأدلة إقناعاً. وبالمثل عندما يدرس طالب المخابرات القضايا الحقيقية بتفاصيلها الكاملة يبدأ تدريجياً في ملاحظة كيف أهمل ضابط المخابرات في لحظة معينة توجيه سؤال إلى العميل واتضح فيما بعد أن هذا السؤال كان من شأنه الاشارة إلى ازدواج العميل، وكيف أن رجل المخابرات أغفل إعطاء العميل إشارة لاستخدامها في حالات الطوارىء كما يمكنه ان يدرك كيف أدى نظام الاتصال المعقد للغاية بين العملاء إلى إفساد مداخل هامة للمعلومات حيث ان أحد هؤلاء الرجال لم يستطع أن يتذكر ما كان يتعين عليه أن يقوم به في موقف معين. ودراسة هذه القضايا تلقي القيود بصفة خاصة على الأخطاء البشرية التي يحفل بها تاريخ المخابرات كما أنها تزرع في نفس الضابط الشاب ضرورة تقدير العناصر غير المتوقعة التي قد تلعب دوراً في عمله حيث يتعين عليه أن يكون مستعداً لمثل هذه العناصر وأن يتوقعها في أي عمل يتولاه في المستقبل.

كما يدرس ضابط المخابرات التفاصيل الدقيقة لقضايا التجسس في التاريخ الحديث للمخابرات والتي ذكرناها في صفحات سابقة، بعضها لأسباب معينة مع الاهتمام بنفس القدر بأسباب النجاح وأسباب الفشل. كيف تمكن ردل وسورج وعدد آخر من أشهر الجواسيس التخفي لفترة طويلة وكيف سقطوا؟ كيف يمكن للسوفييت تقسيم قطاعات «الفرقة الحمراء» أو الشبكة الكندية بحيث لا يؤدي اعتقال أو انشقاق أحد أفرادها إلى انهيار الهيكل كله؟ كما أن ضابط المخابرات من خلال هذا الأسلوب المحدد يمكنه أن يتبين نقاط القوة والضعف في الأساليب التي تفضلها أجهزة المخابرات الوطنية المختلفة، كما يبدأ في إدراك خصائص وأهداف وطنية ثابتة ومعينة تظهر في هذه الأساليب بنفس الأسلوب الذي يستفيد منـه طالب السياسة الخارجية من خلال دراسته للأمة في وقت السلم ووقت الحرب، وبهذا يمكنه إلى حد ما تعلّم ما يمكن أن يتوقعه من عمله في المستقبل. واستخدام أسلوب الحالات «الحية» في مدارس التدريب يهدف إلى إحراز نفس الهدف المتوقع من التدريب بالذخيرة الحية على عمليات الهجوم في الجيش. وقد بدأت الأعمال الرائدة في هذا المجال خلال الحرب العالمية الثانية في مدارس الجيش التي قامت بتدريب الأشخاص الذين يتولون التحقيق مع أسرى الحرب. وكان المتدرب على هذا العمل يواجه شخصاً يرتدي زي ضابط أو جندي من قوات العدو ويتصرف كشخص أسر مؤخراً ويمكنه أن يتحدث الألمانية أو اليابانية بطلاقة، ويجب أن يكون الأخير ممثلاً جيداً وأن يتم اختياره بعناية ويقوم بكل ما هو ممكن لخداع وتضليل المحقق من خلال مئات الطرق التي يصبح على دراية بها من خلال التحقيقات الحقيقية في أوروبا والشرق الأقصى ويمكن لهذا الشخص أن يرفض الكلام أو إغراق المحقق بسيل من المعلومات غير الهامة والمضللة. كما يبدو في بعض الأحيان عنيداً أو وقحاً أو ذليلاً. كما أنه قد يمد المحقق وبعد عدة جلسات على هذا الغرار يكون المحقق أكثر استعداداً لمواجهة أسير حقيقي أو منشق كاذب وليس من المحتمل أن يأخذه احـدهما على حين غرة.

يعد هذا الأسلوب المستخدم أساساً في التدريب في المخابرات اليوم. وهذه الحالات أو المواقف بالطبع أكثر تعقيداً من تلك التي تواجه أي محقق. كما أن مدارس المخابرات تتسابق في خلق هذه الحالات أو المواقف ويمكن مقارنة ذلك بتدريب الطبيب النفسي الذي يجب أن يخضع أولاً لعلاج تحليلي حتى يمكنه أن يتأهل تماماً لعلاج هؤلاء الذين يعانون من مرض عقلي.

والمواقف الحية التي يتم وضع المتدرب فيها لا تمثل فقط المواقف التي يتعرض لها يوماً بوصفه ضابط مخابرات حيث يتعين عليه أيضاً أن يقف موقف «العميل» في هذه المواقف. ولا يرجع ذلك لاحتمال قيامه بدور العميل بنفسه ولكن فقط

في أن يبدأ في إدراك مشاعر العميل حتى يكون لديه تعاطف وتفهم أكبر أو بمعنى أدق يتقمص شخصية هذا العميل حتى يمكنه أن يتعرف من الناحية العملية والعاطفية على الأشخاص الذين سيعملون معه ويتلقون أوامر منه ويخاطرون بحياتهم من أجله.

إن الصعوبة الأساسية التي تواجه الشخص الذي يعمل في المخابرات وأسرته ناجمة أساساً عن السرية التي يجب أن تتم تحت ستارها جميع عمليات المخابرات فكل موظف يقسم يميناً يلزمه بعدم الافضاء بأي شيء يعلمه أو يقوم به في إطار عمله لأي شخص لا يحق له الاطلاع على ذلك وهذا اليمين يلتزم به حتى بعد تقاعده عن العمل في الحكومة وهذا يعني أن الموظف لا يمكنه مناقشة أعماله اليومية مع زوجته أو صديق وقد استقال عديدون أو اشتكوا بسبب هذا القيد بعينه. ورغم أنه يبدو كقيد صارم بالنسبة للأشخاص غير المعتادين عليه إلا أنه لا يمثل الصعوبة التي يبدو بها. كما أن هذا القيد قد يكون له ميزة اجتماعية حيث انه يجبر بعض المواطنين على أن يكونوا مبدعين إلى حد ما لإيجاد هوايات جديدة أو توجيه اهتمامهم لشيء آخر. وأذكر أن ضابطاً بارزاً في المخابرات جعل هوايته النباتات وآخرين كتبوا الروايات والقصص الغامضة، كما تحول آخرون إلى الموسيقى والرسم في أوقات فراغهم. كما أن معظم الزوجات سرعان ما يمللن حديث أزواجهن عن المكتب وتعقيدات العمل بعد انقضاء شهر العسل.

إن مجموع العاملين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يمثلون جميع طبقات ومناطق البلاد مثل ما هو قائم في أي فرع حكومي أو أي منظمة تجارية ضخمة. وبعض أعضائها لم يدرسوا في الجامعة أو لم ينهوا دراساتهم الجامعية والكثير منهم من جيل أمريكي لمهاجرين من الأجانب وغالباً ما يجيدون لغات غير عادية إلا أن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن ذلك هو السبب الوحيد لتعيينهم.

إن جهاز المخابرات في مجتمع حر ليس مجرد منظمة في مجتمع ديمقراطي فهو من صنع الكونجرس وخاضع للسلطة التنفيذية كما انه يعكس في عضويته المجتمع الذي يخدمه ويغرس في ضباطه الإحساس بأن مبدأ التقيد اللازم بالسرية يزيد من أهمية سلوك وكفاءة موظفيه بوصفهم من العاملين في الخدمة العامة ويجب أن يقدموا المثال الذي يجب أن يحتذى.

وإذا فشلت وكالة المخابرات المركزية في تزويد صفوفها بأفضل العقليات القادرة على وضع مخابرات البلاد في مركز متقدم عن أعدائها بما في ذلك الاتحاد السوفييتي فإننا بذلك لا نستغل على نحو مناسب الفرص الفريدة التي يقدمها هذا البلد. وقد خصص الكونجرس تمويلاً مناسباً للوكالة كما قدم لها ميثاقاً شاملاً. كما أن

السلطة التنفيذية في ظل ثلاثة رؤساء أعطت الوكالة دعماً قوياً منذ إنشائها في عام ١٩٤٧. ونحن لدينا أكبر تجمع للموارد البشرية المتوافرة لأي دولة في العالم حيث ان سكان الولايات المتحدة الذين يقدر عددهم بنحو ١٨٥ مليون نسمة جاؤوا من كل الأجناس في العالم. وبالاضافة إلى ذلك فإن مجموعة من أكبر المحترفين البارعين من أيام الحرب العالمية الثانية سواء من الـ OSS مكتب خدمة الاستخبارات أو من جهاز المخابرات العسكرية ظلوا ضمن صفوف المخابرات ليمثلوا نواة الخبراء الذين تعلموا من خلال الخبرات الصعبة عمل المخابرات أثناء الحرب.

الأساطير (الخرافات)

لقد زادت أعداد الأساطير الكبيرة والصغيرة خلال العقد الأخير حول المخابرات المركزية الأمريكية ومهارة التخابر والاستخبار كما يمارسها اليوم. وتعد هذه الأساطير جزءاً من الدعاية المغرضة والعدائية للشيوعية، وأكثر من ذلك فهي عادة ما تكون من نتاج التخيل والتخمين الذي يقع تحت دائرة الضوء وكذلك الشك الذي يدور حول أي منظمة سرية، وأحياناً تطلق هذه الأساطير وتنبع من بعض القصص التي تذكر في صورة أخبار بغرض التركيز على الحقيقة، وفي مثل هذه الحالات فكلما زادت المبالغة زادت الفرصة ولهذا رأى الكتّاب أن يكتبوا نفياً أو تصحيحاً أو على الأقل عبارة «لا تعليق» والتي ظلت لسنوات ـ كما اعتقد بصورة كبيرة ـ الاجابة الدائمة حينما تطلب الصحافة شيئاً من المعلومات من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

المخابرات الأمريكية تصنع السياسة

لقد سئلت مراراً عن «الأسطورة» التي رويت حول المخابرات المركزية وكانت أكثرها ضرراً، وقد ترددت في الاجابة لأن هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن يختارها المرء لتكون أكثر الأساطير ضرراً ولكن في النهاية اخترت الاتهام القائل بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تصنع السياسة الخارجية فهي تعارض البرامج التي يقرها الرئيس ووزير الخارجية كما أنها تتدخل فيما كان يحاول السفراء وضباط المكاتب الخارجية القيام به.

وهذه التهمة غير حقيقية ومن الصعب بمكان دحضها ما لم تكن هناك معلومات محددة، ومن الصعوبة البالغة دحضها لأنه إلى حد ما كانت راسخة في النفوس

وجاءت أوقات انتشرت فيها هذه الأساطير بين العاملين في الحكومة من غير الملمين ببواطن الأمور. والحقائق الواضحة هي أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لم تضطلع بأي عمل له طبيعة سياسية ولم تقدم أي عون بأي شكل لأي شخص أو حاكم أو حركة سواء سياسية أو غيرها دون موافقة على مستوى سياسي عالٍ من الحكومة خارج وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ونسوق هنا مثالاً لاحدى الأساطير الحديثة التي تزعم أن هناك تدخلاً سياسياً من جانب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ولقد انتشرت هذه الشائعة في الخارج تحت مضمون أن الوكالة تؤيد سراً خطة جنرالات منظمة الدول الأمريكية ضد ديجول. وهذه الخرافة بالذات كانت خطة شيوعية خالصة وبسيطة، ومن أوائل الجهات التي أطلقت هذه الخرافة كانت الصحيفة الايطالية اليسارية (الدولة)، وذلك في ٢٣ ابريل عام ١٩٦١ والتي كانت تستخدم من وقت لآخر لصالح الدعاية الشيوعية، ثم تناولتها صحيفة البرافدا السوفييتية ونقلتها وكالة تاس إلى أوروبا والشرق الأوسط ورددتها الصحافة اليسارية في أوروبا الغربية، ثم جاء جونيفيق تأبوي وهو كاتب فرنسي مشهور له باع طويل في هذا المجال ليزيد من حدة هذه الدعاية عن طريق ثلاث قصص مثيرة أعطت لموسكو دعماً جديداً.

وفي الوقت نفسه بدأت الصحف الغربية ذات السمعة الطيبة وكذا أصحاب الأعمدة اليومية في الصحف بدأوا جميعاً في ترديد هذه الاشاعة وقد أحيطت احدى القصص بهالة من الاحترام قصد بها تشويه السياسة الأمريكية بصفة عامة ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية بصفة خاصة.

وفي هذه الحالة كما في غيرها من الحالات لم يكن هناك وسيلة مطلقة لدحض هذه الاشاعات، ولم يكن هناك ما يمكن أن تتدخل فيه إذ لم يكن هناك سوى كلمتك تقولها في مواجهة هذه الشائعات وفي هذه الحالة على وجه الخصوص لم يقدم كبار المسؤولين في الحكومة الفرنسية شيئاً لمنع انتشارها.

وأسطورة أخرى هي أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عادة ما تساعد الديكتاتورية. وهذه الخرافة أطلقتها بكل تأكيد وسائل الدعاية في موسكو. وحيث ان وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لم تساند الشيوعيين أو تابعيهم فهي بالضرورة من وجهة نظر موسكو تساند الراسماليين من مثيري الحروب والمستعمرين، وليس هناك شيء وسط. إذن لا بد أن يكون أولئك الذين تتم مساعدتهم، ديكتاتوريين

ومن يحدد خطوط السياسة الخارجية هو الرئيس ووزارة الخارجية الأمريكية فهما فقط اللذان يحددان مدى اتصالات عناصر الحكومة في كل مجالات النشاط الخارجي.

وبرغم هذه الحقيقة الخاصة بالموقف الحكومي فلقد استمرت الخرافات حول السياسات والأنشطة الغامضة والمستقلة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية وأشهد أنه كلما زادت معرفتنا بالحقائق وقلّ ميلنا نحو الدعاية المغرضة ترتد هذه الشائعات إلى نحور أصحابها.

ومع استخدام السوفييت لآلات الاشراف على المعاهد الحرة لمضايقتها كلما استطاعـوا ذلك، فإنه من قبيل التصرف السليم أن نقول إننا يجب أن نرضي فضول كل شخص بما في ذلك السوفييت وذلك بالإعلان عن كل خطوة يتم اتخاذها حيالهم ونخبرهم عمن نساعدهم ولماذا وأين؟ ولكن هذه الطريقة هي المثلى لنخسر المعركة وليس علينا أن نغضب أو نرد على كل هذه الهجمات حتى وإن كانت تعني أن الخرافات الضارة ستظل قائمة.

السوفييت قوة التجسس العظمى

لا أحد يهتم بوصف الناس له أكثر من العنيد، وأعتقد أن السوفييت استمدوا قدراً كبيراً من الرضا وذلك من الصورة الشعبية لضباط وعملاء مخابراتهم والتي توجد في عقول بعض الغربيين وقيمة هذه الصورة انها ترمي إلى تخويف أندادهم.

وإذا كنت قد أضفت شيئاً لتأييد أسطورة السوفييت كقوة تجسس عظمى وذلك من خلال وصفي لضابط المخابرات السوفييتي، فأود أن اذكّر القارىء إني كنت أكتب حينئذ عن تدريبه ومواقفه وخلفيته أكثر من انجازاته. والأمثلة على الفشل السوفييتي كثيرة فشبكات التجسس السوفييتية الكبيرة رغم ضخامتها فشلت في النهاية أو اكتشف أمرها وذلك نتيجة الاجراءات القوية الأوروبية المضادة للجاسوسية ولضعف تكوينها الداخلي. ولقد وقع أحسن ضباطهم تدريباً في عدة مزالق مما كشف أنهم أيضاً غير قادرين على تجنب الأخطاء تماماً. فعندما لا تكون هناك اجابات محددة ولا يوجد وقت لتلقي التعليمات من الإدارات، وعندما يكون قرار الفرد ومبادرته مطلوبة فإن ضابط المخابرات الروسي لا يكون قادراً على تخطي العقبات والنجاح في الامتحان.

ويحاول نظام التدريب الروسي لكل من الضباط والعملاء أن يسحب العناصر المتقلبة من نظام العمل في المخابرات ولكن هذا لا يتم بالفعل، فلقد أنفق هاري هولون المال الذي ربحه من التجسس في بعض المغامرات التي ترمي إلى تكوين أملاك، فلقد أراد أن يمتلك ثروة. وفاسال انفق أمواله على الملابس الفاخرة وعاش كل منهما حياة تفوق دخله العادي ولقد لفت ذلك الانتباه اليهما. أما هايهانن مساعد الكولونيل آبل وهو أحد الجواسيس في موسكو فقد كان مدمناً للمشروبات الكحولية

وانتهت حالته إلى أن أصبح غير قادر على الكلام. أما ستاسينسكي «القاتل» طبقاً للأوامر السوفييتية للزعيمين الأوكرانيين المنفيين فقد وقع في حب فتاة المانية ودخل في صراع مع قيادات جهاز الأمن الداخلي الروسي (المخابرات الروسية) بسبب هذه العلاقة وكان هذا هو السبب الرئيسي لكفره بالمخابرات الروسية، ويبدو أن السوفييت لم يلحظوا جيداً نقاط الضعف هذه.

ولم يستطع الروس أن يقضوا على الحب والجنس والجشع على مسرح عملياتهم وحيث انهم استخدموها كأسلحة لارهاب الناس فكان من الغريب أنهم فشلوا في ادراك قوتهم في تعطيل عملياتهم المخططة بصورة دقيقة.

وقد وصف الكسندر فوت حالة مشابهة في معرض حديثه عن شبكة المخابرات الحربية السوفييتية خلال الحرب العالمية الثانية، فقد تزوجت ماريا شولتز احدى العميلات السوفييتيات ذوات الخبرة الطويلة من الفريد شولتز أحد العملاء السوفييت الكبار والذي اعتقل في الصين بتهمة التجسس، وفي سويسرا وقعت ماريا في حب أحد فنيي اللاسلكي الذين يعملون معها فطلقت زوجها وتزوجت من الفني، لذلك ومن منطلق الرعب الشديد ابلغت خادمتها التي تدعى ليزا بروكيل القنصل البريطاني في لوزان وأخبرت الضابط الذي رد عليها لتحبط تماماً شبكة التجسس السوفييتية. ولحسن حظ السوفييت فقد كانت تتحدث بانجليزية ركيكة وكانت تتحدث بطريقة ظن منها القنصل أنها احدى الخرافات.

ويمر الوقت ويختار السوفييت الأشخاص الذين لا تتوافر شروط العمل للمخابرات فيهم لينضموا إلى هذا الجهاز الخطير، فهم يسيئون الحكم على الشخصيات، كما أنهم لا يقدرون تماماً الشجاعة والأمانة، فمبدأ الولاء والولاء فقط يعميهم عن باقي الدوافع، وخير مثال على هذا هو حالة رجل الأعمال الروماني الذي يدعى جورجيسكو. ففي عام ١٩٥٣ وبعد فراره بقليل من الحزب الشيوعي الروماني وعندما كان يحاول الحصول على الحق في أن يكون مواطناً أمريكياً جمعته الظروف مع عميل مخابرات شيوعي يعمل تحت توجيهات الروس ويحاول بطريقة ما ابتزاز الآخرين. وأخبر العميل الشيوعي رجل الأعمال الروماني أنهم يشترطون عليه أن يقبل القيام ببعض المهام المعينة للتجسس في الولايات المتحدة كي يرى ولديه اللذين كانا لا يزالان معتقلين في رومانيا واللذين سيطلق سراحهما ويعودان إلى والديهما، وإلا فعلية ألا يحاول رؤية ولديه مرة ثانية.

وحدث أن جورجيسكو رفض بشجاعة أي مناقشة للموضوع وطرد الرجل من مكتبه وكتب تقريراً بكل التفاصيل التي دارت إلى سلطات الولايات المتحدة ونتيجة

لذلك طرد العميل الشيوعي الدبلوماسي من الولايات المتحدة. ولقد كان للحادث آثار سلبية علنية سيئة كما كان له تأثير سيىء على علاقة رومانيا مع الولايات المتحدة حتى أن رومانيا أرادت تحسين علاقتها مع الولايات المتحدة بتقديم طلب إلى الرئيس ايزنهاور بالافراج عن الولدين.

وللمخابرات السوفييتية بعض السمات منها الثقة المفرطة بالنفس والتي تؤدي إلى نتيجة عكسية كما أنها تتميز بتعقيدات مفرطة بالاضافة إلى سوء التقدير ويكمن الخطر الحقيقي في ضخامة المجهود الذي تبذله المخابرات الروسية والأموال التي تنفقها وعدد الأفراد الذين توظفهم والمدى الذي ترغب في تحقيقه من الأعمال ومدى الخسائر التي تمنى بها.

ونحن الأمريكيين أكثر فطنة وأكثر استحداثاً في العمل. فالأمريكيون عادة ما يكونون فخورين بأنفسهم ولهم الحق في ذلك من منطلق أن هناك بعض الاتجاهات التي تبدو طبيعية والموجودة في أنظمة أخرى غير موجودة في النظام الأمريكي، وكذا في المحيط أو الأجواء التي تحيط بهم والوجه الآخر من العملية هو أن الشعب الأمريكي مدرك لهذا حيث ان دبلوماسيينا وجهاز مخابراتنا لا يعنيهم في المجال الأول العالم الخارجي.

ويعمل الاجانب على أن يأخذ الأمريكيون جانب الحذر منهم وذلك بسبب تصرفاتهم. والمسؤول الأمريكي ليس ضيق الأفق بل هو رحب الأفق يصر على فهم الأشياء التي يصعب فهمها. هذا هو «الأمريكي» ونرى ذلك في «الأمريكي الهادىء» لجراهام جرين أما الأمريكي الأحمق فيقدم لنا زاوية جديدة في المقياس نفسه ـ ينقصه الفهم الحقيقي والتقدير للظروف المحلية وللأفراد الموجودين في الخارج وأعداد هؤلاء توضح أننا لا نود أن نكون مثل طلبة أغبياء، ويعد هذا شيئاً مثيراً للدهشة إذا ما انتشر وسط الأمريكيين أو تسبب في أن ينتقد الأجانب عملياتنا الخارجية بما في ذلك عمليات المخابرات.

وأود أن أقول في بادىء الأمر اني أفضل أخذ الموضوع برمته الذي نتبادله في الولايات المتحدة ـ موضوع فطنة الأمريكيين وتدريب فرد معين ليكون ضابط مخابرات ناجح ـ ومهما طالت مدة ذلك فهي في النهاية للبحث عن شخص يضحي ويشعر بالولاء والانتماء بحيث يكون جديراً بالعمل في جهاز المخابرات، ويلحظ القارىء أنه عندما أصف تطلعاتنا بالنسبة لضابط المخابرات المرتقب في فصل سابق فانا لم أذكر مثل هذه الاتجاهات، فضابط المخابرات الأمريكي يتم تدريبه ليعمل في المخابرات كمحترف وليس كوسيلة للعيش. فالتمييز يكون بين وظيفته وشخصيته الخاصة.

وتناول هذا الموضوع يظهر أن جهاز المخابرات الأمريكي جهاز شاب وفتي ولم يكن لديه متسع من الوقت لينمو، لذا لم يكن من السهولة بمكان تحديد نطاق معين لضباطه في هذه الفترة الوجيزة من حياته، ونحن نرى دولاً كاليابان وروسيا كانت في بداية هذا القرن تملك معلومات تكنولوجية تعيشها الآن في القرن العشرين وذلك دون أن تحتاج إلى أن تكون ضاربة في التاريخ بجذورها قبل المجتمعات الغربية، ونحن نرى أيضاً أنه إذا ما زادت صناعات وتكنولوجيات دولة ما كألمانيا وفرنسا وايطاليا خلال الحرب العالمية الثانية فإن لها ميزة معينة عندما تبدأ في تعمير ما أفسدته الحرب بحيث تبدأ مراحل التعمير بآخر ما انتهت اليه من علم وتكنولوجيا قبل الحرب.

وقد كانت المخابرات الأمريكية في مثل هذا الوضع تماماً فخلال الحرب العالمية الثانية عرفت تجارب القرون والنتائج التي أسفرت عنها وعندما جاء الوقت لوضع جهاز دائم للمخابرات بعد الحرب كان ذلك ممكناً لتكوين المنظمة عبر الخيوط التي تمكننا من مواكبة المشاكل المعاصرة وليس المناطق والظروف التي حدثت منذ خمسين عاماً. فليس من المهم أن تكون المخابرات الأمريكية شابة في عدد سنوات عمرها بل المهم أن تكون حديثة وليست مقيدة بأي نظريات عفا عليها الزمن وأشير هنا إلى قدرتها على تطبيق واستخدام أحدث أدوات التكنولوجيا لتحقيق أغراضها. وفي هذا فهي تعد رائدة في هذا المجال.

عمليات التجسس السرية ليست في العرف الأمريكي وإذا حدث فلا يمكن الاعتراف بها.

هذا هو جزء من أسطورة، وعلى أية حال فمن الحقيقي اليوم أن هناك بعض الأمريكيين الذين تدور حولهم شكوك بأنهم عملاء «سريون» لحكومة،وبالتأكيد فإن الوكالة التي تعمل بالجاسوسية تقوم بأعباء اثبات عكس الشكوك التي تدور حول عملائها بهدف المصلحة القومية.

ولحسن الحظ فإن هناك ادراكاً متزايداً للأخطار التي نواجهها من جراء الحرب الباردة وإن كل شيء لا يمكن مواجهته بما يسمي بالدبلوماسية المفتوحة وحتى أولئك الذين يقدمون على هذه الضرورة يراجعون أنفسهم حول حقيقة أن متطلبات الأمن القومي تتطلب منا استعادة عمليات المخابرات السرية، ولقد وجدت ترددا أقل من جانب الكونجرس لتأييد ودعم وتمويل عمل المخابرات بكل ما فيه من سرية وقد عمل الكونجرس على حماية مصادر المخابرات ووسائلها من الانهيار غير المسؤول، ولكنه لم يوفر أية وسيلة من الأجهزة لمواكبة ذلك خارج نطاق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية نفسها.

ومن الطبيعي فعندما تخطىء عملياتنا الخاصة بالمخابرات وتنشر في الصحف فهناك شيء ما في حاجة إلى النقد الذي أحياناً ما يكون نقداً غير عادل، فعمليات المخابرات عادة ما تكتنفها الخطورة ولا يضمن أحد مدى نجاحها، ولأن الصحف تنشر فقط العمليات الفاشلة للمخابرات فقد ظهر انطباع عند العامة أن كفاءة المخابرات أقل وهذا شيء يخالف الواقع.

فمقدرة المخابرات المركزية الأمريكية على انتقاد مجموعة من الأفراد صغيري السن لديهم قدرة وكفاءة تزداد عاماً بعد عام يوضح أن شكوك الأمريكيين حول كفاءة المخابرات أصبحت قليلة بين الأجيال الشابة، وقد وجدت أن الذين يعملون معنا من الشباب لديهم ثقة وامتنان في عمل المخابرات كمهنة حيث يستطيعون القيام بمشاركة حقيقية لصالح أمننا القومي، وخلال عشر سنوات قضيتها في الوكالة أذكر حالة واحدة فقط من بين مئات الحالات حيث كان هناك شخص التحق بالوكالة وشعر ببعض المعوقات وبعض الشكوك حول النشاطات التي طلب منه أن يقوم بها. في هذه الحالة كان أمامنا خياران، أحدهما أن يقدم استقالة مشرفة والآخر أن يتم نقله إلى فرع آخر.

وكانت هناك حالة سرية وحساسة موجودة الآن أمام العامة والتي أقلقت البعض في هذا البلد كأن تكون غير «قانونية» حول طلعات الطائرة م ن. ويعلم الناس الكثير حول الجاسوسية والعمليات التي تم القيام بها من وقت لآخر. فالتهريب المزور للمعلومات والتزوير في بطاقات الهوية والمعلومات المضللة ومحاولات عبور حدود بعض الدول يعد تكتيكاً قام به السوفييت ضدنا إلا اننا كنا قد تعودنا على ذلك، ولكن أن يُرسل عميل عبر حدود دولة أخرى وذلك على ارتفاع عشرة أميال عن سطح الأرض، ومعه كاميرا، يبدو أنه صدمة لأن الصور تمت بدون أي مشاكل، وعليه فهذه هي بنود القانون الدولي بحيث لا يمكننا عمل شيء عند اقتراب السفن السوفييتية إلى مسافة ٣ أميال من شواطئنا والتقاط كل الصور التي يريدونها، ونحن بدورنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء معهم إذا أردنا.

وإذا ما دخل جاسوس لأراضيك فما عليك إلا أن تلقي القبض عليه إذا استطعت وتحاكمه طبقاً للقوانين المعمول بها في بلدك. وهذا ينطبق على من ساعده أو بالسبل التي اتخذها ليصل إلى وجهته، وإذا ما انتهك الأراضي أو المياه الاقليمية أو المجال الجوي لأي دولة فهذا شيء غير شرعي، ولكن من الصعب على الدولة أن تنكر إذا ما كانت وسيلة الامداد هي طائرة من طراز جديد وذي كفاءة عالية وأداء مرتفع، وكما قلت فإن بعضاً من مواطنينا لا يودون أن نقوم بأعمال تجسس من أي نوع، والبعض يفضلون طرق التجسس القديمة، والآخرون يرون أنه إذا كان ولا بد

من التجسس فلنأخذ بالنظام الأمثل الذي يسفر عن حسن النتائج ويعمل على تأمين المعلومات التي نريدها.

والقرار الذي اتخذ بشأن برنامج «U.2»كان يعتمد على اعتبارات ظهرت عام ١٩٥٥ لتكون مسألة حيوية لأمننا القومي، فنحن نطلب المعلومات الضرورية لارشاد برامجنا العسكرية المختلفة وبصفة خاصة برنامج الصواريخ، وهذا لا يمكن القيام به إذا لم يكن لدينا علم ببرنامج الصواريخ السوفييتي. وقد تتهدد حياتنا إذا لم يكن لدينا علم كاف بالمخاطر التي قد تحوق بنا من جراء هجوم مفاجيء بالصواريخ النووية وعلينا حماية أنفسنا وهذا حق أساسي من أساسيات السيادة على أراضينا. وهو شيء واضح لا يحتاج إلى المزيد للخوض فيه.

واعتقد أن معظم الأمريكيين يتوقعون من هذا البلد أن يتصرف في الموقف الذي نواجهه كما تصرفنا في الخمسينـات عندما وصل سباق الصواريخ إلى مداه وكان لطائرات «U. 2» دور مساعد في امدادنا بالمعلومات عن التقدم السوفييتي.

وخلال كلامي ومناقشاتي لا بد أن أتطرق إلى أسطورة أخرى ارتبطت بـ «U.2» خاصة وأن خروتشوف قد أصيب بصدمة واندهش للموضوع كله. وفي الحقيقة فقد علم قبل سنوات بنبأ هذه الطائرات رغم أن المعلومات في الفترات الأولى لم تكن دقيقة، وملاحظات الدبلوماسيين تم تبادلها ونشرها قبل الأول من مايو ١٩٦٠ وهو تاريخ فشل «U.2». وعندما أصبحت وسائل خروتشوف الفنية أكثر دقة منذ كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال «U. 2» فلم يزل راغباً في عدم الاعلان عن حقيقة منافسه إلى الشعب وتوقف عن ارسال أي حملات.

وعقد خروتشوف مؤتمراً صحفياً غير مثير للاهتمام في باريس حيث رأى أنه لا توجد مؤشرات نجاح حول موضوع برلين وكان آنذاك واقعاً في مشاكل عميقة مع الشيوعيين الصينيين. وبعد زيارته للرئيس ايزنهاور في نهاية ١٩٥٩ لم يستطع خروتشوف أن يحتوي ماو خلال توقفه في بكين وذلك في طريق عودته من الولايات المتحدة.

والأكثر من ذلك فقد كان مقتنعاً بأن الشعب السوفييتي سيتصرف وسيكون رد فعله هادئاً تجاه زيارة الرئيس ايزنهاور الخاصة بالاتحاد السوفييتي في صيف ١٩٦٠، وتحت تأثير كل هذه الاعتبارات فقد قرر استخدام «U. 2» كمحاولة لانجاح الزيارة والمؤتمر.

وهناك دليل تمت مناقشته طويلاً خلال أول أسبوعين من مايو بعد سقوط «U. 2» وقبل تاريخ مؤتمر باريس، فقد كان السؤال هو ـ أنا أعتقد شخصياً بذلك ـ هل نهدم

«U.2» أو نستخدمها لتدمير المؤتمر؟ وهناك أيضاً تقارير تفيد أن خروتشوف لم يذكر هذا! الموضوع عندما سأله الرئيس ايزنهاور عام ١٩٥٩ وذلك قبل أكثر من ستة شهور من انتهاء «U.2» وقيل ان إجابة خروتشوف كانت بأنه لا يرغب في «تحطيم» روح كامب ديفيد.

وفي النهاية للانتهاء من مناقشة موضوع «U.2» سأتناول أسطورة أخرى وهي عندما القي القبض على باورز في مايو ١٩٦٠ كان على كل فرد ألا يفتح فمه وأصبحت النظرية السائدة أنه يجب ألا نسمح بالتجسس.

وحقيقة كان هناك تقليد قديم يفيد بعدم الخوض في مسائل الجاسوسية مهما برع الفرد في عمله وكانت له أمجاد فيه ويقضي بأنه إذا عمل فرد كجاسوس وتم إلقاء القبض عليه فيجب ألا يقول شيئاً على الاطلاق. وهذا شيء لا يمكن أن يعول الانسان عليه في القرن العشرين، وموضوع «U.2» يعد في صلب الموضوع. ومن الواضح أن عدداً كبيراً من الناس كان عليهم أن يعلموا شيئاً عن موضوع بناء الطائرات وأغراضها الحقيقية وكذا العمليات التي قامت بها خلال السنوات الخمس من عمرها والسلطة العليا والتي بناءً على أوامرها تمت المبادرة والفعل في صنع هذه الطائرات، ومن منطلق طبيعة المشروع فهذه المعلومات تعد ضرورية وحتمية ولا يمكن اعتبارها كعميل سري عبر الحدود، وبالطبع فسيعلم الناس أن أي انكار من المسؤولين يعد شيئاً خاطئاً، وسوف نعرف كل الحقائق فيما بعد ان عاجلاً أو آجلاً.

والسؤال الأكثر خطورة من ذلك هو ما مدى مسؤولية الحكومة حيث ان المسؤول عن شيء ما يكون بديله له نفس الصلاحيات لاتخاذ أي قرار بشأن عمليات «U.2» بدون أي عقوبات يمكن أن تتخذ بسبب عدم مسؤولية الحكومة.

والمسؤول لم يكن يتحكم في سير العمل من خلال بديله أو بدائله الذين يمكنهم بصورة كبيرة التأثير في سياستنا القومية والصمت حول هذا الموضوع لا أعتقد أنه يمكن الحفاظ عليه أو الاستمرار فيه، وحقيقة أن كلا من موضوع «U.2» وخليج الخنازير يؤثران على المدير التنفيذي الذي أخذ على نفسه مسؤولية كل ما خطط حسب الظروف التي يمكن تقييمها. وبالطبع فإن أي بديل للمسؤول التنفيذي مثل مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يكون على استعداد لتحمل كل أو أي مسؤوليات في أي من هذه الموضوعات وحتى مسؤولية عدم المسؤولية إذا ما دعي للقيام بشيء، ونظرياً فهذا قد ينطبق على البعض وعملياً أعتقد انه شيء غير واقعي أو حقيقي.

واليوم وفي مجال المخابرات فقد تم العديد من الاعترافات سواء بصورة تكتيكية أو حصلت بالفعل، وعندما وافق الاتحاد السوفييتي على مبادلة فرانس لوارز

بجاسوسهم الكولونيل رودلف آبل وقد اعترفوا بماذا كان ومن كان بوضوح كما لو كانوا ينشرون الحقائق في الصحف.

والمخابرات لها طريق طويل مرت به منذ الأيام السابقة الجيدة عندما كان يمكن القيام بأي شيء تحت ستار من الصمت.

المخابرات المركزية الأمريكية طفل الحكومة المدلل

هناك أنواع أخرى من الأساطير يسمعها الإنسان من مصادر قوية أو من دوائر المعارف، وأشك أن كثيراً من القراء خارج واشنطن قد تعرفوا على تلك المصادر لذلك سأتناول هذه المسائل بشكل موجز، وعلى القراء أن يتعرفوا أولاً على أسلوب وكالة المخابرات المركزية وعلاقاتها مع الأطراف الأخرى في حكومتنا، خاصة تلك المنغلقة على نفسها.

وبادىء ذي بدء فمن طبيعة الناس والمؤسسات أن أي بداية كبيرة تتقدم للأمام يكون مفهومها لدى الناس مفهوماً جيداً ولقد أثبتت وكالة المخابرات المركزية نفسها واكتسبت احترام الوكالات الأكبر منها والأقدم وذلك باظهار ما يمكنها تقديمه وبكفاءة العاملين فيها.

وفي رأيي الشخصي فإن وكالة المخابرات المركزية استطاعت أن تحصل على احترام بقية الحكومات في العالم، في الوقت نفسه لم تحاول أن تستقطب أفراداً أو امكانيات أو أعمال أي وكالة أخرى رغم ضخامة حجمها وضخامة ميزانيتها. والمقولة التي مؤداها أن هناك سفارات أمريكية وان رجال المخابرات المركزية يعملون في مكاتب هذه السفارات الخارجية على هدي سياستها ما هي إلا مقولة تفتقر إلى الصحة وغرضها الاشاعة مثلها مثل تلك التي مؤداها أن رجال المخابرات المركزية يعملون ما يريدون وينفذون ما يشاؤون. وهناك الكثير من السفارات السوفييتية التي تضم رجال المخابرات السوفييتيين الدبلوماسيين، لكننا لا نفعل ما يفعلون، ويكون السفير السوفييتي أحياناً أحد الضباط العاملين في جهاز المخابرات الروسي، ولم أسمع من قبل أن سفيراً أمريكياً كان ضابطاً في المخابرات المركزية الأمريكية، فالسفير الأمريكي هو الآمر الناهي في سفارته والكل يعمل تحت إمرته بمن فيهم رجال وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مع وكالة «FBI» عمليات الجاسوسية والتجسس المقابل، فكان من المتوقع أن تزداد الاشاعات في بعض الادارات التي يعملون فيها ضد بعضهم أو يتنافسون فيها مما يؤدي إلى سوء العلاقة بينهم وبين بعضهم، وحقائق هذه الأمور هي أن هذه العلاقات مبنية على أساس من القناعه والرضا فكل وكالة تقدم للأخرى كافة المعلومات والتي تخص اقليمها وبهذا لا يكون هناك أي قصور في التنسيق.

الأساطير الفعلية ـ الجاسوس حقيقة وانفعالات

إن أبطال الجاسوسية العظام الذين نقرأ عنهم في الروايات لا يوجدون في عالم الحقيقة سواء في جانبنا أو في اي جانب آخر، فضباط المخابرات على الأقل في وقت السلم نادراً ما يتغلغلون في الأراضي المخالفة وإنما هم في الأماكن المعادية حيث يكون من الصعب أن يتعرف عليهم أحد لخطورة المهام التي يقومون بها. وذلك باستثناء العمل غير الشرعي الذي يقوم به السوفييت، والموجود في الخارج لمدة طويلة من الزمن حيث لا توجد ضرورة ملحة تقتضي المخاطرة بضباط المخابرات والذي بسببه اكتشف العديد من عمليات المخابرات وفشل الكثير منها.

وضابط المخابرات عادة لا يحمل أسلحة بل يعمل بالرموز والشيفرة والرسائل الكودية والتي تحقق أهدافه. ويجب ألا يجعل من نفسه هدفاً للمخاطر وإذا ما حدث وشعر أن أحداً يحاول اكتشافه فما عليه إلا أن ينسحب لأن من أهم مبادئه أن يتجنب كل ما يمكن أن يؤدي إلى تحديد شخصيته كضابط مخابرات باستثناء أولئك الذين يعملون معه.

والنظرة السوفييتية الجديدة التي تستخدم جواسيس شيوعيين مثل ايفانوف في لندن وسكريبوف الذي ذكر في فصل سابق في استراليا يمثلان استثناء من هذه القاعدة، ويبدو جيداً أن السوفييت بعدما تكلفوا في عملية بروفومو بكل ظروفها قد رأوا بعض المزايا في مساعدة عمليات الابتزاز في استغلال المخابرات أو الإساءة إلى أشخاص في بعض الحكومات في دول العالم الحر.

وقد يناسب هذا أغراضهم العامة لحمل هذه الحكومات على عدم الوفاق مع شعوبهم وبالتأكيد ومن زاوية المخابرات فإنه يجب الا يستثنى ايجاد موضوعات للمخابرات يتم تقديمها عن طريق بعض الفتيات وتكون ذات فعالية كبيرة.

وإذا ما كان هناك بعض المخاطر أو الخدع أو المزالق فإن العميل هو الوحيد شخصياً المتورط في ذلك وليس ضابط المخابرات الذي من واجبه أن يرشد العميل ليكون في مأمن. وحتى في حالة العميل ومصادره الخاصة فإن نظم المخابرات اليوم تهتم بالكفاءة والبراعة لكل عميل، والكسندر مونت الذي عمل لصالح السوفييت في سويسرا تناول في مذكراته حول الجواسيس لقاءه الأول خلال الحرب العالمية الثانية مع واحد من أكثر العملاء براعة في جهاز المخابرات السوفييتي، هذا العميل الذي يعرف بالاسم الكودي لوس والذي تحدثت عنه من قبل فذكر:

«لقد وصلت وانتظرت بترقب وصول هذا العميل الذي له اتصالات عميقة مع هتلر، رجل هادىء جلس على كرسي في وسط مائدتنا، إنه لوس نفسه وكان من

الصعب أن يتخيل أحد أن هذا الجالس هو الجاسوس لوس إلا أن لديه من مواصفات الجاسوس ما يجعله ناجحاً جداً».

ومعظم أخبار الجواسيس تم اخراجها للمشاهدين الذين يرغب أكثرهم في التسلية أكثر من التعلم عن مجال المخابرات.

وهناك الكثير والعديد من المتطلبات التي يجب أن تتواجد في الجاسوس الجيد ليكون في مأمن من المطاردة واكتشاف أمره وكذا ليكون ذا فائدة كبيرة للجهاز الذي يعمل لديه وإلا فلا فائدة من عمله بل سيعود بالضرر وعدم الأمان على هذا الجهاز.

وفي الحقيقة لقد وجدت أن الصيادين الجيدين يمكنهم أن يكونوا ضباط مخابرات جيدين، فالاستعدادات التي يقوم بها الصياد للصيد واعتبارات الجو التي يلاحظها والضوء والأحداث وعمق الماء وطريقة الابحار ونصب الشباك وتحديد يوم الصيد الذي يخرج فيه للصيد والمواقع التي يحددها والصبر الطويل الذي يبديه هي كلها جزء من الأشياء الضرورية للنجاح في عملية المخابرات.

ولقد اندهشت بحقيقة أن أحد أعظم الجواسيس في التاريخ دانييل ديفو لم يكتب في صباه كلمة واحدة عن الجاسوسية وذلك في قصصه العديدة برغم أنه واحد من أشهر محترفي الجاسوسية في تاريخ بريطانيا الحديثة فلم يكن فقط ضابط مخابرات ناجحاً بل كان رئيس إحدى منظمات المخابرات البريطانية وهي الحقيقة التي لم تعرف إلا بعد سنوات من وفاته.

وكانت هناك شخصية غير عادية خاضت في جوانب معينة من عمل المخابرات وهو جوزيف كونراد الذي اعتقد أن خلفيته البولندية كانت وراء أساليبه التي اتخذها في عالم الجاسوسية، فلقد نفي والده وأدين اثنان من أعمامه بتهمة التورط في مؤامرة ضد الروس. ولأنه رجل مهذب فلم يكن راغباً في اطلاق قصص الجاسوسية لغرض الكسب أو الدعاية لنفسه فقد كان مهتماً بالصراعات الأخلاقية ولم يستغل كونراد الأحداث المعقدة في قصص الجاسوسية التي كتب عنها لأنه لم يكن أساساً مهتماً بها.

وفي عام ١٩٣٨ أرسل ضابط مخابرات روسي يعمل سراً في الولايات المتحدة تقريرين إلى رؤسائه تضمن احدهما مجموعة وثائق تسلمها من عميل يعمل في مكتب المخابرات البحرية، كانت تلك هي أحد الأحداث التي أوضحت عدم الوعي والاهتمام من جانب ضابط المخابرات الروسي، وهناك ضابط مخابرات آخر اسمه جورين عاد إلى الاتحاد السوفييتي حيث من المؤكد أنه اطلقت عليه النار هناك.

وكان من أهم مصادري في المانيا إبان خدمتي في سويسرا خلال الحرب العالمية الثانية شخص كان يتميز بأفكاره الخارقة وكل ما يبدأ به كان ينطلق من قيمته، وذات مساء كان يتناول عشاءه معي وحده في منزلي في برلين وكانت طباختي تشك أننا نتحدث الألمانية، وبينما كنا نستمتع بالأكل الذي عملته ـ حيث انها كانت طباخة ماهرة أكثر منها جاسوسة ـ فقد ذهبت إلى المطبخ وفحصت القبعة وعرفت كل مخططاته وفي اليوم الثاني كتبت للنازي عن حقيقة الرجل الذي وضح من حديثه أنه الماني ـ وأنه زارني وأطلعني على مخططاته.

وكان مصدري هو ممثل الأدميرال مكاناريس رئيس المخابرات الحربية الألمانية وبعد العشاء بيومين أخذه اثنان من كبار هذا الجهاز الألماني واعتقلوه بتهمة التخابر معي، وقد كشفت لهما أنني أحد كبار المسؤولين في المخابرات الخاصة لصالح الحلفاء وأنهما إذا ما ذكرا ذلك لأحد فسوف يطردان من عملهما الدبلوماسي، واضفت أن اتصالاته معي يعرفها فقط الأدميرال مكاناريس وكبار المسؤولين في الحكومة الألمانية وحدث أنهما اعتذرا لصديقي وأحسب أنهما لم يفتحا فمهما بهذا الموضوع مطلقاً.

ولقد تعلّم الجميع درساً من ذلك فقد عرفت أنا أن طباختي جاسوسة وتعلّم صديقي ألا يضع المعلومات في قبعته، وعلم الجميع أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، وقد نتج عن تصرف الطباخة أنها وضعت في السجن في سويسرا. وحدث في أوائل عام ١٩٤١ أن بدأت اليابان في تضييق الخناق على المشكوك فيهم والمتهمين بتهمة التجسس. وكان أحدهم واسمه اينورينو الذي لاعلاقة له بالتجسس قد تعاون مع البوليس في القبض على المشتبه بهم بتقديم أسماء بعض الناس قليلي الحيلة بتهمة التخابر مع آخرين.

وكان أحد هذه الأسماء هي المسز كيتابايّاش التي كانت ذات يوم شيوعية ولكنها كفرت بها عندما كانت تحيا في الولايات المتحدة، وفي عام ١٩٣٦ عادت إلى اليابان وكان لها علاقة مع أحد اليابانيين الشيوعيين الذين كانت قد تعرفت بهم خلال اقامتها في الولايات المتحدة واسمه ماياجي وكان منضماً إلى جماعة جاسوسية لها باع طويل في هذا المجال. إلا أن اينورينو لم يكن يعلم بكل ذلك وعندما ألقى البوليس القبض على كيتابايّاش أخبرته عن ماياجي الذي بدوره أخبرهم عن أحد المصادر الهامة في المنظمة وقد أسفر هذا عن القاء القبض على الجميع.

ومن الطبيعي أنه كلما كبرت أي شبكة وتوسعت مصادرها ووسائل اتصالاتها وكثر عدد أعضائها كلما زادت إمكانية اكتشافها. ورغم هذا فلم يكن أحد أفراد هذه

المنظمة يوماً ما سبباً في لفت أنظار البوليس إليْها، ولكم كانت دهشة الضباط الذين يحققون مع كيتابايَاش عندما توصلوا إلى اكتشاف شبكة بعد شبكة مما أدى لاكتشاف أكبر منظمة جاسوسية.

ويتحمل الفنيون في مجال المخابرات جزءاً كبيراً من مسؤولية اكتشاف العملاء وذلك بما يقدمونه من وسائل فنية للعميل لمساعدته في القيام بالمهام الموكلة إليه، وكل خدمات المخابرات في العالم تجمع الدراسات وتدرس الوثائق الجديدة من كل أنحاء العالم وذلك بهدف امداد العملاء بهذه الوثائق الهامةلا بكل تفصيلاتها وأكثرها حداثة.واحياناً يكتشف ضابط الجوازات رغم كثرة مشاغله ومئات الجوازات التي يراها كل يوم أن الرقم المتسلسل لا يتناسب مع يوم صدور هذا الجواز أو أن التأشيرة عليها امضاء اليوم للقنصل الذي مات منذ أسبوعين قبل توقيعه على الجواز وهذه الأشياء يجب مراعاتها بدقة، ولا تكتشف حالات مشابهة إلا في القليل النادر.

وقد يحدث أحياناً أن يسقط العميل ميتاً بسبب أزمة قلبية أو خادث سيارة كان يركبها أو حادث طائرة كان بداخلها. وقد يؤدي هذا الحادث إلى نهاية المهمة التي كان مكلفاً بها وقد يكون ضررها أكثر من ذلك بكثير، ففي مارس ١٩٤١ كان الكابتن لودويج فون دير اوستن ـ الذي وصل لتوه إلى نيويورك ليلتحق بشبكة مخابرات النازي في الولايات المتحدة وأصيب في حادث سيارة تاكسي إصابات خطيرة. وبعد الحادث عثر في جيوبه وفي حجرته بالفندق على أوراق خطيرة توضح أنه جاسوس ألماني يعمل لحساب النازي ضد الولايات المتحدة.

وذات ليلة عاصفة خلال الحرب هبط أحد المظليين في فرنسا، كان من المفترض أن يتصل بالأجهزة السرية في فرنسا، وكان من المفروض أن يهبط في منطقة مفتوحة خارج المدينة إلا انه وبسبب الرياح هبط في وسط المناطق المأهولة بالسكان وبالذات في سينما صيفي وهذا ما جعله صيدا سهلاً للقوات المرابطة بجوار السينما.

وكان نفق برلين الشهير الذي يربط بين برلين الشرقية والغربية وسيلة ذكية مناسبة بهدف التوصل إلى الاتصالات السوفييتية في ألمانيا الشرقية وكان له نظام تدفئة خاص لأن الشتاء في برلين كان قارصاً. وعندما يبدأ الثلج في التساقط كانت تتم دوريات منتظمة روتينية، ولدهشة رئيس الدورية كان الثلج يذوب من فوق النفق وذلك بسبب التدفئة المنبعثة من أسفل، وفي زمن قصير جداً تكوّن ممر جميل بين الثلوج، أوله في برلين الغربية وآخره في برلين الشرقية وكان من اليسير جداً والواضح تماماً ملاحظة هذا الممر، وقد كتب رئيس الدورية تقريراً بما شاهده وحدث.

أن انقطعت التدفئة وتمّ تركيب أجهزة ثلاجات في النفق، ولحسن الحظ تكوّن الثلج ثانية فوق النفق بحيث لم يعد من الممكن اكتشاف ما حدث، ورغم ما يحتاجه النفق من وسائل علمية متقدمة وأجهزة حديثة وعلم واسع لانشائه، إلا أن أحداً لم ينتبه لهذه النقطة. ولكل عملية مخابرات سواء النفق أو «2 ـ لـ» أو ما شابه يكون هناك أوجه نقص وصعوبة في متى نبدأ ومتى نتوقف؟

ولقد اكتشف السوفييت هذا النفق وأنشأوا لهم مقراً بالقرب منه يستطيع منه الألمان وعائلاتهم قضاء يوم الأحد فيه، وقد كان رد فعل الألمان هادئاً بأكثر مما توقع السوفييت من جراء انشاء هذا المقر.

وليس هناك عمل مخابرات واحد يمكن أن يكون سبباً في الاحباط أكثر من الاتصالات. واليوم هناك طرق أكثر أماناً وسلامة يمكن من خلالها حفظ الأوراق لمدد طويلة وفي احدى الحالات تم دفن الأوراق تحت الأرض في بقعة بجوار طريق استخدم من قبل بنجاح.

وكان الموقع واضحاً عندما وضعت الأوراق تحت الأرض ولكن عندما جاء العميل بعد بضعة ايام ليأخذها وجد جبلاً من القاذورات فوقها، ففي الفترة الوجيزة بين وضع الأوراق ومحاولة أخذها ثانية قررت السلطات توسيع الطريق وبدأت في اتخاذ الاجراءات اللازمة بالفعل.

ولأسباب واضحة فعمليات المخابرات عادة ما تستفيد من المرافق العامة في اخفاء الرسائل، ففي بعض الدول تكون المراحيض العامة (دورات المياه العامة) هي المكان الوحيد الذي تضمن أن تكون أنت وحدك فيه وقد يكون حظك عاثراً أيضاً في إحدى دورات المياه العامة.

وفي عمليات المخابرات التي تستخدم فيها الاتصالات اللاسلكية قد يحدث خلل معين في احد جهازي الارسال أو الاستقبال، ولذلك يجب أن تكون هناك خطوط طوارىء جاهزة للتصرف في مثل هذه الأحوال خشية أن يؤدي ذلك إلى تخبط العميل مما يهدد بفشل العملية أو المهمة كلية.

وإحدى وسائل التمويه هي أن تكون هناك مواعيد محددة سلفاً في أيام معينة أو ساعات معينة خلاف ما يتم الاتفاق عليه في المحادثات التليفونية خوفاً من أن يكون العدو قد التقط أو تنصت على هذه المكالمات. ولنفترض أن العميل تلقى يوماً ما تعليمات بأن يضيف يوماً آخر وأن يختصر ساعتين، فالثلاثاء الساعة ١١ يعني في الحقيقة الأربعاء الساعة ٩ وعندما يتلقى العميل هذه الرسالة فهو يعرف ذلك تماماً كما

يعرف اسمه، ولا توجد هناك حاجة لكتابة ذلك بأي طريقة، وبعد ثلاثة أشهر عندما تلقى العميل رسالته الأولى التي تدعوه لمقابلة فإن الرعب يتملكه هل هي يوم زائد مع اختصار ساعتين أم هي اختصار يوم واضافة ساعتين؟ أم ربما تكون اضافة يومين واختصار ساعة؟ أو هل... الخ. هذا بالطبع حادث بسيط وخطر للترتيبات التي يمكن أن تتعقد.

وسوء الفهم أو التسمية لمثل هذه الترتيبات المعقدة قد يؤدي إلى أخطاء فظيعة خاصة عندما يحاول كل طرف في اللقاء أن يضلل الآخر، فلقد أخطأ العميل ولم يحضر اللقاء لأنه تخبط ونسي ماذا يضيف وماذا يختصر، وكان الطرف الآخر موجوداً في المكان المحدد والزمن المحدد.

وعموماً إذا لم يحضر العميل في موعده عرف الطرف الآخر أنه تخبط في تحديد الموعد المضبوط وحاول أن يفكر في كيفية الاجتماع به على مدى الاختبارات الأربعة وذهب في كل اختبار إلى المكان نفسه ولكن العميل في الوقت نفسه كان يتذكر الوضع الصحيح لتحديد الموعد لكن ذلك كان بعد فوات الأوان ولذا فشل الرجلان في أن يجتمعا في الموعد المضروب.

والأخطاء التي يتم ارتكابها مهما كان سببها أو طبيعتها يمكن تقسيمها إلى تلك التي تكشف أو تدمر وجود العمليات للعدو أو للسلطات المحلية وتلك التي تسبب فشل العملية وذلك على سبيل المثال عندما لا تصل الاتصالات الى الأشخاص المراد وصولها إليهم ولكنها في الوقت نفسه لم تصل لأيدي الأعداء، وعلى أي حال فالغلطة الأساسية كما ذكرنا من قبل قد تسبب أضراراً بالغة تستغرق زمناً طويلاً لاصلاحها.

أما الأخطاء البسيطة في المخابرات فهي أخطاء رديئة ومقززة على أية حال ولا يستطيع الفرد أن يعلم مدى ضررها ومدى استمرار العملية رغم ارتكابها، ومعظمها بسبب بعض الخسائر، وأي شخص يسافر باسم مستعار يعلم أن الخطر الأعظم لا يكمن في كتابة البيانات الجديدة أثناء الامضاءات أو مثلاً في سجل الفندق ولكن قد يأتي شخص لم تره من مدة ويناديك في بهو الفندق باسمك الحقيقي. وأي عملية يتم فيها الاستعانة باسم مستعار يجب أن يؤخذ في الاعتبار أثناء اعدادها أن ألف سبب وسبب قد يؤدي إلى اكتشاف الاسم الحقيقي.

وفي حادث جوردن لونسديل كما ذكرت من قبل فإن الزوجين الأمريكيين المعروفين باسم كروجر قد عرفا بعد وقت طويل من اعتقالهما بأنهما عميلان سوفييتيان يعملان في الولايات المتحدة، وبعد انتهاء التحقيقات الشخصية تلقى مكتبهما في نيويورك مكالمة من شخص وصف نفسه بأنه مدرب كرة قدم، وقبل ذلك

بأسبوع نشرت مجلة الحياة سلسلة من الصور لكل الأشخاص المعتقلين في هذه القضية..

ومنذ ٣٥ سنة أخبر هذا الشخص أنه مدرب كرة قدم في مدرسة ثانوية في برونكس، وفي غضون هذه الأوقات ترك لاعب هزيل الفريق ولكنه لم ينسه قط، ثم رأى صورة كروجر في مجلة الحياة وكان كروجر هو ذلك اللاعب الهزيل وهو متأكد من ذلك تماماً، لكن اسمه لم يكن كروجر وكان المدرب صادقاً في كل ما قاله. ولم يحاول الزوجان كروجر تغيير ملامحهما الجسدية بالمرة واتخذ كروجر لنفسه تجارة الكتب في لندن والتي تتيح له التعامل مع أكثر من جنسية من العالم من ذوي الرغبة في الحصول على الكتب النادرة.

والخلاصة، أن يتذكره أحد ليس بالضرورة أن يكون المدرب من مدرسة برونكس بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة التي وصلت إلى قرابة ثلاثين عاماً ويريد أن يقتني كتاباً من مكتبة ثم يتعرف عليه، أنها فرصة ضئيلة جداً ولكنها ليست بمستحيلة وقد ركب السوفييت هذه المخاطرة.

وأحياناً ـ أحياناً من باب عدم الحكمة ـ يرسل ثلاثة رجال ليروا شخصية مهمة معينة تشغل جناحاً في الدور العلوي لأحد الفنادق في مدينة أوروبية كبيرة، ويكون كل منهم متخصصاً في وجه ما من أوجه العملية وهم ليسوا من نزلاء الفندق أو من سكان المدينة التي يقع فيها بحيث لا يعرفهم أحد على الاطلاق، وبعد عدة أشهر من اجراء اتصالات معينة بطريقة أو بأخرى مع هذه الشخصية يحدث أن يطلب العمل معنا فنرسل أحد هؤلاء الرجال الثلاثة ليرونه وبعد مناقشة يكون القرار أن نرسل الضابط إلى الفندق بحيث لا يحاول أن يلتقي بالشخصية في أي مكان في المدينة، وقبل كل شيء يكون الضابط قد عرف المكان الذي يريده بالضبط في الفندق فيخبر عامل المصعد عن الدور الذي سينزل فيه، ويكون الراكب الوحيد في المصعد وينظر عامل التليفونات ويحاول في كل ذلك أن يتأكد من وجود هؤلاء حتى لا يلتقي بهم ويعرفونه في زياراته المستقبلية للفندق، وقبل أن يهبط رجلنا يسأله الرجل كيف حالك لماذا لم تحضر معك صديقيك اليوم وأنت قادم إلى هنا. ويجب أن نعلم أنه في كثير من بلدان العالم يكون عمال المصاعد وحاملو الحقائب والجرسونات من رجال البوليس الذين يتذكرون الوجوه جيداً ولا ينسون بسهولة. هل عامل المصعد يعرف من هو رجلنا؟ وهل يعرف جنسيته؟ وهل يعرف لماذا هو قادم؟ أن هذا بعض ما يمكن أن يكشف عمليات المخابرات، وهل تعرّف عامل المصعد من خلال ملابس عميلنا أو طريقة لهجته التي تشابه اللهجة الأصلية للبلد، لكنه لا يتحدثها بطلاقة تصل إلى درجة الكمال، هل تعرّف على جنسيته؟

كل هذه الأشياء الصغيرة التي تسبب أخطاء، يجب أن يدرسها أي جهاز مخابرات مهما بلغت ضآلة هذه الأخطاء. ومن أهم مصادر المشاكل للمخابرات الغربية والدبلوماسية تعتبر الأفعال السوفييتية والتي ذكرتها من قبل يليها بعد ذلك الدعاية التي يضنعها السوفييت للتعرض للأشخاص الذين يعملون مع أجهزتنا وكذا للوسائل التي نتبعها عندنا. وفي محاولتهم للنيل من المخابرات الأمريكية حاول السوفييت عن طريق استخدام كافة وسائل الاعلام وصف مخابراتنا بأنها جوفاء ووصفوا ضباط المخابرات الأمريكية بمن فيهم مدير المخابرات الأمريكية بأنهم مجرمو حرب.

وتعد هذه الأساليب أرخص أنواع الدعاية، ولقد أدعوا بأننا نعذب الناس ونشروا صوراً للأدوات التي نستخدمها في تعذيب الناس، ومعظم هذه الأشياء ظهرت في ألمانيا الشرقية اكثر من أي مكان آخر لأن الأراضي التابعة لألمانيا الشرقية كانت مرتعاً للمخابرات الغربية مما كان يخيف السوفييت، وكانوا شغوفين بارهاب المانيا الشرقية من الغرب.

ومثال لأحد الأعمال التي نشرت في المانيا (برلين الشرقية عام ١٩٥٩ هو ما أطلق عليه الآن، آلان مانسترز أن اكشن)، وبغطائه الأصفر كان معبأ بميكروفونات وأجهزة تسجيل وارسال وجهاز ارسال بحيث لا يمكن أن يراها أحد إذا كانت ترتدي ملابسها، وكانت وقتها متناهية بحيث انها قدمت عنوان وكالة المخابرات الأمريكية بحيث كان مكتب E - Street 24 معروفاً بحيث يعرفه أي انسان بمجرد فتح دليل التليفونات لواشنطن وكان الرقم القديم هو ٢٤٣٠٤ كما يعرف الجميع ولم تكن ولاية نيويورك تتبع واشنطن.

وبمرور الزمن أصبحت الدعاية السوفييتية أقل قيمة وبدأت تثير السخرية، وقد كتب الكاتب السوفييتي ايليا انرينبرج عنه في الملخص السنوي للأشخاص والأحداث والذي ظهر في آزفستيا، فقال: إذا كان الجاسوس آلان دولز يمكن أن يمر من البوابات الحصينة إلى الجنة فسنجده يبحث في السحب والنجوم والملائكة، ولقد وجدت ذلك مقدمة مفيدة للغاية حيث حاولت تلخيص واجبات مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. واليوم يبدو ايليا أكثر امتناناً للغرب منه لموسكو وذلك في كتاباته.

وما أصبح معروفاً فيما بعد باسم غسيل المخ فهو ذو أهمية كبيرة للغرب فهو مهم لدراسة الأساليب الدفاعية التي لم نعرفها ولم نمارسها عندنا برغم ادعاء السوفييت، وذلك لسبب بسيط وهو أننا لسنا شغوفين بخداع الناس وردهم إلى طريقتنا في التفكير سواء بالقوة أو بالخداع وهو هدفهم الرئيسي.

ولم نشعر مطلقاً مثل الروس والصينيين والكوريين أن هناك الكثير الذي

نستفيده من غسل مخ أي انسان ليدين رعايا بلده، ولدينا الكثير من الناس من الشيوعيين الذين يأتون إلينا طواعية ودون الرغبة في الحصول على أي شيء.

وهناك نوع آخر من صانعي الأعمال المؤذية هم الذين يفبركون المخابرات وعمليات الخداع، ومن بين هؤلاء نجد العميل الذي تجف مصادره (أي لا يصبح عنده معلومات) ومن ثم فإنه يجد نفسه مهدداً بالتوقف عن ممارسة المهنة، وهو يعلم أي نوع من المعلومات تريده أجهزة المخابرات التي يحظى بثقتها وإذا لم يكن يتمتع بالحيوية والنشاط وإذا لم يكن أميناً بدرجة كافية فإنه من المفهوم أنه قد تسيطر عليه فكرة احياء مصادر وتشغيلها في الوقت الذي تكون فيه هذه المصادر جافة تماماً ولا نفع لها وذلك بكتابة التقارير بنفسه وفبركة محتوياتها. وإن عاجلاً أم آجلاً فإن جهاز المخابرات سيكتشف الأمر ربما عن طريق دليل داخلي ـ عادة ما تكون عن طريق أخطاء أو تعارضات وتناقضات في المعلومات أو قلة ملحوظة في المعلومات القيمة أو قدر معين من المبالغة لم يكن موجوداً من قبل أو حتى أخطاء في الأسلوب نفسه، أو أن هذه الخدعة قد تكتشف بطريقة أخرى، فالعميل يجب أن يقابل مصادره من وقت لآخر وعندما يفعل هذا فإنه لا يسلم جهاز المخابرات المعلومات التي حصل عليها فحسب وإنما يكتب تقريراً عن اجتماعه بالمصدر واصفاً فيه ظروف الاجتماع والحالة العامة لنفسية المصدر والعديد من المسائل التي يقوم جهاز المخابرات بعد ذلك بحفظها.

فيقول رجل المخابرات مخاطباً العميل «أنظر هنا قلت إنك رأيت فلاناً (×) في الخامس والعشرين وهذا رائع جداً لأنه تصادف لنا معرفة أنه كان خارج البلد طيلة هذا الأسبوع وبالطبع تكون هذه اللحظة من اللحظات السعيدة لضابط المخابرات إذا كان يتحدث إلى عميل طالما أمده بالمعلومات القيمة .

إن الشخص الذي يخدع أو يغش المخابرات ـ وهو يختلف عن العميل الحقيقي الذي يخطيء ـ هو شخص متخصص في هذا النوع ولم يكن أبداً عميلاً جديداً لأي شخص.

ومثل أي نوع آخر من المخادعين فإن هذا المخادع يمسك جيداً بآخر الأحداث باستثناء أن موطن قوته يشكل ضرراً شاملاً لأجهزة المخابرات ومن واقع خبرته الطويلة فإنه يعرف كيف يعثر على مكاتبهم وكيف يطرق أبوابهم .

إن المخادعين والمفبركين موجودون في عالم التجسس والمخابرات دائماً لكن التطور الأخير وأهمية الاكتشافات العلمية والفنية وخاصة من ناحية تطبيقها على المجالات العسكرية، قد منحت مجالات مغرية وجديدة للمخادعين، ونقط الضعف التي

يمكنهم استغلالها هي في نقص المعرفة في المعلومات العلمية المفصلة لضابط المخابرات.

وعلى الرغم من أن كل جهاز حديث سيقوم بتدريب واطلاع الضباط الذين يعملون في الميدان بأدق ما يمكن في النواحي العلمية التي تهمه فإنه من الواضح عدم امكانية تحول كل ضابط مخابرات إلى عَالِم طبيعة أو فيزياء متكامل، والنتيجة هي أن ضابط مخابرات قديراً، يعمل في الميدان، قد يقبل عرضاً بمعلومات ويواصل العمل مع ذلك العميل الذي أمده بالمعلومات حتى يكتشف المتخصصون في الوطن بعد وقت طويل وتحليل للمعلومات ويخبرون الضابط بأنه وقع في أيدي محتال.

وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أصبحت أفضل وسيلة للخداع تتعلق بمجال الطاقة الذرية الجديدة التي حازت اهتمام العالم بأسره، وقد غرقنا في التعامل مع من أسميناهم «باعة اليورانيوم» فقد كانوا يتجولون في كل العواصم الأوروبية ومعهم عينات من يورانيوم ٢٣٥ ويورانيوم ٢٣٨ في علب صفيحية أو مغلفة بالقطع ومحشورة في زجاجات دواء، وأحياناً كانوا يعرضون علينا أن نشتري كميات كبيرة من هذا المعدن المشع. وأحياناً كانوا يزعمون أن عيناتهم جاءت من مناجم اليورانيوم الجديدة في تشيكوسلوفاكيا حيث إن لهم هناك مصادر ممتازة يمكنها إمدادنا بآخر الأبحاث من خلف الستار الحديدي، وقد كانت هناك أشكال متنوعة لموضوع اليورانيوم هذا.

الصفات الرئيسية المميزة للمخادع وما يقدمه من معلومات في معظم أحوال المخادعين، هي أنه يطالب بأن يحصل على المال نقداً أو على الفور، يأتي أولاً العرض المغري مع العينة ثم طلب كمية كبيرة وبعدئذ يحدث تسليم البضاعة الأساسية، ولأن أجهزة المخابرات لا تسمح لضباطها في الميادين الخارجية بصرف كميات نقدية أكثر من المتفق عليه حتى تراجع القيادة بشأن هذا المشروع بكافة تفصيلاته فإنه من النادر جداً أن يصرف ضابط المخابرات أية نقود للمخادع.

اما كل ما يخسره فهو الوقت، وهو شيء ثمين حقاً وأحياناً يكون أثمن من المال. فإذا ما كان العرض به لمحة من الصدق وانه لم يتم التعرف عليه على الفور بأنه عملية نصب فإن ضابط المخابرات - لأسباب ذكرتها سالفاً عدة مرات - سيحاول التوقف لفترة لكي يتأكد مما لديه، ويمكن أن يتحول هذا الأمر إلى لعبة مضيعة للوقت بين المخادع الماهر وضابط المخابرات. فالضابط يرفض أن يترك الأمر برمته والمخادع يحاول ببراعته وقوته أن يظهر صادقاً وأن يجيب على كل الأسئلة التي تبين صدقه.

وبعد اليورانيوم - راجت الأشعة تحت الحمراء وجاءت المعلومات الزائفة عن لصواريخ ولا شك أنه في هذه اللحظة يقوم المخادعون باعادة تجميع التقارير عن طوير الصين الشيوعية لشعاع الموت عبر استخدام الليزر، (والمنطق) هنا هو أن لصين الشيوعية تكمن وراء أبحاث القنبلة (H) الهيدروجينية، وبدلاً من أن تكلف فسها بالملاحقة خصصت طاقتها لتطوير أشعة الليزر.

وهناك نوع آخر من الفبركة اكثر تعقيداً نطلق عليه اسم «الطواحين الورقية» فإنهم يضعون تقارير على أبوابنا ولا يعتمدون على المواضيع الساخنة مثلما يفعل المخادعون.

غالباً ما تكون معلوماتهم قابلة للتصديق ظاهرياً، ولها أسباب معقولة ومنظمة بطريقة رائعة، لكن هناك خطأواحداً بها فإنها لا تأتي من المصدر الأصلي كما يدعون.

فقد كانت الطواحين الورقية تستغل الموقف الذي تسبب فيه وجود الستار الحديدي والحاجة التي تزايدت في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات عندما كانت معظم الأجهزة الغربية عاجزة عن حل مشكلة اختراق الستار وخلال هذه الفترة اكتشف عملاء مخابرات أوروبا الشرقية الذين فروا من بلادهم، وأصبح يعتريهم الأمل في الحصول على ملجأ، أن أجهزة المخابرات الغربية بشوق للتحدث معهم بشأن الأوضاع في المناطق التي تركوها لتوهم. وقد كان أقل شك منهم يمكن اصابته بسهولة بناء على فكرة الاحتفاظ بامداد هذه الأجهزة بما تحتاجه من معلومات، ولهذا بالطبع كان من المهم الحصول على مصادر خلف الستار الحديدي، أصدقاء موثوق بهم في مناصب هامة يمكن الاختفاء خلفها.

وهناك وسائل سرية للبقاء على اتصال مع هؤلاء الأصدقاء والجواسيس والوثائق المهربة وشبكات الراديو وما إلى ذلك... الخ. والذي أدى إلى صعوبة اثبات صحة المعلومات التي يتم الحصول عليها هي حقيقة أن المصدر غالباً ما يكون ملماً بتقاليد وبناء وعادات المنظمات العسكرية والحكومية لبلاده، ويمكنه الحصول على معلومات من الصحف المنشورة خلف الستار ومن الاذاعات ويبالغ في المعلومات أو يفسرها مع كثير من الاضافات، وبالتكرار أصبح الفرد على دراية لا بأس بها للمعلومات. وكانت المشكلة الوحيدة هي أنها تكلف أكثر من قيمتها وأنها ليست قادمة من المصدر المدّعى أنها قادمة منه.

بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة اتفقنا مع مجموعة من العسكريين السابقين الذين هربوا من احدى دول البلقان إلى الغرب كي يمدونا بخطط الدفاع الحديثة بعد الحرب على شاطىء «الأماتيان» كاملة بتحصينات الميناء وقواعد الصواريخ وما إلى ذلك. ولقاء هذا كانوا يريدون ما يعادل عدة آلاف من الدولارات من

الذهب وقد وافقوا على أن يعرضوا علينا عينات بسيطة من هذه الوثائق قبل أن ندفع لهم.

وكان المفروض أن هذه الوثائق مصورة من رسومات عسكرية رسمية مصحوبة بوثائق الشرح، وزعموا أنهم حصلوا على هذه الوثائق من زميل موثوق به - ضابط بقي هناك وهو الآن موظف بوزارة الحربية لاحدى دول الستار الحديدي - بالاضافة إلى ذلك كان هناك جاسوس على دراية بالممرات الجبلية وهو رجل شجاع تمكن لتوه من احضار هذه الخطط وعاد إلى الوطن بسرعة، فهو لا يستطيع البقاء في الغرب لأن غيابه قد يلاحظ في بلاده، وهذا خطر جداً، وإذا رحبنا بشراء هذا العرض فإن الجاسوس سيمكنه القيام برحلة كل شهر وسيقوم الزميل في وزارة الحربية بامدادنا بما نحتاجه بانتظام.

كانت الخطط رائعة وكذلك الوثائق، لكن هناك خطأ بسيطاً لاحظناه منذ القراءة الأولى لهذه الوثائق، فأثناء قراءتنا لاحدى الوثائق كانت هناك جملة تقول ان التحصينات الجديدة تم بناؤها بنظام العمل بالسخرة.

ومثل هذا المصطلح لا يستخدمه إلا شخص معاد للشيوعية، ففي الشيوعية لا يوجد اعتراف بشيء اسمه السخرة. فقد أضاع أصدقاؤنا العسكريون أنفسهم من فرط حماستهم. كان من الواضح أنهم قاموا برسم الوثائق والخطط الرائعة بأنفسهم في أحد الأقبية في ميونيخ، وعندما اعترفوا فيما بعد اتضح أنه لم يكن هناك جاسوس شجاع ولم يكن لهم صديق في وزارة الحربية.

ونتائج هذه الطواحين الورقية عادة ما تكون مقنعة بمهارة ويتم تركيب وبناء أسانيدها بدقة فائقة وفقاً لرغبات الراغبين في الشراء وهكذا فإنه من المستحيل تقريباً أن يتم التعرف عليهم من الوهلة الأولى، وهناك دائماً أناس مدربون ومحترفون في خدمة هذه الطواحين الورقية ونادراً ما كانوا يفشلون في رسم وتوضيح الوثائق والخرائط بمهارة فائقة، ويبرزون فيها شبكات المصادر والمصادر الفرعية وسقطات الورق وأفرع الجواسيس والمخابيء وكل متطلبات هيئة التجسس المحترفة. ونتيجة للحملة التي نظمتها الولايات المتحدة وأجهزة المخابرات الأخرى، فقد أمكن القضاء على معظم هذه الطواحين الآن.

وقد عاد المهووسون والمعتوهون مرة أخرى بعد المفبركين، مثل صانعي الأعمال المؤذية ومضيعي الوقت، لأجهزة المخابرات.

وقد يدهش القارىء إذا عرف عدد المضطربين عقلياً والأناس الحاقدين والضعفاء والمرضى الذين يمكنهم اجراء اتصالات مع أجهزة المخابرات في مختلف

انحاء العالم ويورطونهم في المتاعب ولو لفترة قصيرة جداً وهكذا فإن جهاز المخابرات يتعرض للانتقاد أو الهجوم مرة أخرى بسبب حاجته الملحة للمعلومات وبسبب عدم مصداقية المصدر القادمة منه.

والبارانويا هي أكثر الأمراض التي تسبب المشاكل، وطالما أن التجسس أصبح واضحاً الآن فإنه لا عجب أن الأشخاص الذين لديهم ميول البارانويا (وهو جنون الاضطهاد أو العظمة أو الارتياب والشك في الآخرين) الذين فشلوا في الحب أو العمل أو الذين لا يحبون جيرانهم، قد يشون بأصدقائهم أو أعدائهم أو منافسيهم أو حتى جامع القمامة ويقولون أنهم جُواسيس سوفييت.

خلال الحرب العالمية الأولى تمت الوشاية بالعديد من المربيات الألمانيات اللاتي استخدمتهن العائلات في «لونج أيلاند» للسبب نفسه، فقد شوهدن وهن يرفعن ستائر نوافذهن ويخفضنها في الليل وهي علامات سرية للغواصات الألمانية التي ظهرت على السطح، ما هي نوعية المعلومات الهامة التي يمكن أن ترسلها هذه المربيات إلى احدى الغواصات إذا ما رفعت ستارة النافذة مرة أو مرتين؟ هذا غير واضح لكنه نموذج أوهام البارانويا بأن هناك شخصاً شريراً على مقربة رغم انه لم يتأكد أبداً مما يريد.

ويمكن لضابط المخابرات المدرب أن يكتشف المعتوه بهذه الوسيلة وعادة ما يكون هناك أهمية ضئيلة جداً لدعوى المعتوه، فمثلاً الساقي الذي كان في «ايسلاندا» يتجسس لحساب احدى دول الستار الحديدي، فقد شوهد خلسة وهو يدون بعض الأشياء في أحد الأركان بعد أن انتهى لتوه من خدمة شخصين يعملان في مكتب حكومي. (ربما انه كان يكتب الفاتورة لهما) وقد يتضح فيما بعد انه القى ذات مرة وهو غير متعمد طبق الشوربة على ذلك المصدر الذي اقتنع بأنه فعل هذا عن عمد.

وأحياناً ما يتحول المعتوهون والمهووسون من جهاز مخابرات إلى جهاز آخر بحيث يسببون متاعب خطيرة إذا لم يتم اكتشافهم مبكراً في هذه اللعبة لأنهم قد يتعلمون ما يكفي من تجربتهم الأولى لكي يضيفوه إلى التجربة الثانية، فقد ظهرت فتاة جذابة ذات مرة في سويسرا وروت قصة عن مغامراتها خلف الستار الحديدي وفي ألمانيا الغربية وعن عملها مع كل من المخابرات الروسية وأحد أجهزة مخابرات الحلفاء.

وقد كانت قصتها طويلة واستغرق اكتشاف حقيقتها عدة أشهر. فقد اتضح أنها كانت في الأماكن التي ذكرتها فعلاً ـ كانت هناك لأنها استطاعت تسمية ووصف

الأماكن والناس وعرفت لغة كل هذه الأماكن ـ وأكثر ما في الموضوع غرابة ادعاؤها بأن بعض ضباط مخابرات الحلفاء بمن فيهم بعض الأمريكيين الموجودين في المانيا كانوا يعملون لصالح السوفييت.

وفـي النهاية كشفت تحرياتنا أن الفتاة ظهرت في المانيا كلاجئة ومعها معلومات عن السوفييت والبولنديين حيث كان واضحاً أنهم جندوها ذات مرة في عمل كتابي.

وبينما كانت عملية الاستخبار والاستجواب والبحث مستمرة كونت علاقات مع العديد من ضباط مخابرات الحلفاء وعرفت أسماءهم، وكانت فيما يبدو بحاجة إلى عمل ـ لكنها خابت في النهاية ـ عندما تبين أنها أخطأت في معرفة الراس، ثم تجولت فيما بعد في سويسرا عندما عثرنا عليها، فكبرت قصتها وتضمنت الرجال الذين قابلتهم في المانيا ـ ليس في أدوارهم الحقيقة ـ ولكن كممثلين في قصة للتجسس والازدواجية في التجسس.

وبعد أن انتهينا منها رحلت هي إلى بلد آخر. لا شك أن القصة كبرت وربما أنها ضمتنا نحن كذلك ـ كعناصر أخرى في قصتها ـ كعملاء للسوفييت أو ربما أسوأ من هذا.

وقد توصل أحدنا إلى الاستنتاج أن الروس أرسلوها إلى الغرب ـ من دون أي تدريب ـ كسلاح تخريبي فعال. فهي ستضمن تضييع وقت أي جهاز مخابرات في أوروبا وتمنعه من القيام بأداء مهام أكثر أهمية.

دور المخابرات في الحرب الباردة

جرت قبل وقت قصير من اندلاع الثورة البلشفية في شهري أكتوبر ونوفمبر عام ١٩١٧ انتخابات عامة في روسيا لاختيار الممثلين في الجمعية الدستورية الذين سيقومون بدورهم باختيار قادة روسيا الجديدة.

كانت هذه آخر انتخابات حرة، وربما الوحيدة التي شهدها شعب روسيا. وعلى الرغم من الظروف السائدة في البلاد التي كانت تمزقها الحرب في ربيع عام ١٩١٧، صوّت ٣٦ مليون شخص في الانتخابات التي جرت على مقاعد الجمعية البالغ عددها ٧٠٧ مقاعد، وفي هذه الانتخابات حصل البلاشفة على نحو ربع الأصوات فقط و ١٧٥ مقعداً، وقد حل لينين المجلس باستخدام القوة بعدما أصبح غير قادر على السيطرة عليه أو ارهابه «وهذا هو حكم لينين».

لقد تحول كل شيء إلى الأفضل بالنسبة لنا، «ان حل الجمعية الدستورية يعني القضاء تماماً على فكرة الديمقراطية لصالح المفهوم الديكتاتوري»، «وهذا درس ذو قيمة».

وقد اثبت ذلك فعلاً حيث تم طبقاً للاساليب المستخدمة في القضاء على الحرية في الدول الاخرى فقد أوضح لينين أن الاقلية التي تساندها القوى غير الشرعية يمكن أن تطأ الاغلبية التي تعتمد على الاساليب الديمقراطية. وبعد ثلاثين عاماً شعرت الشيوعية بأن لديها القوة الكافية لتجربة هذه الخطط خارج المنطقة التي سيطرت عليها روسيا في عام ١٩١٤. وبعد ان وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٤٥ بدأت الشيوعية المسيرة مرة أخرى وفي ذلك الوقت كان الشيوعيون يدعمون حدودهم عند نهر الالب داخل أوروبا الغربية كما أن قوات الاحتلال التابعة لهم وجهازهم

القمعي كان يواصل عمله في إقامة أنظمة شيوعية في بولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا. وبعد وقت قصير سيطروا على تشيكوسلوفاكيا بعد تقدمهم نحو بحر الصين في الشرق الأقصى. ويمثل التسرب السري إلى الدول الحرة جزءاً رئيسياً من الاستراتيجية الشيوعية أثناء الحرب الباردة الحالية. وتظل السبل التي يستخدمونها والدول المستهدفة التي يختارونها والمناطق السهلة في هذه الأهداف خفية كلما أمكن ذلك كما أنهم يستغلون نقاط الضعف السرية والفرص الممكنة ويسعون بصفة خاصة للنفاذ إلى الأنظمة القمعية في البلاد، وذلك من خلال هجوم سري.

وأنا أضم هذه القضية (التي تعد من أخطر القضايا التي تواجهنا كدول وتواجه العالم الحر اليوم) في كتاب عن المخابرات لأن للمخابرات دوراً رئيسياً يمكن أن تقوم به في هذا الصدد. أن حملات التدمير والتخريب التي تنظمها الأنظمة الشيوعية بصفة عامة تبدأ باستخدام أساليب سرية وجهاز سري. وليس من مصلحة هذه الأنظمة أن تجند المخابرات قواها في وقت مناسب بحيث يمكن استخدامها كما سأوضح فيما بعد. من بين المهام الموكلة إلى المخابرات تمثل هذه المهمة أهمية كبرى ترقى إلى مرتبة المهام المذكورة من قبل مثل جمع المعلومات ومكافحة التجسس والتنسيق بين المعلومات ووضع التقديرات القومية. وبالطبع فإن النطاق الكامل للخطط الشيوعية في الحرب الباردة أوسع نطاقاً من العمل السري والتخريب السياسي مثل ذلك الذي عرفناه في تشيكوسلوفاكيا وكوبا. كما انها تشمل حروباً محدودة وحروباً بالنيابة مثل تلك التي جرت في كوريا وشمالي فيتنام وحرب رجال العصابات في جنوبي فيتنام والحرب الأهلية في الصين فضلاً عن استخدام وإساءة استخدام مناطق الاحتلال العسكري «المؤقت» كما في دول أوروبا الغربية الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي وكوريا الشمالية.

هذا ولم يحقق الشيوعيون نجاحاً دائماً ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى استخدام قوة المخابرات سواء مخابراتهم الخاصة أو المخابرات في الدول الصديقة والحليفة بما في ذلك الحكومات الصديقة التي تتعرض لهجمات شيوعية. وقد استولى عملاؤهم على السلطة في ايران في عام ١٩٥٣ وفي جواتيمالا في عام ١٩٥٤ ثم تمت الإطاحة بهما.

كما حاولوا إشاعة الفوضى في الفلبين والملايا عن طريق خطط حرب العصابات ولكنهم هزموا، ثم انهم أغرقوا مصر وسوريا والعراق واندونيسيا بصفقات الأسلحة على أمل ضم هذه الدول للكتلة الشيوعية إلا انهم لم يحصلوا حتى الآن إلا على عائد ضئيل لاستثماراتهم بيد أنه يمكنهم أن ينظروا بالرضى إلى ما حققوه بصفة عامة من خلال عمليات التخريب على مدى عقدين منذ أن تأكد انتصار الحلفاء على هتلر ودعاة

الحرب في اليابان في عام ١٩٤٤. ومن الحكمة أن نتذكر أن البرنامج الشيوعي بدأ بالفعل في الوقت الذي كانت فيه محادثات السلام تجري معهم في يالتا وبوتسدام. وفي ذلك الوقت لم يكونوا يفكرون في السلام ولكن في كيفية استخدام النصر المشترك ومناطق الاحتلال العسكري الخاصة بهم في تحقيق مزيد من الانتصارات الشيوعية.

وقد أصبح تقدمهم بطيئاً بشكل ملحوظ في السنوات الخمس عشرة الماضية إلا أنه لم يتوقف بأي حال من الأحوال. واعتباراً من عام ١٩٤٧ بدأت سلسلة عقبات تعترضهم حيث وقفت الولايات المتحدة بثبات أمامهم في اليونان وبرلين وكوريا، وفي وقت لاحق جابهتهم في جبهة أعرض وصلت إلى الجزر الصينية وفيتنام وبفضل خطة مارشال ومساعدات أخرى حققت اليابان وأوروبا اصلاحات اقتصادية رائعة في الوقت الذي تزايدت فيه حدة الانقسام بين خروتشوف وماوتسي تونغ حول السياسات التي يجب إتباعها إلا أنهما ما زالا متفقين على الهدف الأساسي الرامي للقضاء على العالم الحر.

وفي عام ١٩٦١ أعاد خروتشوف السياسة السوفييتية الخاصة بالعدوان السري بدلاً من الحرب النووية «الساخنة» التي تعرضت لعملية إعادة تقييم في الكرملين بعد وفاة ستالين والثورة المجرية. وقد أعادها خروتشوف تحت عنوان رئيسي هو «حروب التحرير». وفي الكلمة التي ألقاها خروتشوف في السادس من يناير من نفس العام حدد السلطة الشيوعية والخطط السوفييتية. وفيما يلي فقرات ومقتطفات من الحديث الذي يجب أن يقرأه ويتأمله الجميع:

«ان عهدنا عهد انتصار الماركسية ـ اللينينية».

«ان الاشتراكية تعمل اليوم من أجل التاريخ حيث ان المحتوى الأساسي لمسار التاريخ المعاصر يمثل إقامة ودعم الاشتراكية على نطاق عالمي».

«لن يمر وقت طويل حتى تحتل الماركسية واللينينية عقول أغلبية سكان العالم حيث ان ما جرى في العالم في الأعوام الثلاثة والأربعين الماضية منذ انتصار ثورة أكتوبر يؤكد الدقة العلمية وحيوية نظرية لينين حول الثورة الاشتراكية العالمية».

«ان النظام الامبريالي الاستعماري على حافة التحلل والانهيار كما أن الامبريالية تشهد حالة انحسار وتتعرض لأزمات».

وقد وصف خروتشوف كوبا بأنها مثال نموذجي للانتفاضة ضد الامبريالية الأمريكية، وأضاف قائلاً:

«هل يمكن أن تنشب مثل هذه الحروب في المستقبل؟ نعم هل يمكن أن يكون

هناك مثل هذه الانتفاضات؟ نعم؛ إلا أن هذه الحروب انتفاضات قومية. وبمعنى آخر هل يمكن خلق الظروف التي يفقد في ظلها الشعب مجده ويرفع السلاح؟ نعم، ما هو موقف الماركسنيين تجاه هذه الانتفاضات؟ ـ موقف إيجابي إلى أقصى حد. وهذه الانتفاضات يجب الا تقارن بالحروب بين الدول أو بالحروب المحلية حيث ان الشعوب في إطار هذه الانتفاضات تحارب من أجل إحراز حقها في تقرير المصير من أجل تنمية قومية ووطنية مستقلة. هذه الانتفاضات تكون ضد الأنظمة الرجعية العفنة وضد المحتلين، إن الشيوعيين يؤيدون كلياً مثل هذه. الحروب وهم يسيرون في الصف الأول مع الشعوب التي تناضل من أجل الحرب.

«الآن توجد أحزاب شيوعية عاملة في خمسين دولة في هذه القارات، آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، وقد وسّع ذلك من دائرة نفوذ الحركة الشيوعية على أن نعطيها شخصية عالمية حقة».

واختتم خـروتشوف كلمته قائلاً:

«أيها الرفاق، أننا نعيش في زمن رائع لقد أصبحت الشيوعية قوة لا تقهر في هذا القرن».

كانت هذه إذن هي العقيدة والمذهب للخطة الشيوعية للسيطرة على العالم عن طريق التخريب على نطاق عالمي. لقد ادرك هذا البلد الذي نواجهه تلك الخطط الشيوعية التي وصفها خروتشوف بوضوح في عام ١٩٦١.

لقد كان ذلك جزءاً من البرنامج الشيوعي منذ عهد لينين ومع خروتشوف أصبح السلام الرئيسي في الميدان الخارجي. وفي عام ١٩٤٧ أعلن الرئيس ترومان البيان الذي حمل اسمه وطبقه بصفة خاصة على التخريب الذي كان يهدد آنذاك اليونان وتركيا، ويذكر البيان الساري المفعول أن السياسة الأمريكية تقضي بإعطاء المساعدة لأي دولة تشعر بأنّ «مؤسساتها الحرة ووحدتها الوطنية» يتهددها خطر التخريب الشيوعي وترغب في الحصول على مساعدة. وبعد عشر سنوات أعيد التأكيد على هذه السياسة بلغة أكثر تحديداً بالنسبة لدول الشرق الأوسط وذلك فيما عرف باسم «بيان ايزنهاور».

إلا أن هذه البيانات تضمنت شرطاً عاماً وهو اتخاذ الاجراء إذا ما سعت الدولة المهددة للحصول عليها. كان ذلك الحال في اليونان عام ١٩٤٧ ولبنان بعد عشر سنوات، ففي كلتا الحالتين طلبت حكومة صديقة مساعدتنا. إلا أن بياني ترومان وايزنهاور لم يشملا. ويحتمل الا تكون أي سياسة رسمية معلنة قادرة على تغطية جميع تعقيدات المواقف حين تواجه دولة مـا خطر انقلاب شيوعي وشيك ولا تطلب

المساعدة. وفي بعض الحالات كما حدث في تشيكوسلوفاكيا كانت الضربة مفاجئة لذا لم يتح الوقت للديمقراطيين التشيكيين ليوجهوا إلينا الدعوة لمساعدتهم في مواجهة هذه الضربة لقد كنا نعلم أن الخطر كامن هناك وأن اكثر من ثلث البرلمان التشيكي، فضلاً عن عدد من أعضاء الوزارة، ذوي خلفية شيوعية. وأن النظام تعرض لتسيب رهيب وأن حكومة براغ الحرة في ذلك الوقت كانت لديها ثقة زائدة في قدرتها على المقاومة،وقد استولى الشيوعيون على السلطة في يوم واحد دون أن يطلقوا طلقة رصاص واحدة.

لقد تولى مصدق في إيران وارينز في جواتيمالا السلطة من خلال المسار العادي للحكومة دون وقوع انقلاب شيوعي كما حدث في تشيكوسلوفاكيا إلا أن أياً من الرجلين لم يكشف في ذلك الوقت عن عزمه إقامة دولة شيوعية. وعندما اتضح هذا الهدف بدأت المساعدات الخارجية تتجه إلى العناصر المضادة للعنصرية في البلدين. في الدولة الأولى كانوا أتباع الشاه وفي الثانية كانوا مجموعة من المواطنين الوطنيين في جواتيمالا. وفي كلتا الحالتين تمت مواجهة الخطر بنجاح وفي هذه الحالة أيضاً لم نتلق دعوة من الحكومة التي تتولى السلطة لمنحها مساعدة خارجية.

وخلال انقلاب كاسترو في كوبا لم يطلب منا الحكم أيضاً مساعدته في إبقاء الشيوعيين بعيداً لأنه قام بمهمة إدخالهم بنفسه ومثل هذه الأزمات تشير إلى الخطر المحتمل في التخلل أو التسرب البطيء للشيوعيين أو أتباعهم في الحكومة حيث ان آخر شيء يريده هؤلاء هو وجود أي تدخل خارجي لمراقبة المد الشيوعي.

ماذا بوسعنا أن نفعل لوقف أساليب التسلل السرية مثل تلك التي استخدمت في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٤٨، وفي كوبا في السنوات الأخيرة تحت عباءة كاسترو؟.

ان المتخصصين الذين يدرسون القضية بعد فترة زمنية يرون أنه كان علينا أن ندرك ذلك منذ عدة سنوات، حيث ان كاسترو جاهر في إحدى خطبه المفككة غير المتماسكة بالأفكار الماركسية الأولى وأنه كان يتعين أن نقوم بعمل آنذاك ولكنهم لم يحددوا تماماً ما نوع هذا العمل باستثناء الذين يؤيدون تدخلاً عسكرياً علنياً. إلا أن الآلاف من مواطني كوبا، من بين القادة السياسيين ورجال الأعمال والعسكريين الذين سعوا من أجل أن يتولى كاسترو السلطة كما أنهم كانوا على استعداد للمخاطرة بحياتهم ومستقبلهم من أجل ذلك، لم يشكوا ولو للحظة واحدة أنهم يقيمون نظاماً شيوعياً. واليوم يتواجدون اما في المنفى أو السجن.

قبل محاولة دراسة هذه القضية اقترح استعراض القوة الأساسية التي

نستعين بها في مثل هذه المهام التخريبية. وفي محاولة لتبسيط هذا الموضوع المعقد سأوجه جهودي إلى النظام في الاتحاد السوفييتي. ومن الصحيح أن الصين الشيوعية لديها مثل هذه الأهداف العدوانية إلا أنها في السنوات التي تلت تدعيم مواقعها في الأراضي الرئيسية للصين لم يكن لديها من الموارد أو الوقت ما يتيح لها تطوير أسلوب تخريب يضاهي الأسلوب الخاص بالاتحاد السوفييتي اليوم. ويعد هذا أحد الأسباب التي تدفعهم للتأكيد على العمل العسكري المباشر كما اتضح في حالات مثل كوريا وتايوان والهند والتيبت. وقد يكون هذا هو أحد أسباب الخلاف في السياسات بينهم وبين الاتحاد السوفييتي. فالشيوعيون الصينيون بداخلهم شعور أنهم لا يمكنهم الاعتماد على الأساليب الأكثر براعة التي يلجأ إليها الاتحاد السوفييتي ويفضلون الاستفادة منها بمساندة تدخل عسكري مباشر، ويرى خروتشوف أنها سياسة خطيرة للغاية على الرغم من عدم معارضته لاستخدام «الابتزاز النووي» كتهديد يرهب به الدول. وبهذا الأسلوب تؤثر القوة العسكرية السوفييتية على العوامل النفسية للموقف وبصفة خاصة في إطار محاولتها لتليين مواقف الحكومات الواقعة في مدى صواريخها وقواتها الجوية. ان العناصر الأولى لجهاز التخريب غير العسكري للكرملين تتمثل في مجموعة الأحزاب الشيوعية في جميع أنحاء العالم. وفيما يلي مقطع من تباهي خروتشوف بها خلال خطاب له في أبريل عام ١٩٦٣.

«لقد أصبحت الحركة الشيوعية الدولية أكبر قوة سياسية مؤثرة في عصرنا. فقبل الحرب العالمية الثانية كانت هناك أحزاب شيوعية في ٤٣ دولة وتضم في صفوفها أربعة ملايين وألفي شخص، أما اليوم فقد وصل عدد هذه الأحزاب إلى تسعين وأعضاؤها يزيد عددهم على ٤٢ مليون عضو».

وأغلب هذه الأحزاب التسعون موجودة خارج الكتلة الشيوعية ولكنها تستجيب لنظام الحزب الرئيسي في موسكو وهم يرجعون إلى الحزب الشيوعي الصيني في عدد محدود من الحالات إلا أنه عدد متزايد. والرقم الاجمالي الذي ذكره خروتشوف يضم عدد الأعضاء الفعليين في الحزب وليس الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين يصوّتون لصالح الحزب الشيوعي إذا ما جرت عملية تصويت.

ومن أقوى الأحزاب الشيوعية خارج الكتلة الشيوعية من الناحية العددية أحزاب فرنسا وايطاليا والهند وأندونيسيا إلا أن القوة العددية ليست دائماً مقياساً حقيقياً. وبالنسبة لأهداف التخريب فإن عنصر القاعدة الصلبة الفعالة من الأعضاء المخلصين والمنظمين قد يكون أكثر أهمية من العضوية الفعلية في الحزب.

وأينما يكون هناك حزب شيوعي منظم وهذا يصدق تقريباً على جميع الدول

الهامة في العالم والكثير من الدول الأقل أهمية توجد بصفة عامة نواة من الشيوعيين المخلصين الذين يمكن أن يصبحوا قوة فعالة لبدء الأعمال التخريبية.

ولسوء الحظ فإن الأحزاب الشيوعية المحلية في الكثير من الدول أصبحت تشكل حزباً رئيسياً يعارض النظام الذي يتولى السلطة. ومن ثم يجتذبون إلى صفوفهم عدداً كبيراً من المؤيدين من غير الشيوعيين على الإطلاق أو من الذين يعرفون أو يهتمون قليلاً بالماركسية وجميع نظرياتها ولا يكونون بالضرورة أعضاء في الحزب أو بمثابة رفاق كفاح في قضايا مثل القومية والإصلاح المناهض للاستعمار «وخطر القتال» وفي وقت الانتخابات يجمع جهاز النظام الشيوعي جميع هؤلاء وعدداً كبيراً آخر يسعى إلى التغيير فحسب ويعتقدون بكل بساطة أن الحزب الشيوعي يمثل أحياناً السبيل الوحيد لإحداث تغيير.

وغالباً ما يحضر ممثلو الأحزاب الشيوعية في العالم الحر مؤتمرات الحزب الشيوعي في موسكو بشكل دوري. وقد عقد المؤتمر الثاني والعشرون لهذا الحزب في عام ١٩٦١. ويتم استقبالهم هنا بوصفهم من كبار ضيوف المؤتمر ويحصلون على تقارير خاصة. وقد شهد المؤتمر الحادي والعشرون الذي عقد في عام ١٩٥٩ اهتماماً خاصاً بالوفود الشيوعية الممثلة لدول أمريكا اللاتينية، وفي هذا الوقت بالذات طلب منهم التقليل من شأن الماركسية والشيوعية وعلاقاتهم من موسكو ودعم صفوفهم بالدعوة «للوعي القومي» مع استخدام الشعارات المناهضة للولايات المتحدة وذلك من أجل تضليل بقية العالم، والولايات المتحدة بصفة خاصة، وهذا كله لم يضيّعه كاسترو.

وكان الكرملين على استعداد دائم وفي إطار قيود محدودة للسماح للأحزاب الشيوعية المحلية باتخاذ مواقف تختلف عن خط موسكو الرسمي وفي بعض الأحيان كان ذلك يتم من خلال تنسيق مسبق مع موسكو ومن ناحية أخرى كان يتعين على الكرملين أن يواجه الميل إلى الاستقلال لدى الأحزاب الشيوعية الأخرى.

وفي السنوات الأخيرة مع اتساع حدة الخلاف الصيني ـ السوفييتي ازدادت صعوبة إمكانية سيطرة الكرملين على مواقف جميع الأحزاب الأخرى التي كانت خاضعة له من قبل.

أن المهام التي تكلف بها موسكو الأحزاب الشيوعية في العالم الحر والعناصر الأخرى الداخلة ضمن الجهاز الشيوعي توضع وفقاً للإمكانيات التي تقدرها موسكو لحزب أو «جبهة» معينة و «درجة تسهيل» الدولة التي يعمل بها الحزب أو الجبهة

وكذلك وفقاً للبرنامج العام للكرملين أي إصدار الأمر بالتقدم حتى يسيطروا في النهاية على السلطة كما تقرر موسكو.

فعلى سبيل المثال في حالة الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة حيث يراودهم أمل ضعيف في تحويل البلاد إلى الشيوعية في المستقبل القريب، فإن الأهداف الموضوعة للحزب متواضعة نسبياً حيث يطلب منهم تكثيف الدعاية المضادة للتسلح بصفة عامة والتجارب النووية بصفة خاصة،وكذلك الدعاية المناهضة للسياسة الامريكية في أمريكا اللاتينية وضد حلف شمال الأطلنطي «Nato» والتحالفات الأخرى والقواعد الخارجية. وفي انجلترا يوجد وضع مماثل حيث ان موضوع تجمعاتهم المفضل هو «حظر القنابل».

وتستخدم هذه المناشدات الهادئة لإخفاء نوايا السوفييت الحقيقية ولإضعاف دفاعات العالم الغربي. ففي ربيع عام ١٩٦٣ حققت حركة «حظر القنابل» مستوى غير عادي من النمو التدريجي من خلال الدعاية التي حققتها نتيجة لإعلانها عن موقع مراكز حكومية معينة أعدت لاستخدامها في حالة حدوث هجوم نووي.

وترتفع آفاق هذه الأهداف والمهام في الدول التي يوجد بها احتمالات أكبر وسلطة أكثر لنشر الشيوعية. فقد حصل الحزب الشيوعي وحلفاؤه في فرنسا وايطاليا على أصوات تمثل ما يتراوح ما بين عشرين وثلاثين في المائة من عدد الناخبين مما أفزع الكثير ممن يعتقدون أن الاصلاح الاقتصادي وحده سيقضي أو على الأقل سيضعف الشيوعية. هذا وقد حصل الشيوعيون على مليون صوت في الانتخابات العامة في ايطاليا في عام ١٩٦٣. وتتخذ الأحزاب الشيوعية هنا وفي أندونيسيا واليابان وعدة دول أخرى في هذا العالم وكذلك في آسيا مواقف أكثر عدوانية. وحتى الآن فإن جهود موسكو في أفريقيا سواء شمال أو جنوب الصحراء وسواء كانت جهوداً مباشرة أو من خلال أحزاب شيوعية محلية تواجه سوء فهم تحسن موسكو إخفاءه.

وهناك سلسلة من المنظمات الشيوعية تكمل عمل الأحزاب المحلية كما أنها تستخدم كادرات للوصول إلى أهداف محددة. فعلى سبيل المثال فإن الشيوعيين يسيطرون من خلال الاتحاد العالمي لنقابات العمال وفروعه العديدة على أقوى المنظمات العمالية في كثير من دول العالم ـ فرنسا وايطاليا وأندونيسيا بصفة خاصة ـ كما يمكنهم التأثير بشكل كبير على خفايا اليابان ودول كثيرة في العالم الحر ودول معينة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا حيث ما زالت قضايا العمال في مرحلة «الطفولة». ويستفيد الحزب بشكل خاص من قدرته على «التطفل على القضايا المحلية العامة واستغلال ذلك في اطار العلاقات العمالية وحتى في بعض الحالات التي

لا يسيطرون فيها بالفعل على الاتحاد فإن الأقليات الشيوعية المنظمة والنشطة في الاتحاد قد تمثل قيادة معبرة مشاغبة في المظاهرات الحاشدة لإجبار الأغلبية المترددة على الاشتراك في الاضراب عن العمل والذي لا يمكن ارجاع أسبابه بشكل علني إلى أي مبادرة شيوعية ومثل هذه الأنشطة قد تشل اقتصاد بلد بأسره في الأوقات الحرجة.

كما تشمل المنظمات الشيوعية مؤتمر السلام العالمي ومنظمات الشباب المختلفة ومنظمات المرأة والمنظمات الخاصة بمهن محددة. ويحاولون إحاطة هذه المنظمات بإطار من الاحترام ويقومون بإغراء أشخاص لا يتطرق إليهم الشك والزج بمن يسهل خداعهم للانضمام لعضوية هذه المنظمات وبصفة خاصة في قضايا «السلام» و «حظر القنابل».

وقد عقد الشيوعيون في فترات زمنية مختلفة مؤتمرات للشباب كلفتهم كثيراً وقد تمت دعوة شباب العالم لهذه المؤتمرات إلا أنها تكلفت فقط مصاريف الشباب الشيوعي. وقد عقدت هذه المؤتمرات في البداية في مناطق خلف الستار الحديدي مثل برلين الشرقية وموسكو وبراغ. إلا أن المديرين السوفييت لمثل هذه الأنشطة أصبحوا أكثر جراة حيث تم عقد الاجتماعين الأخيرين خارج الكتلة، الأول في فيينا ثم هلسنكي، بيد أنهم اكتشفوا أن مناخ الرأي العام غير مناسب في هذه العواصم حتى أنهم يعيدون النظر الآن في تكرار التجربة. ويمكن لموسكو أن ترشد وتؤثر على جميع هذه القوى المتنوعة للوجود الشيوعي في دولة ما من خلال جهاز أمن الدولة (.K.G.B أي المخابرات) والأشخاص العاملين في السفارات السوفييتية والبعثات التجارية. والمخابرات فضلاً عن دورها التقليدي يمكنها أن توجه أنشطة «جهاز» عمل في الدولة «س» لتنفيذ برنامج تخزيني كما يمكن أن يقوموا بدور «العراف» لموسكو وذلك في العمليات التي يقوم بها الحزب أو المجلس أو الجبهات كما أنه يطلع موسكو على سير العمل.

ولقد كان قبليريان زورين الذي تولى فيما بعد منصب سفير الاتحاد السوفييتي لدى الأمم المتحدة العقل المدبر للانقلاب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٤٨ وذلك من داخل السفارة السوفييتية في براغ. كما أن الواضح أن السفارة السوفييتية في هافانا كانت المركز الذي تم من خلاله توجيه المراحل الأولى للتسرب الشيوعي لحركة كاسترو. وكلما سنحت الفرصة يقوم المخططون السوفييت ببراعة بضم الشيوعيين أو المتعاطفين معهم إلى مواقع رئيسية في الحكومة ويحاولون تدمير الهيكل العسكري والأمني للدولة المستهدفة بهدف الاستيلاء عليها في النهاية. وكانت الفرق السوفييتية في لجان المراقبة المتحالفة التي شكلت في أغلب دول أوروبا

الشرقية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط الألمان، تضم إلى حد كبير رجال مخابرات. وفي الوقت الذي كان يحاول فيه المندوبون الأمريكيون والبريطانيون المتخصصون في مجال الحكومات العسكرية والشؤون المدنية إيجاد نوع من النظام والحرية وإصلاح المنافع العامة والاقتصاد للدول التي تعرضت للدمار مثل رومانيا، كان زملاؤهم السوفييت في لجان المراقبة يقضون وقتهم في الاتصال بالشيوعيين من أهل البلاد والذين يمكن الاعتماد عليهم، أو يعدون المؤامرات التي تظهر بعد وقت قصير «كجبهة موحدة» يسيطر عليها الشيوعيون ويصفون القاعدة كبوليس سياسي كفء تحت وصاية المخابرات السوفيتية.

ومدى النشاط الذي يتم به تطبيق هذه الخطط يعتمد بصفة عامة على الظروف في الدولة المستهدفة ونطاق القلاقل المحلية والعداء المحلي تجاه النظام الذي يتولى السلطة. وقد راهن الاتحاد السوفييتي أو الصين الشيوعية على استغلال نقاط الضعف الخفية وشعور القيادة السياسية المحلية وفي النهاية على قوة الجهاز الشيوعي في هذا البلد. وتسعى الحركة الشيوعية التي تعمل في الدول التي حصلت مؤخراً على حريتها من الاستعمار لكي تمثل دور من يقوم لحماية الشعوب المحررة من مستعمريها السابقين ولدعم هذه الأنشطة تتم دعوة الشباب الواعدين من السيدات والرجال إلى موسكو وتعليمهم على أمل أن يصبحوا قادة شيوعيين في أوطانهم في المستقبل. كما أنهم يأتون بأفراد من مختلف النوعيات إلى الكتلة الشيوعية لتدريبهم على أعمال المخابرات والتخريب وهؤلاء يساعدون في توجيه جهاز الحزب الشيوعي في البلاد. وفي إطار هذا الجهاز تستخدم موسكو بنشاط جميع وسائل نظامها الدعائي وهذا يتم عن طريق وزارة الثقافة السوفييتية.

أن السوفييت خلال عام واحد طبعوا ووزعوا نحو ثلاثة ملايين نسخة من الكتب بمختلف اللغات الأجنبية. وهذه الكتب الأدبية توزع على نطاق واسع بثمن زهيد من خلال المكتبات المحلية كما أنها متوافرة في حجرات الاطلاع وفي مراكز الأعلام وما يسمى بالمراكز الثقافية. ويسيطر السوفييت في كثير من دول العالم على الصحف كما أنهم دخلوا إلى عدد كبير من المنافذ الصحفية من مختلف الأنواع والتي لا تظهر علينا ذات طابع شيوعي كما يقومون بدعم هذه المنافذ مالياً.

كما يقدم السوفييت الذين يملكون بعض أقوى محطات البث في العالم رسائلهم إلى كل المناطق الرئيسية في العالم وهم يكثفون من دعايتهم للمناطق المستخدمة بصفة خاصة والتي يعتبرونها أكثر عرضة للهجوم ويعدلون هذه الدعاية لمقتضيات السياسة. وتحاول منظمة يطلق عليها «اتحاد كل المجتمعات للعلاقات الثقافية الخارجية» والتي شكلت كمنظمة مستقلة إلا أنها تخضع لسيطرة صارمة من جانب

الحزب الشيوعي السوفييتي، إقامة علاقات ثقافية مع الدول الأجنبية حيث تقدم أفلاماً سوفييتية وتنظم برامج للفنانين السوفييت كما أن وكالة الأنباء الأجنبية السوفييتية المعروفة باسم «تاس» والتي تسيطر عليها الدولة لها مكاتب في أكثر من ثلاثين مدينة كبرى في العالم الحر وهي تعدل من «أخبارها» لتحقيق الأهداف السوفييتية في الدولة المتلقية وكل هذه الأدوات تمثل جزءاً أساسياً من «الدعاية».

وهذه المنظمات والقوى عندما تعمل معاً تمثل«أوركسترا التخريب السوفييتي»، وكثير من هذه الأدوات وفي بعض الحالات جميعها يستخدم تحت رقابة وثيقة من جانب موسكو ليضغطوا على الدولة التي يسعون لتخريبها أو كخلفية للاعداد لعملية تخريب في المستقبل، وتظل هذه الفرقة تعزف حتى بالنسبة لدول مثل الولايات المتحدة. هذا هو جهاز التخريب الذي نواجهه اليوم في الحرب الباردة التي فرضها الشيوعيون علينا، وهو يحتاج من جانبنا لمواجهة هذا الخطر بحشد قواتنا واستخدامها بقوة في المناطق الأكثر تعرضاً للخطر، وفي الوقت المناسب أي عند وقوع الانقلاب وإقامة نظام شيوعي جديد ثابت.

وقد أوضح التاريخ أنه إذا ما أحكم جهاز الأمن الشيوعي والعناصر الأخرى قبضتهم على دولة ما فإنها لن تشهد انتخابات بعد ذلك ولن يكون لشعبها حق الاحتجاج. إن القوى التي تستخدمها لمواجهة هذا الخطر تشمل أولاً وقبل كل شيء سياستنا الخارجية المعلنة والتي تتحمل مسؤوليتها وزارة الخارجية الخاضعة للرئيس. ثانياً من خلال حالتنا الدفاعية يمكن أن نقنع العالم الحر أننا وحلفاءنا أقوياء بما فيه الكفاية كما أننا على استعداد كاف لمواجهة التحدي العسكري السوفييتي وأنه يمكننا حماية الدول الحرة في العالم، ونحن على استعداد لذلك وذلك باستخدام القوة إذا ما لزم الأمر وفي الوقت نفسه مساعدة هذه الدول على دعم أمنها لمواجهة أي تخريب. وإذا ما شعرت الدول الحرة أننا ضعفاء من الناحية العسكرية وأننا لسنا على استعداد للعمل، فمن غير المحتمل أن تقف بثبات ضد الشيوعية.

أما العامل الثالث فهو ما يتعين على جهاز المخابرات المساعدة في تقديمه:

١ ـ يجب أن يتوفر لحكومتنا في الوقت المناسب معلومات عن الأهداف الشيوعية أي الدول التي تمثل قمة القائمة الشيوعية للهجمات التخريبية المقررة.

٢ ـ يجب أن تتخلل المخابرات العناصر الهامة في الجهاز التخريبي عندما يبدأ في مهاجمة الدولة المستهدفة ويجب أن يقدم لحكومتنا تحليل للأساليب المستخدمة فضلاً عن معلومات حول الأشخاص الذين تمّ دسهم في الحكومات المحلية.

٣ ـ يجب أن نساعد كلما أمكن في دعم الدفاعات المحلية ضد عمليات التخلل عن

طريق إبقاء الدول المستهدفة على وعي بطبيعة ومدى الخطر ومساعدة جهاز الأمن الداخلي على أفضل نحو ممكن ولكن بشكل سري.

ولا يتوفر لكثير من الدول الأكثر عرضة للخطر جهاز أمني أو شرطة داخلية قادرة على القيام بمهمة التحذير من خطر التخريب الشيوعي في الوقت المناسب. وغالباً ما تحتاج هذه الدول لمساعدة ولا يمكنها أن تحصل عليها، إلا أن الولايات المتحدة تمتلك الموارد والأساليب اللازمة لمساعدتها. ويوجد العديد من الأنظمة في البلاد التي يتعرض أمنها للخطر وقد استفادت كثيراً من هذه المساعدة على مدى الأعوام الماضية. ومن ناحية أخرى وفي كثير من الحالات وبصفة خاصة في أمريكا الجنوبية يسقط دكتاتور على جهاز الأمن الداخلي الذي تم تدريبه في وقت سابق على مواجهة الشيوعية ويحوّله إلى نوع من الجستابو لتعقب معارضيه السياسيين في الداخل.ولقد حدث ذلك في كوبا في ظل حكم باتيستا.

وغالباً ما يحدث أن يراود الدول التي يتهددها الخطر الشعور بأنه يمكنها التغلب على الخطر وحدها وفي بعض الأحيان لا تعي حجم الخطر إلا متأخراً وأحياناً تقع سريعاً تحت السيطرة الفعالة لهؤلاء الذين يعدون لانقلاب شيوعي. وفي مثل هذه الأوضاع لن تكون هناك استجابة سهلة ما لم تصدر صيحة استغاثة في الوقت الذي يسحق فيه الجهاز الشيوعي الحرية ببطء. ويستخدم الجهاز غالباً العملية الديمقراطية أي صندوق الاقتراع والنظام البرلماني للتسرب إلى داخل الدولة من خلال ما يسمى بحكومات «الجبهة الشعبية» ثم يسقط القناع ويتم القضاء على الأعضاء غير الشيوعيين المشاركين في الائتلاف وتصبح الدكتاتورية الشيوعية مسيطرة على الدولة ويتولى البوليس السري السلطة وهنا يكون الوقت قد تأخر كثيراً بالطبع لاتخاذ أي عمل وقائي، وتعد تشيكوسلوفاكيا مثالاً لذلك.

وكلما أمكن يتعين علينا أن نظهر الاستعداد للمقاومة والثقة في القدرة على المقاومة إلا أنه تتوفر لدينا الآن خبرة طويلة لسنوات كثيرة في مكافحة الشيوعية. ونحن نعرف الأساليب الشيوعية كما نعرف الكثيرين من المحركين الفعليين الذين يقومون بمحاولات انقلابية. وكلما أتيحت لنا فرصة المساعدة فنحن نساعد على تعزيز قدرات الدول التي يتهددها الخطر على أن يكون ذلك قبل وقت طويل من دفع التخلل الشيوعي البلاد إلى نقطة اللاعودة. ولحسن حظ الدول الحرة فإن طبيعة الأنشطة التخريبية التي تتورط فيها الأحزاب الشيوعية المختلفة والعدد الكبير من الأشخاص غير المدربين الذين يشاركون فيها، تجعل من الصعب الحفاظ على درجة سرية وأمن ملائمين. ونحن لا نكشف عن أية أسرار بإعلاننا أنه قد تم النفاذ إلى عدد كبير من الأحزاب الشيوعية والمنظمات الظاهرية في جميع أنحاء العالم وغالباً ما يتم

التعرف على خططهم وشخصياتهم كما تم بالفعل نشر معلومات هامة حول نجاح الـ (FBI مكتب التحقيقات الفيدرالي) النفاذ إلى صفوف الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة وملحقاته المختلفة وتحييد هذا الحزب وملحقاته.

من الواضح أن الكشف عن الأنشطة الشيوعية في أجزاء أخرى من العالم الشيوعي أمر أكثر صعوبة. ولكن غالباً ما نجحنا في تحقيق نتائج هائلة حالت دون وصول الشيوعيين إلى أهدافهم. وقد تم اكتشاف وإحباط العديد من المؤامرات الشيوعية لتخريب حكومات صديقة، وقد ثبتت فعالية عمليات النشر المحلية في المراحل المبكرة «لمحاولة انقلابية» مقررة، مع ابراز مديري المحاولة وربطهم بموسكو أو بكين. وقد كان ذلك الأسلوب ناجحاً بصفة خاصة في التعامل مع منظمات «الشباب» و«السلام» الشيوعية الزائفة ومؤتمراتها واجتماعاتها التي تغطى بقدر كبير من الدعاية وهنا تمثل الصحافة الحرة قوة كبرى.

جهاز التخريب الشيوعي الهائل هذا معرض لافتضـاح أمره ومهاجمته بقوة وبالاضافة إلى ذلك فإن الشيوعيين ليسوا في موقف يسمح لهم بتنفيذ برنامج الانقلابات الخاص بهم في وقت واحد في جميع أنحاء العالم. لذا يتعين عليهم اختيار المناطق المبشرة أكثر بالنسبة لهم.

وفي الوقت نفسه يمكننا أن نفعل الكثير وقد تم عمل الكثير بالفعل للكشف عن الدول الأضعف ووضعها بعيداً عن القبضة الشيوعية وبالطبع يجب أن لا يقتصر عملنا على الحفاظ على موقف دفاعي والاستجابة فقط للعدوان الشيوعي. لقد كانت هناك مواقف كانت لنا فيها المبادرة، حيث رددنا الشيوعيين على أعقابهم ويجب أن يكون هناك المزيد. وقد فشلت العديد من هذه الخطط الحسنة الاعداد للنفاذ إلى الدولة الحرة وذلك بالاضافة للمشاكل التي يعاني منها الشيوعيون في الداخل وبين بعضهم البعض.

ويبـدو أن الشيوعيين يعيدون تجميع صفوفهم ويفكرون مرة أخرى في احتمالاتهم وذلك بعد فشلهم عدة مرات في أفريقيا الوسطى كما أن استثماراتهم الباهظة في الشرق الأوسط وشمال افريقيا كانت تدعو لخيبة الأمل كما أوضحت من قبل وفي بعض المناطق أدى افتقار ممثليهم وعملائهم ومنظماتهم وأحزابهم إلى الخبرة والكفاءة إلى وقوع كارثة ويذكر التاريخ اندحارهم المخزي من الكونغو بالاضافة إلى تقهقرهم في وقت سابق من البانيا.

بالاضافة إلى ذلك فإن الأحزاب الشيوعية المحلية غالباً ما تتنازعها القضايا المحلية والقومية والسياسات الشيوعية الشاملة وسيكون من الصعب عليها التحول

بمثل هذه السرعة التي تريدها موسكو. وهم ينحنون في يوم من الأيام لستالين ثم يأتي خروتشوف ليقول لهم أن ستالين دكتاتور، يداه ملوثتان بالدم. إذن فإن رسل الثورة الشيوعية وهم يبشرون بالنوايا السلمية لموسكو يتعين عليهم فيما بعد شرح سحق موسكو الوحشي للوطنيين في المجر. وفي عام ١٩٣٩ تبددت دعوتهم القوية بوصفهم من القوى المناهضة للنازية بشكل مفاجيء بعد أن تحالفت موسكو مع هتلر لتهديد بولندا التي وصفها مولوتوف بأنها تماثل «معاهدة فرساي».

وطالما أن خروتشوف وحلفاءه قد استخدموا القوى التخريبية «حروب تحرير» التي تعني بالنسبة لهم خطوات علنية أو سرية محسوبة تهدف إلى إسقاط نظام غير شيوعي فإنه يتعين على العالم الغربي مواجهة هذا الخطر. وعندما تأخذ هذه الخطط الشكل العلني أو الساخن أو شكل حرب العصابات فإن الغرب من جانبه يمكنه أن يقدم المساعدة بصورة علنية أيضاً بشكل أو بآخر.

إلا أنه يتعين على أجهزة المخابرات الغربية أن تقوم بدورها مبكراً في اطار هذا النضال بينما تكون الأعمال التخريبية التي يتم اعدادها ما زالت في مرحلة الإعداد أو التنظيم ويجب أن تكون لدينا معلومات حول المؤامرة والمتآمرين وسبل فنية جاهزة سواء كانت علنية أو خفية لمواجهة هذه المؤامـرة حتى تتمكن المخابرات من ممارسة عملها.

وبالطبع يجب أن يتم التنسيق بين جميع الأعمال التي تتخذها المخابرات في هذه الدولة كما أن أي عمل تقوم به أجهزة المخابرات يجب أن يتم في إطار أهدافنا القومية.

إن تلك الدول والدول الحليفة، عليها أن تختار إما أن تقوم بتنظيم الصفوف لمواجهة برنامج التخريب الشيوعي ومعارضته بقوة في الوقت الذي يتسلل فيه في الحكومة والمنظمات الحرة للدولة غير القادرة على مواجهة الخطر وحدها، وإما التنحي جانباً دون أن تطرح مقولة أن التعامل من الخطر من الشؤون الخاصة بالدولة التي تتعرض له. ولا يمكننا أن نضمن النجاح في الحالتين وقد شهدنا الفشل في كوبا وفي فيتنام وفي أماكن أخرى وفي الكثير من الحالات حققنا نجاحات بعضها ذو أهمية كبرى اكثر مما يدركه العامة. ولكن قد يكون من السابق لأوانه الكشف عن هذه القضايا أو الموارد المستخدمة.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان عندما تحقق الشيوعية السيطرة على جهاز حكومي لإحدى الدول كما حدث في إيران وجواتيمالا لفترة من الوقت وكما هو الحال حتى الآن في كوبا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية والمجر وبولندا والدول الشرقية

الأخرى الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي وفي شمال فيتنام وفي كوريا الشمالية ـ هو هل يتعين علينا كدولة أن نتخلى عن مسؤوليتنا إزاء مواصلة الجهود حتى تعود الأوضاع إلى نصابها وإعادة حرية الاختيار لهذه الشعوب؟ هل نخشى أن يوجه إلينا نفس الاتهام الذي وجه لخروتشوف وهو اتباع سياسية «حروب التحرير»؟.

وفي الاجابة على هذين السؤالين أشير إلى أن هذه القضية الهامة بالنسبة لبقائنا فرضت علينا نتيجة للأعمال السوفييتية أن الشيوعيين بتطبيقهم مبدأ القوة لا القانون في السلوك الدولي لم يتركوا لنا أي خيار سوى اللجوء إلى اجراءات مضادة من نوع ما لمواجهة تحركاتهم العدوانية إذا ما تعرضت لمصالحنا الحيوية.

ولا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي ونترك الشيوعيين وخططهم تتمتع بدعاية طيبة من راكوس في المجر الذي يدعوهم للاستيلاء على العالم الحر خطوة تلو الأخرى ولا يمكن أن نسلم بصحة الرأي القائل بأنه متى «حرر» الشيوعيون قطعة من الأرض وفقاً للأسلوب السوفييتي فإن هذا البلد أصبح خارج نطاق أي عمل لتصحيح الوضع. إن اختيار شعب دولة معينة الشكل الشيوعي للحكومة من منطلق إرادته الحرة ومن خلال تصويت شعبي أو استفتاء قد يمثل وضعاً مختلفاً وحتى الآن لم يحدث ذلك فلم تتبع روسيا أو الأراضي الرئيسية الشيوعية هذا الأسلوب وبالتأكيد لم يكن هذا هو الحال أيضاً في بولندا والمجر وكوبا.

ويجب الاعتراف بالطبع أنه في اطار العلاقات الخارجية توجد حدود لقوة أي دولة ويجب أن يحكم أعمال الدولة وعيها بمصالحها الخاصة مع أخذ جميع الحقائق في الاعتبار بأكثر مما تقودها مبادىء مجردة مهما بدت صحيحة فلا يمكن لأي دولة أن تعتبر سياستها القومية ضماناً لحرية جميع شعوب العالم الخاضعة للدكتاتورية الشيوعية أو أي نوع من الدكتاتورية.

كما لا يمكننا أن نطوف العالم مثل سير جالاهاد الذي جال في العالم على ظهر فرسه الأبيض حتى يخلصه من متاعبه.

ومن ناحية أخرى لا يمكننا أن نقصر استجابتنا لاستراتيجية السيطرة الشيوعية على الحالات التي تتم فيها دعوتنا من جانب الحكومة التي ما زالت في السلطة أو حتى في الحالات التي تستنزف منها الحكومة مواردها التي قد تكون ضئيلة في «مكافحة» الشيوعية. بل يتعين علينا أن نحدد متى وكيف وأين سوف نقوم بالعمل؟ على أمل أن يكون ذلك في ظل دعم من دول أخرى حرة رئيسية يمكنها أن تقدم المساعدة وذلك مع الأخذ في الاعتبار متطلبات الأمن القومي.

وعندما نتوصل إلى قرارنا ونحدد سير عملنا في مواجهة العدوان السري للشيوعية فإن خدمات المخابرات وأساليبها الخاصة ستقوم بدور هام قد يكون جديداً بالنسبة لهذا الجيل ولكنه هام للغاية لنجاح الخطة.

الأمن في المجتمع الحر (المفتوح)

تمقت الشعوب الحرة أينما كانت تكتّم وسرية الحكومات. فهي تشعر أن هناك شيئاً خطيراً أو فاسداً أو شريراً عندما تخفي الحكومات أنشطتها. وتعتقد أن هذا قد يكون الحجر الأول نحو إنشاء نوع من الحكم الاستبدادي الفردي أو تغطية لأخطائهم.

ومن ثم فإنه من الصعب إقناع الشعب الحر أنه لأجل الصالح القومي ينبغي الإبقاء على بعض الأمور طي الكتمان حتى لا تتعرض حرية أفراده للخطر بالافراط في الحديث عن اجراءات الأمن القومي والمفاوضات الدبلوماسية الدقيقة. ومع ذلك فإن الحكومة أو الصحافة إذا أخبرت الشعب بشيء فهو يصل أوتوماتيكياً إلى الأعداء، واي شخص يمكنه عن طريق المكر أو الافشاء غير المقصود للأسرار أن يوصل هذه الأسرار إلى السوفييت كما لو أنه قدمها إليهم في سرية تامة. وما هي جدوى أن تصرف الملايين لكي نحمي أنفسنا من التجسس إذا كانت أسرارنا تتسرب هكذا؟ وإنني أعتقد أن الحكومة نفسها هي أسوا المنتهكين لهذه الأسرار.

لقد وضع أجدادنا الأوائل ضمان حرية الصحافة في وثيقة الحقوق التي أصبحت التعديل الأول للدستور «لن يشرع الكونجرس أي قانون ينال من حرية الرأي أو حرية الصحافة» ونتيجة لهذا ولباقي الضمانات الدستورية فإنه على الرغم من وجود القوانين المتعددة لعقوبة التجسس فإننا لا نستطيع تطبيق تلك التشريعات الفيدرالية بالمقارنة في هذا مع دولة ديمقراطية عظمى مثل بريطانيا. العظمى.

فقانون الأسرار الرسمية البريطاني يتضمن عقوبات لأي إفشاء غير مصرح به

لأية معلومات سرية خاصة والاجراءات القانونية البريطانية تسمح بإقامة الدعوى دون نشر علني للمعلومات السرية.

وأعتقد أن طريقنا في التعامل مع ما يحدث لأمننا من انتهاكات يمكن أن تتحسن وأعتزم فيما بعد تقديم بعض الاقتراحات بهذا الصدد. وعلى أية حال فإن أي شخص يعمل داخل أجهزة المخابرات في بلادنا لا بد أن يدرك ضرورة التخطيط بعناية ومهارة إذا أراد النجاح في الاحتفاظ بأنشطته طي الكتمان، وبموجب القانون الحالي لا يمكنه أن يتوقع أية مساعدة من المحاكم في ردع هؤلاء الذين قد يكشفون أنشطته. في الحقيقة ومن واقع خبرتي الشخصية في التخطيط لعمليات المخابرات فإنني اضـع في اعتباري أولاً كيف يمكن الابقاء على العملية سراً بعيداً عن العدو ثم ثانياً كيف يمكن الابقاء عليها سراً بعيداً عن أعين الصحافة. وغالباً ما نتبع الأولويات في هذا الصـدد لأن ضابط المخابرات في المجتمع الحر يجب أن يدرك أن هذه هي حقيقة الحياة في بلده.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما إذا كنا نستطيع تطوير نظام الأمن الخاص بنا مع التمسك بالابقاء على طريقتنا الحرة في الحياة وصحافتنا الحرة أم أنه من الجدير بنا أن نحاول على الأقل الحد من هفوات وزلات الأمن عندنا... وإنني مقتنع بالاقتراح الأخير.

وهناك نواح هامة يجب وضعها في الاعتبار، أولاً الإفشاء غير المقصود وهو الذي يتم نشره بموافقة رسمية، وثانياً التسرب التعمدي وهو أن يتم تمرير الأسرار للصحافة من قبل أحد المسؤولين الحكوميين غير الراضيـن أو الساخطين الذين يمقتون سياسة معينة ويشعرون أنهم يجب أن يدافعوا عن موقف جهازهم ضد تجاوزات الأجهزة المنافسة أو الدليل على السياسة المتضاربـة، وثالثاً التسرب الطائش (المهمل). فنحن كشعب نثرثر كثيراً فنحن نحب أن نظهر أننا على دراية بكل شيء. وأخيراً فهناك مسألة مدى الثقة في جدارة الأشخاص الذين تصل إليهم المعلومات السرية وأمن الأجهزة الحساسة.

فالافتضاح الأخير لأمر «باول مونات» ضابط المخابرات البولندي الذي دربه الخبراء الشيوعيون على القيام بأعمال التجسس في الولايات المتحدة يوضح مدى فداحة ما وصل إليه ضعفنا القومي. فقد كان الكولونيل «مونات» ضابطاً كبيراً في جهاز المخابرات البولندي قبل أن يتم تعيينه ملحقاً عسكرياً في واشنطن عام ١٩٥٥.

وبعد ذلك بثلاثة أعوام، في ربيع عام ١٩٥٨ عاد مونات إلى بولندا وبعد قضاء عام من القيام بمزيد من أعمال المخابرات هناك وبعد أن انعكس عليه ما مارسه في

الولايات المتحدة. قرر أن يهجر العمل وكذلك الشيوعية. فقد طلب في عام ١٩٥٩ منحه حق اللجوء السياسي إلى الولايات المتحدة عن طريق سفارتنا في فيينا

وفيما يلي بعض ما ذكره عن التجسس في الولايات المتحدة في كتابة «جاسوس في الولايات المتحدة»: إن أمريكا بلد لطيف بحيث يمكنك القيام بأعمال التجسس فيها فهي كدولة لا تعبأ بالحفاظ على إبقاء أسرارها طي الكتمان ومن أضعف الروابط التي تواجه أمنهم القومي هي بساطة شعبهم الشديدة وتوقهم للادلاء بالمعلومات. فكنت أستطيع أن أعثر على شخص تلو الآخر أجعله بعد كأس أو كأسين يخبرني بأشياء لم يخبر بها أحداً قط بما في ذلك زوجته.

ولكنه كان واضحاً أن مونات عثر على أثمن مصادره للمعلومات في الكتاب الذي نشره. فهو يقول إن الأمريكيين ليسوا مهملين ومثرثرين في حديثهم فحسب بل إنهم يخرجون أكثر بكثير مما يلائمهم.

ثم يواصل حديثه لايجاز ما استطاع أن يحصل عليه من مقالة واحدة في مجلة الطيران الأسبوعية «الابتكار الرابع والعشرون في سلاح الطيران» والتي صدرت في ٣٧٢ صفحة. فيقول: كان يمكن أن أستغرق شهوراً طويلة من العمل وأن أنفق آلاف الدولارات لصالح العملاء والجواسيس لكي أستخلص تلك الحقائق التي قرأتها واحدة تلو الأخرى. وقد قدمتها المجلة لنا على طبق من فضة.

كما أنه يعترف كذلك بالجميل الذي قدمته نشرة «الصواريخ والقذائف» وبصورة خاصة لما أشار إليه بـ «أعضاء البيت» للجيش والبحرية والطيران ومشاة البحرية التي كانت تواجهه المنافسة في مجال المخابرات الداخلية من جهة، وتيار المجلدات والتقارير التي ينشرها كل جهاز من جهة أخرى.

وقد أكد في النهاية على قيمة جهود المخابرات الشيوعية في الاستفادة من جلسات استماع الكونجرس حول ميزانية الدفاع وهي التي وضعها في قائمة أفضل مصادره التجسسية.

وأضاف مونات قائلاً إنه لا شك أن الأمر صعب للغاية على الجيش الأمريكي في محاولته الدفاع عن الأمة وحريتها في الوقت الذي تنكشف وتنفضح فيه أدق أسراره الدفاعية يوماً بعد يوم لأي شخص يمكنه أن يقرأ.

وقد كتب «دوجلاس كاتر» «مراراً عن هذه المشكلة وعالجها بعمق وعدل ووصف في كتابه «الفرع الرابع للحكومة» مدى الاحباط الذي أصاب حكومتي كل من «ترومان» و«ايزنهاور» كتب يقول:

«لقد ادعى الرئيس ترومان ذات مرة أن ٩٥٪ من معلوماتنا السرية نشرتها الجرائد والمجلات وطالب بأنه يتعين على الصحفيين أن يمسكوا عن نشر بعض المعلومات حتى وإن كانوا قد حصلوا عليها من قبل مصادر حكومية رسمية. وأعتقد أن مثل هذا يكون بمثابة ضربة طيبة لأي صحفي ـ على الرغم من أنني أعلم أن بعض الحالات كان يقوم بها المحررون أو رؤساؤهم بمحض إرادتهم بمنع نشر بعض الموضوعات لاعتقادهم بأنها تضر بالأمن القومي أو انهم طلبوا الاستشارة في بعض الفقرات الحساسة.

وقد نقل «كاتر» عن الرئيس ايزنهاور عام ١٩٥٥ في مؤتمر صحفي قوله لقد ابتليت منذ نحو سنتين وثلاثة أشهر بتسرب للمعلومات في هذه الحكومة لم نكتشف من أين يحدث ولم نستطع تفسيره كما أشار كاتر إلى بيان ألقاه «تشارلز أي ويلسون» قام فيه ويلسون بتخمين حجم ما تحصل عليه هذه الدولة بإفشاء أسرارها العسكرية للاتحاد السوفييتي بأنه يساوي مئات الملايين من الدولارات إذا تعلمنا نفس هذه الطريقة منهم.

وكان مجمع الاستخبارات على دراية كافية بهذه المشكلة وقد انزعج بيدل سميث للغاية عندما كان مديراً لوكالة المخابرات المركزية (CIA) لدرجة أنه قرر إجراء اختبار. فقد قام في عام ١٩٥١ بوضع قائمة بأسماء مجموعة من الدارسين الأكفاء في واحدة من أكبر جامعاتنا وتكليفهم بمهمة عمل صيفية. ولكي يوفر وقتهم أمرهم بالنشرات والدوريات والمقالات الصحفية وجلسات استماع الكونجرس وتصريحات الحكومة والرسائل العلمية والخطب من الأشياء التي تكون في متناول أي شخص يطلبها. ثم عهد إليهم بمهمة تحديد ماذا يمكن أن يجمعه الاتحاد السوفييتي من معلومات عن القدرة العسكرية الأمريكية من خلال هذه المصادر غير السرية. وأوضحت استنتاجاتهم أنه، في خلال عدة أسابيع من العمل والدراسة في هذه الوثائق من قبل مجموعة من المحللين، يمكن لأعدائنا أن يحصلوا من هذه المعلومات المباح الاطلاع عليها على تصور داخلي هام لقطاعات متعددة من دفاعنا القومي. وفي حقيقة الأمر فإنه عندما وصلت نتائج دراسة المحللين الجامعيين هذه إلى الرئيس «ترومان» ولكبار الساسة الآخرين حرصوا على أن يكونوا بالغي الدقة في التأكد من أن النسخ الزائدة من هذا البحث يتم التخلص منها وأن تصنف النسخ الباقية تحت بند «سري للغاية». فهل هناك من سبيل لإيقاف الإفشاء غير المقصود للأسرار؟ جانب كبير وهام من هذه المشكلة يكمن داخل السيطرة على الحكومة والكونجرس.

ويتضح في هذا المجال أن هناك شعوراً يسيطر على الكونجرس يؤيد ضرورة الحد من هذه الزلات والهفوات في إفشاء الأسرار. ففي السابع من شهر مارس عام

١٩٦٢. طالب النائب «جورج ماهون» وهو عضو بارز في الكونجرس ويرأس اللجنة الفرعية الخاصة بالدفاع في مجلس النـواب، في بيان بمجلس النواب نشرته الصحافة، طالب بوضع حد لما أسماه بالموقف المتردي الخطير وطالب بضرورة أن «يقوم الرئيس ونائبه ورئيس مجلس الشيوخ بتنسيق واتخاذ قرارات لأجل وقف الانهيار السريع لمجهوداتنا في مجال المخابرات القومية، ولا بد وأن يصفق المسؤولون في موسكو وبكين وهافانا لغبائنا في إعلاننا على العامة بعض الحقائق التي كان يسعدهم أن ينفقوا الكثير من الأموال للحصول عليها. لذا فالمسؤولية الكبيرة تقع على عاتقنا ويجب اتخاذ موقف عاجل».

وإنني بالطبع أدرك فيما يتعلق باللجان الخاصة واللجان التشريعية الأخرى للكونجرس. وخاصة ميزانية الـدفاع، فإنها بحاجة لمعرفة قدر أساسي من المعلومات السرية من الهيئة التنفيذية. فهل من الضروري أن يتم نشر هذه المعلومات بأدق تفاصيلها، إنه غالباً ما تكون التفاصيل الدقيقة والفنية هي أهم الجوانب التي تفيد عدونا المحتمل ولا تلقى اهتماماً لدى العامة. وإنني أتساءل عما إذا كانت هناك حاجة لأن يعرف العامة مثل هذه التفاصيل الفنية؟ كما أنه يقال غالباً إن الكونجرس لا يحتفظ بسر أبداً. ويكذّب التاريخ القديم هذا. فمشروع مانهاتن الذي تم من خلاله تطوير القنبلة الذرية وأنفق من أجله المليارات من أموال الشعب تم الحفاظ عليه طي الكتمان داخل منطقة حيوية لدفاعنا القومي. وقد يحتج القارىء بأنه يمكن الحفاظ على الأسرار في وقت الحرب الساخنة فقط ولكن ليس في حالة الحرب الباردة.

ومن واقع عشـر سنوات من الخبرة في التعامل مع الكونجرس وجدت في اتصالاتي مع اللجان الفرعية للـ (CIA) الخاصة باللجان العسكرية في مجلس النواب والشيوخ واللجان الخاصة بالمجلسين ـ إمكانية الابقاء على الأسرار طي الكتمان وتلبية الاحتياجات الخاصة بأجهزتنا التشريعية. وفي الواقع إنني لا أتذكر أن حالة واحدة من حالات الزلل وتسريب المعلومات نتجت عن إخبارنا هذه اللجان بأدق المعلومات عن نشاط الـ (CIA) بما في ذلك سر الطائرة «يو ـ تو» U.2. وبالطبع فإنها حقيقة واقعة أن الأمريكيين أكثر صعوبة في الاحتفاظ بسرية الموضوعات التي يجب أن تعرض على أعضاء الكونجرس بأكمله للتصويت عليها بالموافقة لكنه ليس بالضرورة أن تتضمن تفصيلات دقيقة من النوع الذي يجب معه أن يتم كشفها لبعض لجان الكونجرس من جانب وزارة الدفاع فيما يتعلق بميزانيتها الشاملة.

ويمكنني أن أستنتج أنه لو كان هذا الأمر برمته قد تمت مناقشته بصراحة وبفهم مستفيض بين الإدارات التنفيذية والكونجرس لكان قد أمكن التوصل إلى طريقة لمنع جانب كبير من المعلومات السرية التي حصل عليها عدونا الآن. ومن

المؤكد أنه كان سيظل هناك تسرب جوهري ولكن ليس هذا الكم الهائل من المعلومات المتاحة حالياً. الا يحق هذا بأن يُكتشف؟ وهناك جهة أخرى أكثر صعوبة الا وهي الصحافة والنشرات الدورية وخاصة المجلات الفنية ومجلات الصيانة. وأتذكر الأيام التي كان مجمع الاستخبارات يقوم باحكام الخطط لإنتاج أجهزة فنية متعددة بغرض مراقبة التجارب الصاروخية السوفييتية وعملياته في الفضاء. فتقحم المجلات الفنية نفسها لكي تعطي للشعب الأمريكي ومن ثم الاتحاد السوفييتي تفصيلات شاشات الرادار وما إلى ذلك والتي يجب وضعها لأسباب جغرافية ـ ولضمان فعاليتها داخل أراضي الدول الصديقة القريبة من الاتحاد السوفييتي.

وقد كانت هذه الدول ترحب بالتعاون معنا طالما أن الأمر ظي الكتمان وقد تُهدد هذه العملية الحيوية بأسرها بسبب عملية النشر العلنية هذه من خلال مجلاتنا الفنية والتي ستؤدي إلى إحراج شديد لأصدقائنا الذين يتعاونون معنا والذين تعقّد موقفهم حيال الاتحاد السوفييتي بسبب نشر الشائعات والتخيلات وباستثناء قلة قليلة من ذوي العقول الفنية فإن مثل هذه التسربات ما كانت لتضيف سوى القليل لرفاهية وسعادة بل وحتى معرفة باقي أفراد الشعب الأمريكي وبالتأكيد فإن هذا النوع من المعلومات لا يقع في أيدي الفئة التي يتعين عليها أن تعرفه من الشعب الأمريكي.

وبلا شك فإنه من الأهمية بمكان في عصر الصواريخ النووية هذه أن نطلع الشعب الأمريكي على موقفنا العسكري في العالم بإسهاب. وبالطبع يجب أن يكون لدينا رأي عام مدرك ومطلع رسمياً على الحقائق الصعبة. في وقت وما إلى ذلك.

وإنني شخصياً مقتنع بأنه لم يحدث أبداً أن تفوّق السوفييت عسكرياً علينا... ومن المرغوب فيه أن يكون شعبنا ـ والحكومة السوفييتية كذلك على دراية بهذا. لكن ما لا نحتاجه حقاً هو المعلومات المفصلة مثل مكان كل صاروخ وعدد القاذفات أو المقاتلات التي سنمتلكها أو التفصيلات الدقيقة بكيفية آدائها.

وإذا كانت عملية إفشاء الأسرار بدون قصد هي نتيجة الإدارة المفتوحة لشؤون حكومتنا فإن كلاً من التسرب العمدي وإفشاء الأسرار هو الاسم الذي أطلق على العملية «الإفضاء بمعلومات بدون إذن السلطة»، وهي تحدث غالباً في وزارة الدفاع وأحياناً في وزارة الخارجية. وقد حدثت عدة حالات شعر فيها الضباط الصغار (التابعون) بأن جهازهم أو السياسة التي ينتهجها لم تعامل بعدل من قبل الصحافة أو حتى كبار رؤسائهم في الحكومة، لأن كل الحقائق لم تكن متاحة لكي تتطلع عليها الصحافة والشعب وهي في الواقع مناشدة من الضباط التابعين إلى الرأي العام من فوق رأس رؤسائهم، وقد حدث هذا مؤخراً فيما يتعلق بنقل المسؤوليات الكبيرة في

مجال الصواريخ الاستراتيجية من الجيش إلى سلاح الطيران. وكان يحدث أحياناً كذلك أن تتسرب المعلومات الخاصة بسياسات وزارة الخارجية عن طريق تابعين لم يكونوا راضين عما يحدث أو ما تقوم به الأجهزة الأخرى وبصفة عامة الجيش ـ عندما تكون هناك خلافات مع سياسة وزارة الخارجية.

وقد ذكر «دوجلاس كاتر» حادث تسرب مؤثراً لوثيقة خاصة كتبها دين راسك وزير الخارجية إلى روبرت ماكنمارا وزير الدفاع وزعم أن راسك اقترح أنه حتى في حالة حدوث هجمات سوفييتية مكثفة على أوروبا فإن هذا لا بد من معالجته بالأسلحة التقليدية فقط. وقال كاتر إن القصة أو الموضوع لم تقم على الوثيقة بصورة مباشرة وإنما على تفسير لها قدمه شخص ما في سلاح الطيران كان واضحاً أنه على غير وفاق مع موقف وزارة الخارجية، وأضاف ان عملية التحريات والتحقيقات استغرقت آلاف الساعات من العمل قبل أن يتم التعرف على جنرال سلاح الطيران المتهم بتسريب وثيقة «راسك» ثم نفيه بعدها إلى ماكسويل فيلد في ولاية الاباما.

والتسرب الاهمالي الذي لا يرجع للدهاء أو التخطيط المسبق ـ قد يكون ناتجاً عن أن شخصاً تحدث بلا تفكير ربما بسبب تحريض أو ملاحقة أحد الصحفيين له. وبسؤال عدد كاف من الأشخاص فإنه غالباً ما يستطيع ذلك الصحفي تجميع القصة الحقيقية عن التطورات البالغة السرية أو البرامج الجاري الإعداد لها. وكل هذا من الصعب معالجته لأن الصحفيين الذين هم المستفيدون الوحيدون من هذا التسرب سواء أكان بصورة مباشرة أم غير مباشرة يرفضون الكشف عن مصادرهم ويصبح من المستحيل الحصول على دليل دامغ يحدد من هو الشخص أو الأشخاص المتهمون.

وخلال عملي الذي استغرق أحد عشر عاماً في الـ (CIA) حضرت عشرات من الاجتماعات على أعلى مستوى في الحكومة وكان دائماً ما يحدث فيها هذا السيناريو الذي سأذكره فيما بعد ولا يختلف في ذلك ما إذا كانت الحكومة ديمقراطية أم جمهورية. يأتي مسؤول كبير في الحكومة ـ غالباً ما يكون الرئيس ـ ممسكاً بمقال صحفي ويقول شيئاً كهذا «من الذي سرّب هذه المعلومات؟ لقد حدث هذا فقط منذ يومين وحول هذه المائدة ان أثني عشر شخصاً منا وصلوا إلى هذا القرار السري وها هو كله منشور في الصحافة لصالح عدونا هذه المرة. يجب أن نعرف من المسؤول ونعلقه على أقرب عمود نور، لم يعد بإمكاننا إدارة شؤون الحكومة في ظل هذه الظروف. يجب أن يتوقف كل هذا. أريد تحقيقاً وتبريراً وفي هذه المرة أريد نتيجة، لم يعد في مقدوري احتمال ما يحدث في هذه الحكومة» ثم تبدأ العجلة في التحرك... تبدأ لجنة من الأمن في العمل وقد يتم استدعاء الـ (FBI مكتب التحقيقات الفيدرالية) في

حالة ما إذا كان هناك انتهاك للقانون الفيدرالي، في وقت معين تصل اللجنة للنتائج التالية:

تبين أن قرار الحكومة المقصود الذيتسرب، تم حفظه في عدة وثائق سرية أو بالغة السرية وقد تم تصوير عشرات النسخ منها لتوزيعها على الوزارات والأجهزة والمكاتب المختلفة للحكومة التي قد تتورط بناء على مبدأ الحاجة للمعرفة. وعلى هذا فقد تداول هذه الوثائق عدة مئات من الأشخاص لأنه تم تصوير العديد من النسخ منها بواسطة رؤساء الإدارات بغرض إعلام تابعيهم بها. كما تبين احتمال إرسال رسائل منها للمسؤولين في مختلف أرجاء العالم للاستفادة منها في حالة ما إذا تطلب اتخاذ إجراء. وعندما انتهت مثل هذه التحريات والتحقيقات كان واضحاً أن ما بين خمسمائة إلى ألف شخص يكونون قد رأوا الوثيقة أو سمعوا بفحواها وتحدثوا عنها لفلان وفلان... ولن يعترف أي مسؤول أبداً بأنه حدث انتهاك للأمن في هذه العملية وكذلك فإن أي صحفي أو سياسي لن يتخلى عن مصدره.

وبعد انتهاء التحريات كان الحل هو أن الجريمة حدثت بواسطة شخص أو أشخاص مجهولين ولم يتم التعرف عليهم. وفي أثناء هذه الاجراءات يتم تذكير مدير وكالة المخابرات المركزية (CIA) بأن القانون الذي تم على أساسه تشكيل الـ (CIA) يؤكد أنه من بين واجبات مدير الـ (CIA) أن يحمي المصادر والوسائل من التسرب بالكشف غير المصرح به. ثم يسأل بعد ذلك ما الذي يجب عمله لتنفيذ القانون؟

وتكون إجابته عادة هي أن القانون لم يمنحه سلطة تحريات خارج حدود وكالته وفي الواقع فإنه يوضح أنه لن يمارس أية مهام في نواح الأمن الداخلي. وعلاوة على هذا فإن هذا الشرط في القانون كما يبين تاريخ التشريع كان يقصد به في المقام الأول تحميل مدير الـ (CIA) تبعات الأمر. من هنا فإنه يتعين على الحكومة أن تضع مجلسها في نظام بالتنسيق بين الهيئة التنفيذية والكونجرس ثم نسعى بعدها إلى طلب التطوع والتعاون من الصحافة.

وفيما يلي نظام ممكن للاجراءات:

١ ـ على أجهزة الحكومة التنفيذية، وخاصة وزارتي الخارجية والدفاع، ومجموعة المخابرات أن تبذل قصارى جهدها للحيلولة دون نشر معلومات دون داع، قد تنفع أعداءنا، كما أن عليهم أن يتعاملوا بصورة أكثر فعالية مع ما قد يتسرب من معلومات عن طريق الأجهزة التنفيذية.

٢ ـ يجب اتخاذ إجراءات، بالتنسيق مع أعضاء الكونجرس البارزين وبالاتفاق معهم، من شأنها فرض قيود على نشر جلسات الاستماع والخاصة بالأمن القومي، وخاصة فيما يتعلق بأعمال في المجال العسكري.

ويتبع النجاح في تحقيق هاتين الخطوتين ١، ٢ عقد مناقشات بين المسؤولين الحكوميين الذين لهم صلة مباشرة بالموضوع، وبين القيادات الصحفية ووسائل الإعلام الاخرى مثل الراديو والتليفزيون يهدف إلى تحديد أي مدى يمكن التوصل إلى اتفاق متبادل لإقامة جهاز تكون مهمته إرشاد الصحافة في الأمور ذات الطابع السري والتي تمثل أهمية بالنسبة للأمن وخاصة تلك الأمور المتعلقة بالمعدات العسكرية وعمليات المخابرات.

وقبل الشروع في هذا فإنه قد يكون من المفيد لأعضاء الحكومة، والصحفيين المهتمين بالامر أن يلقوا نظرة على ما تحقق في بريطانيا العظمى من خلال تطبيق نظام الأشعار D، والذي بمقتضاه يمكن للصحافة، بصورة تطوعية أن تتعاون مع الحكومة للحيلولة دون تسرب الأسرار العسكرية.

ومن خلال افتراض لدراسة هذا النظام، فإنني أدرك أن هناك اختلافات جوهرية بيننا وبين المتبع في الجزر البريطانية حيث تتركز الصحافة ووسائل الإعلام في مدينة واحدة كبيرة هي لندن.

وليس في بلدنا هذا مركز يُلجأ إليه، مثل ذلك الموجود في بريطانيا، في الأمور الخاصة بالصحافة والنشر ومن ثم فإنه من الصعب كثيراً هنا أن تجد مجموعة معينة تعمل في مجال الإعلام يمكن أن تتفق على ما يجوز نشره وما لا يجوز.

كما يجب الاشارة بوضوح إلى أن التعاون بين الصحافة البريطانية وبين الحكومة ما هو إلا نتيجة الالتزام الذي يطرحه قانون أسرار الدولة، ولا يتم ذلك بصورة تطوعية على الاطلاق. فالحكومة هناك دائماً ما تلجأ للتأكد من أن المواد التي ستنشر في الجرائد تتفق ومستويات الأمن المطلوبة.

وقد بلغ ذلك النظام من العمر ما يزيد على خمسين سنة، فقد أنشىء بعد مضي عام على سريان قانون أسرار الدولة لعام ١٩١١، على الرغم أن ذلك النظام ليست له قوة القانون.

ويتم تنفيذ ذلك النظام من خلال لجنة تتكون من أربعة ممثلين حكوميين وهم قادة وزارة الحرب والبحرية والطيران والطيران المدني وأحد عشر ممثلاً لمختلف وسائل الإعلام، فإذا وجد احتمال تسرب أحد الأسرار الخاصة بالأمن إلى الصحافة فإن سكرتير اللجنة يدعوها للانعقاد لوضع الحقائق أمامها. وإذا اتفقت وجهات نظر ممثلي الصحافة فإن اللجنة تصدر اشعاراً أو بياناً إلى الصحافة بجواز نشر الخبر فإن لدى سكرتير اللجنة من السلطة ما يسمح له بإصدار الأشعار D على مسؤوليته هو ولكن باتفاق اثنين على الأقل من ممثلي الصحافة وإذا اعترض فيما بعد بعض

الموقف، حيث لم تمارس تلك السلطات الاستثنائية إلا في أضيق الحدود، عندما يشكل الوقت عاملاً هاماً.

والإشعار D يسري على نشر الموضوعات العسكرية، والتي قد يؤدي نشرها إلى الاضرار بالمصلحة القومية ولكن من ناحية أخرى فإن الصحافة لا تفسر هذه المعادلة تفسيراً جامداً. ففي تقرير صدر مؤخراً عن اللجنة التي يرأسها اللورد رادكليف Radcliff، والتي شكلت لاستعراض المشكلات الأمنية في بريطانيا، تناولت اللجنة بالدراسة فعالية نظام الإشعار D وانتهت إلى التعليق عليه بملاحظة حالات لا يتم السير فيها على ذلك النظام والتصنيف وهـي في أكثـرها حـالات عفوية وليست متعمدة ولم يصرّ أصحابها على مخالفة النظام عندما أثار السكرتير الأمر مع المحرر المسؤول.

ويشير التقرير إلى نجاح الحكومة البريطانية عامين في حجب معلومات يجب حجبها عن الصحافة والإذاعة والتليفزيون والتي كان من الممكن أن تشكل فائدة لمن يحوزها،أما تلك المعلومات التي نراها الآن منشورة، أو مذاعة فهذه لا يمكن حجبها بأي صورة من الصور.

وعلى الرغم من أن التقرير يؤكد أن نظام الإشعار D يبدو ملائماً لحاجات كافة الأطراف، فإن التقرير يضيف قائلاً إنه بناء على الأدلة الموجودة أمام اللجنة فإن الأطراف المعنية بهذا النظام لا ترغب في تغييره وترغب في استمرار العمل به على ما هو عليه.

وأهمية دراسة هذا النظام تكمن بوضوح في الوقوف على إمكانية تطبيق أي خطوة من خطواته بصورة فعالة في هذا البلد في التعامل مع مشكلاتنا الأمنية. ومن حقي أن أضيف قائلاً إن هذا النظام ليست له علاقة مطلقاً مع القضية المنظورة الآن في أوروبا وأمريكا والخاصة بمراسلي جريدتين واللذين قضيا مدة في الحبس لرفضهما الافصاح عن مصادرهما الصحفية في قصة William vassall، أمام لجنة شكلها البرلمان لهذا الغرض وقد كان معهما مراسل ثالث ولكنه لم يسجن نظراً لأن المصدر الذي استقى منه ذلك المراسل معلوماته جاء طواعية أمام اللجنة وأدلى بشهادته قائلاً إنه مصدر مكتب القصة. وتثور شكوك حول ما إذا كان المراسلان المسجونان سيستطيعان تحديد مصادرهما حتى لو حكم عليهما بالسجن حيث ان قضيتهما محض اختلاق من الخيال.

غير أن هناك نقطة أخرى (اضافية) في البرنامج لتحسين وضعنا الأمني الا في أنه ينبغي علينا أن نراجع ونشدد قوانين التجسس الخاصة بنا في مناطق

محدودة ومنذ ١٩٤٦ وفي مناسبات متعددة فالمحاولات التي أجهضت بها الجهاز التنفيذي للحكومة لتعديل لائحة التجسس حتى لا يفشل القضاء لمجرد وجود صعوبات في تحديد النية أو السبب للاعتقاد بأن المعلومات التي قد كشفت خطأ أو سربت إلى حكومة لن تستخدم في أي شيء يضر بالولايات المتحـدة أو في افادة دولة أجنبية. وهذا صعب إثباته. وقد تم إلغاء مطلب ضرورة تحديد دليل.

وتأتي بعد ذلك العملية التي اشترك فيها الرباعي بروفومو، وارد، كريستين كيلر وايفانوف، ورغم أن دلالات هذا الحادث بالنسبة للأمن غير واضحة إلا أنه من المؤكد في هذه العملية أن ضابط المخابرات السوفييتي ايفجيني ايفانوف ساعد على تقويض حكومة بكاملها. وبذلك يكون قد سبب ضرراً بالغاً للعالم المفتوح سواء عن قصد أو عن غير قصد أكثر مما كان سيتمكن من فعله في حالة حصوله على المعلومات السرية التي كان يسعى للحصول عليها. تشير هذه الحالة وغيرها من الحالات التي أشرت إليها من قبل إلى نقطة ضعف المجتمعات الحرة بشأن حماية أمن دولها.

ورغم ميلنا إلى توجيه الاتهام إلى أجهزة الأمن إلا أن السبب الحقيقي أعمق من ذلك بكثير. ففي انجلترا وفي الولايات المتحدة ليس من حق أجهزة أخرى التدخل إلا بصورة محدودة جداً في شؤون اجراءات أمن الأفراد التي تتخذها بعـض الأجهزة والوكالات الحكومية ذات الحساسية.

فمثلاً في حالة بروفومو لم يكن من حق أجهزة الأمن التدخل حتى ظهور العميل السوفييتي ايفانوف وهنا فقط يظهر خلل ما في الأمن فلو كان قد تم قبل ظهور ايفانوف اكتشاف أن أجهزة الأمن تتجسس على حياة بعض الرعايا البريطانيين الخاصة ناهيك عن كبار مسؤولي الحكومة لثارت حالة هياج عامة.

وتقوم المكاتب التابعة لوزارتي الخارجية والدفاع في بريطانيا بتوظيف أفرادها دون الرجوع إلى أجهزة الأمن إلا حين يصير هؤلاء الأشخاص بالفعل مصدر خطر على الأمن. وفي تلك الحالة يكون الضرر قد وقع بالفعل. فعلى سبيل المثال لم يكن يجب بأي حال الأمر بتوظيف أشخاص مثل برجيس وماكلين وأي استعراض سريع لنشاطهما من قبل يؤكد ذلك.

أما في حالة مارتين وميتشل فمن المؤكد أنه كان سيتم إجراء تحقيق بشأنهما إذا تم الاطلاع على أسلوب حياتهما والأحياء القذرة التي كانا يعيشان فيها.

ليس في مقدور أجهزة الأمن عندنا أو في بريطانيا التدخل في حياة وشؤون

الموظفين الخاصة طالما أنهم يقومون بعملهم بصورة جيدة. ربما نكون نحن والبريطانيون ملتزمين أكثر من اللازم بتلك المبادىء. وفي حالة بروفومو أكد البرلمان أن أجهزة الأمن، وليست السلوكيات، هي القضية الرئيسية وقد ساندت الصحف البريطانية هذا الاتجاه مشيرة إلى أن بعضاً من القادة البريطانيين لا يعدون أمثلة على السلوك السوي. وأشارت الصحف إلى أمثلة على ذلك فمثلاً زوجة نيلسون أصيبت بصدمة عندما علمت بارتياد زوجها بيوت الدعارة، ودوق ويلنجتون تعرض لابتزاز واحدة من الداعرات حتى لا تذكر اسمه في مذكراتها.

إلا أن هذه الأمثلة تنتمي إلى حد ما إلى تاريخ بريطانيا القديم كما أنها تتحدث عن أشخاص ذوي مكانة وشجاعة ومسؤولية عن تصرفاتهم أمام الشعب. كذلك لم نكن في ذلك الوقت نواجه مشكلة التآمر السوفييتي وقيامهم بتجنيد ضعاف النفوس وأصحاب السلوك غير السوي وبالتالي فإن ظروف القرون الماضية ليست دليلاً جيداً نحتذي به اليوم في تعيين الموظفين في الأجهزة الحكومية الحساسة. فلا أرى داعياً لتعيين موظف في موقع حساس في حالة توافر دليل على وجود نقطة ضعف خطيرة في شخصيته أو في سلوكه يمكن أن تجعله هدفاً سهلاً للابتزاز.

تصبح مسألة اجراءات الأمن الخاصة بالموظفين أكثر تعقيداً وذلك لما تحتاجه حالة الأمن من إجراء فحوصات دورية على حالة الموظفين لا فحصاً واحداً فقط في بداية التعيين فقد تكون سيرة بعض الموظفين نظيفة عند بدء تعيينهم ولكن يشوبها بعد ذلك نقطة ضعف معينة، ربما تكتشف من خلال فحوصات الأمن الدورية وربما لا.

وبالطبع لا يمكن القول بأنه حتى أكثر فحوصات الأمن دقة يمكن أن تكتشف كافة نقاط الضعف على أن أفضل ما يمكن عمله في ذلك المجال هو إجراء فحص شامل ودقيق مع الاستعانة بوسائل التكنولوجيا، مثل الجهاز المعروف باسم جهاز كشف الكذب.

وقد اكتشفت من خلال خبرتي أن جهاز كشف الكذب يقدم مساعدة هامة في تعيين الموظفين وفي إقصاء الشبهات والاتهامات المزيفة عن بعضهم وكذلك في منح اشارات تدل على وجود نقاط ضعف معينة في البعض.

وليس من باب الفخر القول بأن وكالة المخابرات المركزية لديها سجلات أمن ممتازة. ويرجع الفضل في تطويرها إلى حد كبير إلى الرجل الذي كان يتولى رئاستها قبلي - الجنرال والتر بيدل سميث والذي اتصفت إدارته بالحزم والنظام والتفهم وكان له الفضل في وضع أسس اجراءات الأمن الحازمة بها فقد سبب بيدل يوماً أثناء

الحملة الانتخابية الجارية في عام ١٩٥٢ ما يشبه الصدمة للشعب والصحافة الأمريكية وذلك عندما قال إنه ينبغي افتراض وجود عميل سوفييتي في المخابرات الأمريكية. وكان على حق في إعلان هذا التحذير.

فعلى الرغم من عدم اكتشاف مثل هذا العميل بعد إلا أنه ينبغي دائماً افتراض احتمال وجوده. يمكن بمرور الزمن أن نصبح أكثر تفاؤلاً ولكن من غير الممكن أن نتأكد بصورة قاطعة من وجود مثل هذا العميل أو عدمه.

وقد حققت وكالة المخابرات نجاحاً ملحوظاً في مجال فحوصات أمن موظفيها فنحن نستبعد من حساباتنا الشواذ جنسياً والأشخاص ذوي الشخصيات الضعيفة أو المهزوزة أو هؤلاء الذين يعانون من عدم الاستقرار في منازلهم أو وسط عائلاتهم مما قد يؤثر عليهم فيما بعد.

في الولايات المتحدة يوجد في كل جهاز حكومي حساس مكتب خاص للأمن تقع عليه مسؤولية الأمن في هذا الجهاز.

وتقوم هيئة الخدمة المدنية وأحياناً مكتب التحقيقات الفيدرالي بالمساعدة في إجراء التحقيقات حول موظفي الأجهزة والوكالات الأخرى وتقتصر مهمتهم حول إجراء مقابلات مع أقارب الشخص المرشح للوظيفة وجيرانه وأي أشخاص غيرهم يمكنهم إلقاء الضوء حول شخصيته. كذلك يقومون بالاطلاع على أى سجلات حكومية خاصة به. ليس من حق هاتين الجهتين تقرير ما إذا كان يجب توظيف هذا الشخص أم لا، فالقرار الأخير في هذا الأمر من حق الجهة التي ترشح هذا الشخص للعمل بها.

وتعمل مكاتب الأمن في كافة الهيئات مثل وزارات الخارجية والدفاع والقوات المسلحة ووكالة الأمن القومي وهيئة الطاقة الذرية وكذلك المخابرات المركزية، على التشاور فيما بينها وتبادل الخبرات.

فمثلاً في بعض الوزارات لا يشترطون على الشخص الذي يتم اختياره لمنصب رئيس قسم الأمن بها وجود خبرة سابقة أو قضاء مدة خدمة طويلة، هذا على الرغم من أن منصباً كهذا يحتاج لشخص ذي خبرة ويبحث عن عمل لمدة طويلة إذ ان تغيير شاغل هذا المنصب الهام كل عام أو اثنين فقط أمر له خطورته.

وهنا أود أن أضيف كلمة عن اجراءات الأمن في منشآتنا المنتشرة خارج الحدود الأمريكية وأهمها سفاراتنا في كافة أنحاء العالم وفي بعض الدول التي لدينا فيها قوات ومنشآت عسكرية.

قد نبدو متهاونين إذا ما قورنا بالسوفييت في هذا المجال فقد حولوا سفاراتهم

في الخارج إلى ما يشبه الحصون المنيعة، حيث لا يسمح لأي أجنبي بدخولها إلا في المناسبات الاجتماعية. كذلك يحاولون قدر الإمكان الاعتماد على عمالتهم المحلية لسد احتياجاتهم الداخلية، مثل مشاكل السباكة والكهرباء وغيرها من الاصلاحات فهم لا يسمحون أبداً بتعيين أي موظفين محليين مقيمين في الدولة الأجنبية التي يعملون بها أو حتى بدخولهم إلى منشآتهم.

ولعل من أبرز الأمثلة علي ذلك السفارة السوفييتية في طهران والتي كان لرؤيتي لها منذ سنوات قليلة أثر كبير علي فقد احتلت منشآت السفارة منطقة كاملة من المدينة وأحاطوها بالكامل بأسوار عالية وأقاموا حراسة على كافة النقاط التي يمكن التسلل منها... باختصار كانت قلعة حقيقية.

ويفضل السوفييت أن يستخدم معظم موظفي السفارات نفس المبنى كسكن لهم وذلك ليسهل مراقبتهم.

وأما من ناحيتنا فنحن لسنا في حاجة إلى تحويل سفاراتنا إلى قلاع وإلى إجبار الموظفين على السكن بها. وفي حالات كثيرة ورغم الستار الحديدي نتمكن من استخدام العديد من موظفيهم المحليين، الأمر الذي لن يفكر السوفييت في عمله أبداً وقد أشير إلى ذلك في التقرير الذي رفعته إلى البرلمان عام ١٩٦٣ هيئة المحكمة التي تولت التحقيق في قضية فاساك وبمقتضى قانون نقض الحقائق وكان يرأس هذه المحكمة لورد رادكليف الذي أشرت من قبل إلى تقريره حول قضية لونسديل.

فقد قامت السفارة البريطانية في موسكو أثناء عمل فاساك في مكتب الملحق البحري بتعيين وكيل عام اسمه ميخايلسكي. وقد ذكر رادكليف في تقريره أن هذا الشخص والذي كان عميلاً للمخابرات السوفييتية كان هو الأداة التي تمكنوا من خلالها من تجنيد فاساك. وذكر التقرير أن ميخايلسكي كان يعمل مساعداً في القسم الإداري بالسفارة كما أنه كان يبذل جهوده ليكون ذا فائدة لموظفي السفارة من خلال قيامه بالترجمة لهم وبمساعدتهم في الحصول على خدم روسيين وعلى تسهيلات في مجال الطيران وغيرها.

في هذا المجال كان ميخايلسكي ذا فائدة كبيرة لموظفي السفارة حيث ساهم كثيراً في توفير سبل الراحة لهم مستغلاً صعوبة اللغة الروسية بالنسبة للإنجليز.

ورغم أن رادكليف حاول في تقريره تبرير تعيين مثل هذا الشخص بالخدمات التي كان يؤديها للموظفين إلا أنه اعترف أن تعيينه يعتبر مخاطرة تهدد الأمن، وهو ما ثبتت صحته في قضية فاساك.

ومن المؤكد أن اعتبارات الأمن يجب أن يكون لها الأولوية على أي خدمات أو حتى ولو كانت في سبيل راحة الموظفين.

من المؤكد أيضاً أننا سنستفيد من هذه التجربة وسنعمل على أن يكون كافة أفراد بعثاتنا الدبلوماسية والعسكرية من الأمريكيين من أولهم لآخرهم.

ولا ينبغي أن تدفعنا حقيقة اكتشاف الدول الغربية للعديد من عمليات التجسس السوفييتية إلى الاعتقاد بأن أجهزة الأمن فيها غير فعالة على العكس فإن ذلك يعد أفضل دليل على أن أجهزة المخابرات المضادة لدينا ـ والتي تشكل الجانب الهجومي لأجهزة الأمن هي أجهزة قوية وإليها يرجع الفضل في اكتشاف عمليات التجسس السوفييتية التي ظلت طي الكتمان لسنين طويلة. وعلى الرغم من أن ذلك يمكن أن يصيبنا ببعض الحرج إلا أن الصدمة الكبرى ستكون دون شك من نصيب السوفييت الذين قد يضطرون إلى إعادة النظر في كثير من وسائل التجسس لديهم. وفي الوقت نفسه فإن اكتشاف أمثال هؤلاء الجواسيس السوفييت بيننا يعد تحذيراً ينبهنا لعمق وتطور أساليب التجسس السوفييتية مما يتعين عليه من جانبنا العمل على زيادة إحكام أسلوب الأمن لدينا حتى نتمكن في المقام الأول من منع وقوع مثل هذه الاختراقات.

ولحسن الحظ فإن متطلبات إثبات مثل هذا الاتجاه (أو النزعة) قد تلاشت وهناك حالات تتضمن بيانات محدودة تتعلق بنشاط الطاقة الذرية، ويتصل هذا بكشف معلومات مصنفة في مجال الاستخبارات، كاستخبارات الاتصالات ولا تزال تلح مثل هذه المتطلبات في حالات يتم فيها كشف أنواع أخرى من المعلومات المصنفة. وقد تم كشف المزيد من المعلومات السرية بدون إذن رسمي، حتى ان بعضها ذهب لحكومات أخرى (أجنبية) عندما تم اتخاذ الخطوات الدفاعية مثل محاولة متهمين مساعدة حكومتنا بمساعدتهم لحليف ـ مثلما كان الاتحاد السوفييتي في وقت ما بعد ١٩٤١. وتوجد مشاكل أخرى لطبيعة الأمن، تتبع من خلال تشريعاتنا الموجودة، عندما يكون من الضروري إثبات أن الحالة متعلقة بالأمن القومي والدفاع، كما كان يتطلب قانون الجاسوسية الحالي حينئذ.

وقد قامت تشريعات بريطانية مماثلة، على نظرية الامتياز وأن كل المعلومات الرسمية يمتلكها التاج، وأن هؤلاء الذين يتسلمونها رسمياً، ربما لا يكشفونها بطريقة قانونية بدون سلطة التاج، وهذه النظرية الخاصة بامتياز الحكومة في مثل هذه المسائل تعتبر نظرية سليمة وفي بلدنا توجد حالات عديدة حيث يكشف منها تفاصيل معلومات سرية بطريقة خاطئة وهذه المعلومات التي يتم معرفتها. إما أن يتم الاحتفاظ-

بها أو تمر للعدو، ربما يكون هذا مخالفاً لاهتمامات العامة. وتوجد أوقات يجب أن نتخلى فيها عن الملاحقة كي نكشف مثل هذه المعلومة المصنفة.

إن بعض الأشخاص الذين اتهموا بأعمال خطيرة تؤثر على أمننا لم يتم ملاحقتهم لسبب أو أكثر من الأسباب السابقة. إن معرفة أن حكومتنا تفضل الملاحقة في مثل هذه الحالات الشائعة من التجسس تؤكد لبعض الناس أنـه يمكنهم ارتكاب بعض صغائر الأعمال المخالفة لقوانين التجسس بدون حصانة. وهذه المعرفة تحد من تسرب المعلومات للاتحاد السوفييتي.

إذا قدنا سيارة في الشارع بإهمال وتسببنا في إيذاء شخص أو ممتلكات لا توجد صعوبة في الملاحقة (القانونية) ولكن إذا كانت أكثر أسرارنا خصوصية يتم تداولها بلا مبالاة، فإنه لا يمكن عمل الكثير من أجل هذا حتى لو استطعنا سد الثغرات في تشريعات التجسس والأمن عندنا ـ حتى لو استطعنا وقف إعطاء المعلومات ذات القيمة لعدونا، فلا يزال يوجد خطر الخيانة البشرية وأقصد بهذا المنشقين علينا وأولئك الذين يخونون أسرارنا وحلف الأطلنطي تحت ضغط التحالف والابتزاز من أجل المال أو من أجل أسباب أيديولوجية، أو فقط لإرضاء أنفسهم وتبادل الإثارة من خلال الضجة. وهنا فإن مراقبة الجاسوس الذي يعمل لحكومة ما في مجتمع حر لا يمكن أن يقدم اجراءات مناسبة للحماية بدون أن يظهر خرقاً لحقوق المواطن الفرد. ولسوء الحظ توجد حالات مثل «برجيس» و «ماكلين» و «هاوتون» و«فاسال» و«بليك» في بريطانيا، وآخرون منهم حديثاً العقيد فنيرستردم في السويد الذي خان بلاده، وفي جانبنا هروب الفنيين الاثنين عام ١٩٦٠ وهما من مجلس الأمن القومي «وليام هـ. مارتن» و «بيرنون ف. ميتشيل» اللذين أحدثا صدمة كبيرة لنا وكذلك خيانة «ارفين سكاربيل»، وهو عمل قذر يدل على الضعف.

جهاز المخابرات وحريتنا

من وقت إلى آخر يوجه إلى المخابرات أو جهاز الأمن تهمة تهديد حريتنا الخاصة وأن السرية التي يجب أن تعمل في ظلها في حد ذاتها اثم خفي وأن أنشطتها قد لا تتفق مع مبادىء المجتمع الحر. كما أن هناك بعض الكتابات التي تعتمد على العاطفة حول وكالة المخابرات المركزية تفترض أن الأخيرة تدعم الحكام الدكتاتوريين كما أنها تفتح سياسة قومية خاصة بها وكذلك تفعل ما تشاء بتمويلها السري. وقد قدم هاري هورانسوم دراسة عن المخابرات المركزية والأمن القومي، جاء فيها ما يلي:

«إن وكالة المخابرات المركزية تقوم بعمل لا غنى عنه بجمعها وتقييمها للحقائق العالمية لمجلس الأمن القومي. إلا أن الوكالة ما زالت بالنسبة لبعض الأشخاص وكالة حكومية غامضة وسرية للغاية بيد أن دورها الخفي وقتها وتأثيرها والسرية التي تحيط بهيكلها وعملياتها تثير أسئلة هامة فيما يتعلق بمكانتها في المسيرة الديمقراطية، ومن بين هذه الأسئلة كيف تضمن دولة ديمقراطية أن جهاز مخابراتها السري لن يصبح وسيلة أو يقوم بعملية قمع للحريات التقليدية للحكومة الذاتية الديمقراطية؟».

يمكن أن نفهم كيف أن منظمة جديدة نسبياً في هيكل حكومتنا مثل وكالة المخابرات على الرغم من رغبتها في تحقيق الاستقلال تحظى بدعاية أكثر مما تستحقه كما أنها تكون موضعاً للتشكك والهجوم. وقد دفعني إلى كتابة هذا التحليل عن المخابرات رغبة في وضع المخابرات في مجتمعنا الحر في منظورها الصحيح. وكما أشرت بالفعل فإن وكالة المخابرات المركزية مؤسسة حكومية، كما أن واجباتها وموضعها في السلطة الرسمية والقيود المحيطة بها محددة جزئياً في القوانين وجزئياً

ايضاً في توجيهات مجلس الأمن القومي وفي الوقت نفسه يجب أن يظل الكثير من أعمال هذه الوكالة مثلها مثل الادارات الحكومية الأخرى طي الكتمان.

وقد أشرت بالفعل أن أجهزة الأمن في روسيا القيصرية والسوفييتية وفي المانيا تحت حكم هتلر وفي اليابان في ظل حكم دعاة الحرب وفي عدة دول أخرى والتي كانت تقوم ببعض مهام المخابرات كما كانت تساعد حاكماً مستبداً أو مجتمعاً شمولياً على قمع الحرية داخل الوطن فضلاً عن القيام بالعمليات الارهابية في الخارج.

بالاضافة إلى ذلك وكما افترضت بالفعل هناك الكثير من الأحداث أوضحها في أمريكا اللاتينية حوَّل فيها الحكام الدكتاتوريون أجهزة المخابرات الحقيقية إلى أجهزة جيستابو خاصة للابقاء على حكمهم.

وقد أدى هذا الاستخدام السيىء لجهاز المخابرات والسمعة السيئة الواسعة النطاق التي اكتسبها إلى شعور كثير من المواطنين بالحيرة إزاء المهام الحقيقية لجهاز المخابرات في المجتمع الحر. إن حكومتنا بطبيعتها ومجتمعنا المفتوح بكل غرائزه يحظر بصورة تلقائية منظمات المخابرات المماثلة لتلك التي ظهرت في الدولة البوليسية وذلك في ظل الدستور وقانون الحقوق. ولا يمكن أن تظهر منظمات مثل الجيستابو تحت رئاسة هتلر والمخابرات في عهد خروتشوف في هذا البلد. وينص القانون الذي تشكلت على أساسه وكالة المخابرات المركزية بشكل محدد على «أن الوكالة لن تكون لها قوات بوليس أو أمن أو قوة لتنفيذ القانون أو مهام أمنية داخلية» إضافة إلى أن وكالة المخابرات تخدم السياسة ولا تضعفها. كما أن جميع الأعمال التي تقوم بها ناجمة عن السياسة القومية المحددة التي يجب أن تتفق معها. كما أنه لا يمكنها أن تعمل دون أن تحصل على تخويل بذلك من أعلى المنظمات التي توافق على سياسة الحكومة وتسهم في وضعها.

كما أن القانون الذي أقر بموافقة الحزبين يوفر أيضاً ضمانات قانونية وعملية لعمل وكالة المخابرات المركزية ولكن هذه الضمانات يتفق أغلبها مع القيود التي تحمي أي دولة ديمقراطية.

ووكالة المخابرات المركزية تخضع مباشرة لمجلس الأمن القومي وهي بذلك تخضع مباشرة للرئيس الذي يعتبر أكبر سلطة منفذة في العالم ومسؤولاً عن مراقبة وإدارة عمليات وكالة المخابرات المركزية. وتصدر توجيهات مجلس الأمن القومي في ظل سلطة قانون الأمن القومي لعام ١٩٤٧ الذي ينص على أن الوكالة فضلاً عن المهام والواجبات المحددة لها في ظل القانون، لها سلطة «أداء مهام اضافية ذات

اهتمام مشترك وذلك لصالح وكالات المخابرات القائمة حيث إن مجلس الأمن الوطني يرى أن انجازها سيكون أكثر كفاءة لو عمل بشكل مركزي وكذلك أداء مهام وواجبات أخرى متعلقة بالمعلومات المؤثرة على الأمن القومي وفقاً لتوجيهات مجلس الأمن القومي من وقت إلى آخر».

يقوم الرئيس باختيار مدير الوكالة ونائب المدير ويقر مجلس الشيوخ هذا الاختيار. وعملية الاختيار هذه ليست مسألة روتينية بأي حال من الأحوال. وخلال الأعوام الخمسة عشـر الماضية تعاقب أربعة مديرين على الوكالة هم:

١ ـ العميد البحري روسكوهذي هيلن ـ كتر الذي كانت له خدمات بارزة في البحرية والمخابرات البحرية.

٢ ـ الجنرال والتر بيدل سميث الذي عمل كسفير أمريكي في الاتحاد السوفييتي لمدة ثلاث سنوات ثم تولى فيما بعد منصب مساعد وزير الخارجية وذلك بالاضافة إلى عمله البارز في الجيش.

٣ ـ الكاتب ـ وليس من المناسب أن أكتب تعليقاً في هذا المكان وذلك باستثناء ذكر الخدمة لفترة طويلة في الحكومة وكذلك العمل لأعوام كثيرة في جهاز المخابرات.

٤ ـ جون ماكون الذي قدم خدمات بارزة في ظل ادارتي ترومان وايزنهاور قبل توليه منصب مدير وكالة المخابرات في عام ١٩٦١ وقد شغل الكثير من المناصب الحكومية الهامة مثل عضو لجنة السياسة الجوية التابعة للرئيس ونائب وزير الدفاع ومساعد وزير القوات الجوية ثم عمل رئيساً للجنة الطاقة الذرية الأمريكية.

وينص القانون على ضرورة تولي شخص مدني اما لمنصب مدير الوكالة أو نائبه ومن الناحية النظرية يمكن أن يتولى مدنيون المنصبين بينما لا يستطيع العسكريون ذلك. (ولقد كانت السياسة المتبعة في السنوات العشـر الماضية تقسم المنصبين بين العسكريين والمدنيين). والمديران الآخران وهما مدنيان كان نائباهما من العسكريين ذوي الخبرة الكبيرة. وكان الجنرال شارلز بيجاري كابل نائباً خلال فترة رئاسته. والآن الفريق اس. كارتر يعمل تحت رئاسة جون ماكون. ويمكنني أن أقول إنه من خلال خبرتي في الوكالة في العمل تحت إمرة ثلاثة رؤساء أن رئيس الولايات المتحدة يهتم بشكل مستمر وكبير بعمليات الوكالة. وقد خدمت لمدة ثماني سنوات من بين السنوات الإحدى عشرة التي قضيتها كنائب لمدير وكالة المخابرات ومدير لها تحت إمرة ايزنهاور. وقد أجريت الكثير من المناقشات معه حول الأعمال اليومية للوكالة وبصفة خاصة فيما يتعلق بصرف الأموال المخصصة للوكالة. وأذكر أنه أبلغني يوماً أنه يتعين علينا وضع نظام للوكالة للحسابات الداخلية والمصاريف

السرية حيث نقوم بعمل مستندات بالأموال التي يخصصها الكونجرس والتي لا يمكن انفاقها إلا بتوقيع المدير على أن تكون الاجراءات أكثر دقة من تلك الخاصة بمكتب المحاسبة العام قدر الامكان.

وغالباً ما تكون وكالة المخابرات المركزية على استعداد لتقديم بيان للرئيس وللجان الكونجرس الفرعية المسؤولة عن تقديم المخصصات ولمكتب الميزانية حول كل بنس أنفق مهما كان الهدف وذلك في الوقت الذي من الواضح فيه أن الكثير من النفقات يجب أن تظل سرية.

وقد خضعت الوكالة خلال السنوات السابقة لسلسلة من التحقيقات الخاصة حول أنشطتها. ولقد كنت انا شخصياً كما ذكرت رئيس اللجنة الثلاثية التي قدمت تقريراً للرئيس ترومان في عام ١٩٤٩ حول عمليات مركز المخابرات المركزية. كما تمت دراسات إخرى تحت رعاية لجنتي هوفر، الأولى في عام ١٩٤٩ والثانية في عام ١٩٥٥. وقامت اللجنتان بدراسة تنظيم الجناح التنفيذي من الحكومة كما قامتا بدراسة هيكل المخابرات لدينا. والمسح الذي أجري في عام ١٩٥٥ عندما توليت منصب مدير الوكالة تضمن تقريراً أعدته فرقة عمل تحت رئاسة الجنرال مارك كلارك وفي الوقت نفسه تقريباً أعدت مجموعة عمل خاصة برئاسة الجنرال جيمس دولتك مسحاً خاصاً لعدد معين من العمليات الأكثر سرية لتقديمه للرئيس ايزنهاور. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن قوة عمل الجنرال كلارك أعربت عن قلقها ازاء ندرة المعلومات التي تجمعها المخابرات من خلف الستار الحديدي وطالبت بوجود «قيادة اكثر مغامرة وجرأة ومثابرة»، وقدمنا التقرير على انــه مشروع عمل لا أكثر ولا أقل. كما أن تصميم الطائرة U - 2 كان على الطاولة وكانت ستحلق في الفضاء بعد عام.

ومن بين توصيات مسح لجنة هوفر لعام ١٩٥٥ الدعوة لتشكيل لجنة مدنية رئاسية دائمة وغالباً ما يطلق عليها لجنة المراقبة. ولقد درست مع الرئيس ايزنهاور أفضل الوسائل لتحقيق ذلك ولقد كنت شخصياً أؤيد هذا الاقتراح بشدة. وقد عين ايزنهاور مجلساً استشارياً للرئيس للأنشطة الخارجية للمخابرات الذي تولى رئاسته لبعض الوقت الرئيس الشهير لمعهد ماستشوبوتي للتكنولوجيا الدكتور جيمس كيلياتن. وقد قام الرئيس كيندي بعد وقت قصير من توليه منصبه باعادة تشكيل هذه اللجنة الرئاسية مع إجراء تعديل بسيط على أعضائها وظلت برئاسة الدكتور كيلياتن الذي استقال من منصبه في أبريل عام ١٩٦٣ ليخلفه مستر كلارك كليفورد وهو محام وخبير بارز في الحكومة. وقد كانت جميع ملفات وسجلات وأنشطة ونفقات وكالة المخابرات المركزية مطروحة أمام اللجنة الرئاسية التي تجتمع عدة مرات سنوياً.

أما التوصية الأخرى للجنة هوفر والتي تدعو لدراسة تشكيل لجنة رئاسة من الكونجرس فقد كان لها تاريخ عاصف إلى حد ما. في عام ١٩٥٣ قدّم عضو مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد قبل صدور توصيات لجنة هوفر مشروع قانون لتشكيل لجنة مشتركة من الكونجرس لمراقبة وكالة المخابرات المركزية تماثل إلى حد ما اللجنة المشتركة للطاقة الذرية. وفي الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٥٣ بعث إلي برسالة يسأل فيها عن العلاقة بين الكونجرس والوكالة وعن رأي الوكالة ازاء القرار الذي تقدم به. وفي أثناء غيابي في الخارج رد عليه نائبي الجنرال طابل وذكر أن العلاقات بين وكالة المخابرات المركزية والكونجرس أقوى من أي علاقات قائمة بين أي جهاز للمخابرات في أي دولة أخرى والجهاز التشريعي بها.

وبعد عدة سنوات تم التصويت على هذه القضية في الكونجرس على هيئة قرار متزامن يتبناه السناتور مانسفيلد. وكان القرار يحظى بتأييد كبير حيث انه شارك في تقديمه ٣٥ من أعضاء مجلس الشيوخ يمثلون الحزبين. وقد حظي القرار بتأييد لجنة النظم في مجلس الشيوخ في فبراير ١٩٥٦. إلا أنه واجه معارضة قوية من السناتور كارل هايدن الذي كان يرأس أيضاً لجنة المخصصات في مجلس الشيوخ وقد دعم وجهة نظر السناتور هايدن السناتور ريتشارد روسيد رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ والسناتور ليفربت سالتونستال أحد كبار الأعضاء الجمهوريين في اللجنة. وفي أبريل صوّت مجلس الشيوخ بعد نقاش مثير ضد قرار اقامة لجنة مراقبة بأغلبية كبيرة مما يثير الدهشة. وقال السناتور روسيل في معارضته للقرار ما يلي «على الرغم من أننا وجهنا إلى آلان دالاس أسئلة دقيقة للغاية حول بعض الأنشطة التي تقشعر لسماعها أبدان الرجال إلا أنه لم يتردد أبداً في الاجابة على أي سؤال وجهناه اليه بصراحة وبشكل مباشر» وقد اتخذ قرار في هذه القضية عندما أبدى هذه الشهادة آلان باركلي النائب السابق للرئيس (الذي كان عضواً في مجلس الشيوخ في ذلك الوقت) والذي تكلم من منطلق خبرته كعضو في مجلس الأمن القومي. كما شاركه في معارضته القرار السيناتور ستيوارت سيمنجتون وهو على علم وثيق بأعمال الوكالة منذ أن كان وزيراً للقوات الجوية. وعند التصويت على القرار بشكل نهائي عارضه ٥٩ وأيده ٢٧ حيث غيّر عشرة من الذين شاركوا في تقدير القرار مواقعهم وانضموا للأغلبية في رفض الاقتراح. حيث استمعوا بشكل كاف إلى ما اقنعهم بأنه ليس هناك حاجة لهذا الاجراء في الوقت الحالي على الأقل.

وقد تم التأكيد إلى حد كبير خلال المناقشة على أنه تم بالفعل وضع الاجراءات التي تخدم الهدف الذي يسعى إليه القرار وأن هذه الاجراءات أدت وظيفتها على نحو طيب لعدة سنوات.

كما أن أي انطباع عام بشأن عدم ممارسة الكونجرس أي سلطة على وكالة المخابرات المركزية خاطىء تماماً. ان التحكم في تمويل الوكالة يعد سيطرة كاملة النطاق على عملياتها: أي عدد الأشخاص الذين توظفهم وحجم الأعمال التي تقوم بها وإلى حد ما الأعمال التي تنفذها. كما أن ميزانية الوكالة تخضع لمراجعة من جانب مكتب الميزانية الذي يجب أن يوافق على الأموال المخصصة لوكالة المخابرات المركزية وبالطبع يشمل ذلك موافقة الرئيس وهذا كله قبل أن تدرس لجنة الكونجرس الفرعية ميزانية الوكالة بنفسها. ثم تدرس اللجان الفرعية التابعة للجان الاعتمادات في مجلس الشيوخ والنواب الميزانية كما هو الحال بالنسبة لوكالات وادارة الحكومة. والفرق الوحيد في حالة وكالة المخابرات المركزية هذه أن حجم الميزانية لا يتم الكشف عنه علناً إلا للجان الفرعية.

ويرأس لجنة مجلس النواب الفرعية كلأرنس فانون ولا يمكن ايجاد مراقبة أكثر دقة من هذا الرجل في وزارة الخزانة العامة وهذه اللجان الفرعية لها حق الاطلاع على أي أوراق تطلبها تتعلق بميزانية المخابرات وأن تحصل على تفسير للنفقات سواء في الماضي أو المستقبل كما تشاء.

وقد اتضح كل ذلك في البيان الهام الذي القاه مستر فانون في مجلس النواب في العاشر من مايو عام ١٩٦٠ مباشرة عقب فشل رحلة U - 2 بقيادة فرانسيس جراي باورز حيث أعلن «ان الطائرة كانت تقوم بمهمة تجسس بخفض التمويل المقدم في اطار الاعتمادات التي أوصت بها لجنة الاعتمادات في مجلس النواب والتي أقرها الكونجرس وبتفويض من هذه اللجنة. كما أشار حقيقة إلى أن هذا التمويل والنشاط وافق عليه وأوصى به مكتب الميزانية كما أنه مثل جميع النفقات والعمليات تم تحت رقابة الرئيس. كما ناقش حق اللجنة الفرعية التابعة للجنة المخصصات في اصدار توجيه بتخفيض أموال لمثل هذا الغرض وحقيقة أن هذه الأنشطة لم يتم الكشف عنها لمجلس النواب والمواطنين. كما ذكر أن الظروف التي تم خلالها تخفيض مليارات الدولارات «حدثت في الحرب العالمية الثانية» للقنبلة الذرية من خلال مشروع مانهاتن في ظل نفس الضمانات العامة التي توفرت للطائرة U - 2 أي وفقاً لسلطة اللجنة الفرعية التابعة للجنة الاعتمادات. كما أشار فانون إلى أنشطة التجسس الواسعة النطاق التي يقوم بها الاتحاد السوفييتي وأنشطة جاسوسية في سرقة سر القنبلة الذرية كما ألمح إلى الهجوم الشيوعي المفاجىء في كوريا في عام ١٩٥٠ وبرر عملية U - 2 بهذه الكلمات:

«لقد كنا نذكّر الوكالة في كل عام بأنه يتعين عليها مواجهة الأوضاع المماثلة

باجراءات فعالة، لقد أخبرناهم أن هذا يجب ألا يتكرر مرة أخرى وأن الأمر متروك لهم كي يتأكدوا من عدم حدوث مثل هذا الأمر مرة أخرى ولقد كانت الخطة المتبعة وقت الاستيلاء على الطائرة تمثل استجابتهم لهذا المطلب».

كما انتهز مستر فانون الفرصة للاشارة لما قامت به وكالة المخابرات حيث أرسلت طائرات تجسس للتحليق فوق الاتحاد السوفييتي في السنوات الأربع السابقة على أسر باورز. لقد أظهرنا هنا بشكل حاسم أن الرجال الأحرار الذين يواجهون أكثر أشكال الحكم الاستبدادي اجراماً وتحجراً يمكنهم في ظل دستور الأمم المتحدة حماية هذه الدولة والحفاظ على الحضارة العالمية.

ولقد ذكر بوضوح كيف أن أكثر عمليات المخابرات سرية والتي تخضع لضمانات مناسبة عرضت أمام ممثلي الشعب في الكونجرس.

بالاضافة إلى الفحص الدقيق الذي تقوم به لجنة الاعتمادات لأنشطة الوكالة توجد أيضاً لجنة فرعية تابعة للجنة القوات المسلحة في مجلس النواب ويرأسها عضو الكونجرس كارل ميتنسون في لجنة القوات المسلحة نفسها. وتقدم الوكالة التقارير حول عملياتها الحالية لهذه اللجنة الفرعية وفقاً للنطاق والتفاصيل التي ترغب اللجنة في الاطلاع عليها، والدراسة هنا لا تتركز حول النواحي المالية بل تتعلق بجميع العناصر الأخرى لعمل وكالة المخابرات. وفي مجلس الشيوخ توجد لجنة فرعية مماثلة تابعة للجنة القوات المسلحة.

وقد سعت لجان الكونجرس المعنية لدراسة تشكيل وكالة المخابرات المركزية منذ خمسة عشر عاماً لمعرفة الرأي في هذا الشأن. وبالاضافة إلى التقدم بشهادتي قدمت مذكرة - نشرت في سجل الاجراءات - افترضت فيها تشكيل جهاز استشاري للوكالة يضم ممثلين عن الرئيس ووزير الخارجية ووزير الدفاع. كما افترضت أن تقوم هذه المجموعة بتحمل مسؤولية تقديم النصيحة والمشورة لمدير الوكالة فضلاً عن ضمان وجود وسيلة اتصال مناسبة بين الوكالة وهاتين الوزارتين والرئيس». وقد تم اتباع هذا الاجراء واخضعت له جميع العمليات ذات الطابع السري والتي تتعلق بالاعتبارات السياسية.

وبالطبع فإن العامة والصحافة ستظل لديهم حرية انتقاء الأعمال التي تقوم بها الوكالة بما في ذلك التي يتم الكشف عنها عن طريق الخطأ أو الصدفة وهذا ينطبق على أنشطة المخابرات مثلما ينطبق على أي من انشطة الحكومة ويجب أن تكون وكالة المخابرات ومديرها بصفة خاصة على استعداد لتحمل المسؤولية في حالة فشل أي

من عمليات المخابرات مما أدى إلى ذيوعها وذلك في حالة استحالة لجوئه إلى الصمت وفي بعض الحالات مثل هبوط 2 - U في أراض سوفييتية والمسألة الكوبية في أبريل عندما أعلن الرئيس مسؤوليته عن هذه العمليات وذلك لأسباب وجيهة كما قلت بالفعل.

ومن القوانين الثابتة بالنسبة للوكالة تلك التي تنص على أن الوكالة يجب أن تنأى بنفسها عن الأمور المتعلقة بالسياسة كما أن العاملين بها يجب أن ينأوا بأنفسهم أيضاً عن العمل السياسي. حيث لا يسمح لأي من العاملين في الوكالة من المدير حتى أسفل درجات السلم الوظيفي بالاشتراك في أي أنشطة سياسية مهما كانت طبيعتها باستثناء عملية الترشيح في الانتخابات. وفي حال حدوث استقالة المتطلع للعمل السياسي تقبل أو تطلب مباشرة ـ مع اطلاعه على عدم احتمال إعادة تعيينه بسرعة في حال فشله في الساحة السياسية.

بيد أن أكثر الضمانات أهمية في عملية التحليل النهائية يكمن في شخصية وانضباط قيادة جهاز المخابرات والعاملين فيها وحول شخصية الرجال والسيدات الذين يتولون العمل ووحدتهم واحترامهم للعملية الديمقراطية واحساسهم شخصياً بواجبهم في أداء المهام والأفعال الموكلة اليهم.

ويمكنني أن أشهد بعد أن أمضيت عشر سنوات في خدمة جهاز المخابرات أنني لم أعرف قط مجموعة من الرجال والسيدات أكثر اخلاصاً في الدفاع عن هذا البلد وأسلوبه في الحياة أكثر من هؤلاء الذين يعملون في وكالة المخابرات المركزية. ان مواطنينا لا ينضمون إلى جهاز المخابرات من أجل عائد مادي أو لأن الجهاز يوفر لهم في مقابل هذا العمل مناصب عليا ـ انهم ينضمون الينا حتى تتاح لهم فرصة خدمة البلاد ولقيمة العمل الذي يقومون به كما أنهم يعتقدون أنه من خلال هذا الجهاز يمكنهم أن يساهموا شخصياً في أمن بلادهم.

إن جهاز المخابرات ليس بالمنظمة الذي تهدد حريتنا بل ان الخطر غالباً ما يتمثل في عدم معرفتنا بشكل مناسب بالأخطار التي تواجهنا. فإذا ما زاد عدد الدول التي تشهد احداثاً مماثلة لما وقع في كوبا وإذا ضعفت بصورة أكبر الدول غير الشيوعية المعرضة للخطر الآن، إذا فإننا سنصبح معزولين ويمكن أن تصبح حريتنا أيضاً في خطر.

ونحن ندرك جيداً مدى التهديد العسكري في ظل عصر الصواريخ النووية وننفق الملايين بشكل مناسب لمواجهة هذا التهديد. وبالمثل يجب أن نواجه جميع جوانب الحرب غير المنظورة وحروب خروتشوف من أجل الحرية والتهديدات

التخريبية التي يعدها الحزب الشيوعي السوفييتي بكل جبهاته وفروعه بمساندة التجسس. ان آخر شيء يمكن أن نضيفه الآن تقييد المخابرات حيث لاغنى عن دورها في حماية المجتمع وتقديم المعلومات في عصر نواجه فيه خطراً متزايداً ومستمراً.

١

الفهرس